

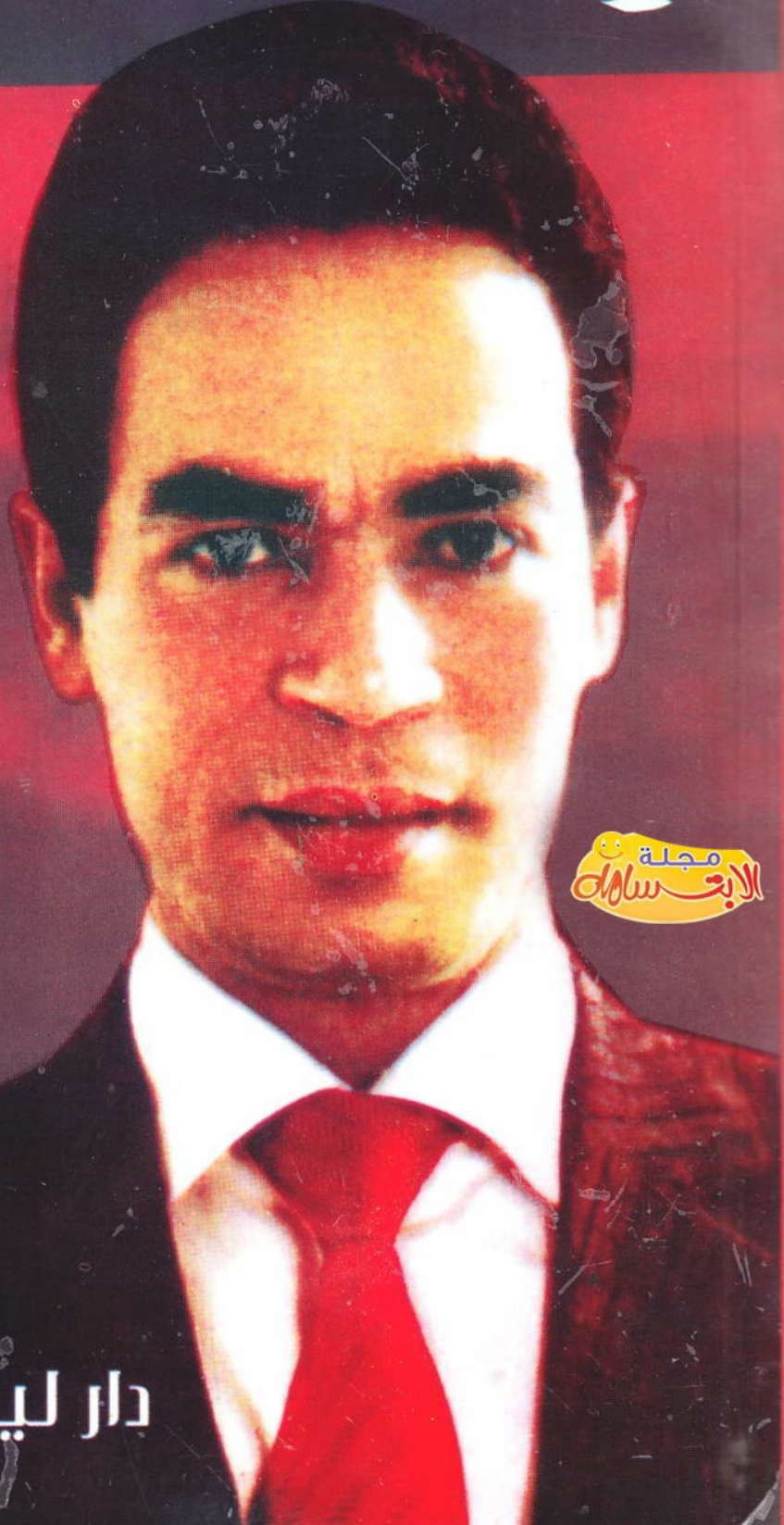
www.ibtesama.com

# إِسْرَائِيل

\*\* معرفتي \*\*

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامه



مجلة  
الإبتسامه

أحمد المسلماني

دار ليلي  
للنشر والتوزيع  
جنان كورب

www.ibtesama.com

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

# أحمد المسلماني

**\*\* معرفتي \*\***  
[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)  
منتديات مجلة الإبتسامة

# بعد إسرائيل

دار ليل كيان كورب  
للنشر والتوزيع

مكيان كورب للنشر والتوزيع

## دار ليلى

الكتاب:

ما بعد إسرائيل

المؤلف:

أحمد المسلماني

\*\*\*

رقم الإيداع:

20009/2012

الترقيم الدولي:

978-977-6238-60-4

\*\*\*

المدير الفني:

حسام سليمان

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

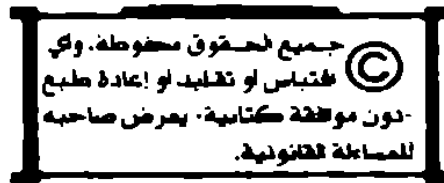
الإشراف العام:

محمد سامي

للهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: (02) 33370042، (002) - (012) 23885295

البريد الإلكتروني: [mail@darliya.com](mailto:mail@darliya.com) للوائح الرسمية: [www.darliya.com](http://www.darliya.com)



مكيان كورب  
للنشر والتوزيع والطباعة  
دار ليلي

# احمد المسلماني ما بعد إسرائيل



**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

# إهداء

إلى روح الشيخ محمد المسلماني.. والدًا ومعلمًا عاش حياته كلها ينتظر ما هو أفضل.  
إنتهى الإنتظار ولم يشهد ذلك الأفضل.  
لكنه أمضى حياته ممتلئًا بالقوة والثقة.  
لقد كان يملك تلك الطاقة الأسطورية التي لاتنتهي.. الأمل.

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



## من هنا نقرأ

ليس الهدف من هذه السطور تقديم دراسة تاريخية وافية، ولا تقديم متفرقات انطباعية عابرة.. بل توسط الهدف غايتين بعيدتين، فبدأ الكتاب عاجلاً لأن يأملون الفحص والتصحيح، وجاء وافيّاً لأن ينشدون فضائل الاختصار.

ليس الهدف أيضاً تقديم رأى قاطع فى الحرب أو السلام.. فى ضرورة التسوية أو فى حتمية القتال، بل توسط الرأى وجهتين بعيدتين، مابين صراع قد لا يزول، وسلام قد لا يكون.. وبينهما واقع قد لا يدوم.

إنها قراءة لا كتابة، أفكار لا أحكام.. من منعة القارئ لا من سلطة القضاء.

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

## مقدمة الطبعة الثانية

مضى على الطبعة الأولى من كتابي "ما بعد إسرائيل" قرابة العقد من الزمان.. ولا تزال رؤيتي عند ما رأيت بل أقرب مما رأيت.. إننا نمضي من "حقبة إسرائيل" إلى "حقبة ما بعد إسرائيل".

من حقبة إسرائيل التي عرفناها منذ أكثر من ستين عاماً إلى إسرائيل أخرى.. أوهن قوة وأضعف سلطاناً.

...

نفذت الطبعة الأولى قبل سنوات، وكنت في كل مرة أنوى إصدار الطبعة الثانية من "ما بعد إسرائيل" أجد صعوبة في ترميم المسافة بين توقيت صدور الكتاب وما جرى لاحقاً. ذلك أن الحوادث كانت عديدة وكثيفة. وقد خشيت أن يكون مدّ كل فصل إلى نهايته عملاً صعباً ومربكاً.. ذلك أن الإضافات الجديدة تأتي من قلب السياسة أما الإجهادات السابقة فهي من قلب التاريخ. وكنت أتماء كثيراً.. كيف يمكن أن أصل في أمان حديث التاريخ بأحداث السياسة.

وبقيت على ذلك طويلاً حتى وجدت غايتي في كتاب وزير الخارجية التركي أحمد داوود أوغلو "العمق الإستراتيجي".

حظي كتاب أوغلو بالإهتمام والاحترام.. وقد وجدته يشير في سطور مقدمته إلى المعضلة ذاتها التي واجهتني. يقول أوغلو: "منذ صدور هذا الكتاب وقعت متغيرات جذرية وتحولات كبيرة.. وقد أضفت لهذا الكتاب فصلاً لم يكن موجوداً في الطبعة الأولى، يتناول

أهم التطورات التي جرت منذ نشر هذا الكتاب وحتى الوقت الحالي”.

ولقد وجدته ماضياً وراء أوغلو فيما ذهب إليه من حلّ.. فهذا بالضبط ما كنت أحتاج إليه.. فصل جديد منفصل يتناول أهم التطورات التي جرت منذ نشر هذا الكتاب وحتى الوقت الحالي.

وهو الفصل الرابع من هذا الكتاب ”ربيع العرب وخريف إسرائيل“

• • •

كنت أتحدث على شاشة التلفزيون عن رحيل بطل المخابرات المصري الشهير أحمد الهوان الذي اشتهر باسم ”جمعة الخوان“ وبعد حديثي بقليل اتصل بي السيد ”خالد مشعل“ زعيم حركة حماس.

أبدي خالد مشعل احتراماً لما أطرحه بشأن الصراع العربي الإسرائيلي.. ثم تحدث عن الدور السياسي القادم للقاهرة في تلك المنطقة الخطيرة من العالم.

وقد لفت انتباهي في تلك المحادثة مقالته بشأن المخابرات المصرية وبورها في صفقة تبادل الضابط الإسرائيلي جلعاد شاليط مقابل أكثر من ألف من الفلسطينيين في سجون إسرائيل.. قال لي خالد مشعل: إنني على اتصال دائم مع المخابرات المصرية وأعرف قاداتها جيداً، وقد تعاملت مع رجالها في زمن الرئيس السابق حسني مبارك وفي زمن الثورة.. لقد تعاملت مع نفس الرجال، ولكنهم لم يكونوا بنفس الروح.. لقد عادت الروح إلى رجال المخابرات المصرية بعد الثورة.. إننا إزاء جهاز جديد وضباط جدد رغم أنهم لم يتغيروا.. إن الروح والكفاءة والإقتدار التي لازمتهم جعلتني أرى مستوى آخر تماماً.. يدعو للفخر والإعتزاز.

يشغل ”خالد مشعل“ المنصب الأعلى في حركة حماس، وأذكر أنني حين زرت غزة في عام 2010م والتقيت رئيس الوزراء الفلسطيني السابق إسماعيل هنية، تحدثت مع كثيرين في حماس وأدركت تماماً أن القرارات الكبرى في غزة تأتي من خالد مشعل في دمشق..

• • •

جاء الصعود الكبير لحركة حماس على الساحة الدولية بعد فوزها في الإنتخابات الفلسطينية التي جرت في يناير عام 2006م، حيث فاجأت "حماس" نفسها والعالم بالحصول على ضعف ما حصلت عليه حركة فتح.

وبعد أن كانت "حماس" تمثل المعارضة الرئيسية لحركة فتح.. أصبحت الحركتان في السلطة معاً.. الرئاسة لفتح والحكومة لحماس.

لم يدم ذلك الوضع طويلاً.. فبعد عام ونصف العام أقال الرئيس محمود عباس حكومة حماس في يونيو عام 2007م.

أقالت الرئاسة الحكومة، لكن الحكومة عارضت الرئاسة.. وقامت حماس بالسيطرة الكاملة على السلطة في قطاع غزة.

أصبح العنوان الرئيسي للقضية الفلسطينية في العالم هو الصراع بين فتح وحماس لا الصراع بين فلسطين وإسرائيل. لم يكن الصراع في معظم مراحله يتسم بالمسئولية.. بل كان يتجه من سن إلى أسوأ. وتسرّب الإحباط لدى أنصار الدولة الفلسطينية الذين فوجئوا أنهم إزاء دولتين فلسطينيتين.. واحدة في غزة تديرها حماس والثانية في رام الله تديرها فتح!

وجدت إسرائيل في صعود حماس أمراً جيداً.. ثمة حركة يمكن إتهامها بالإرهاب أصبحت تحكم فلسطين الآن. وراحت تل أبيب تروج للإرهاب الفلسطيني وللحكومة المتطرفة التي تقتل الأطفال في إسرائيل.

وفي عام 2008م شنت إسرائيل حرباً كارثية على غزة أهانت فيها البادئ الإنسانية والقوانين الدولية. وهي الحرب التي أسقطت (1400) من الشهداء الفلسطينيين وأحالت قطاع غزة إلى قطاع من الجحيم!

...

كانت حركة حماس تتطور ولكن أحداً في إسرائيل لا يريد سماع أخبار جيدة من الطرف الآخر.. إن حركة حماس التي لا تعترف بإسرائيل أصبحت راغبة وجاهزة

للاعتراف بإسرائيل شرعية إقامة دولة فلسطينية طبقاً لقرارات مجلس الأمن.   
 قال محمد باقر الخليلي في كتابه "السلام في الشرق الأوسط" إن  
معايير يهودية طردها التوراة وهو كتابه يهودي فرنسي يكتب في صحيفة "لو فيجارو" أنه  
التقى خالد مشعل في دمشق قبل ساعتين من القفول الإسرائيلي على غزة.. وأن مشعل قال  
له "لننضم مستودع للاعتراف بإسرائيل والاتفاق معها على دولة في حدود 1967.. إننا نلجأ  
إلى القوة للحصول على ذلك ولكننا إذا حصلنا على ذلك بالسلام فسوف نوافق".

تدريجاً وقد عرفنا فيما بعد أن خالد مشعل قد أبلغ ذلك الرأي الذي يمثل تحولاً كبيراً في  
أطروحات حركة حماس لعدد آخر من الشخصيات الدولية.

٤. وحين التقيت رئيس الوزراء الروسي السابق "بيجيني بريماكوف" في جزيرة  
مالطة في ربيع عام 2010، قال لي أنه التقى خالد مشعل في دمشق وأنه سمع منه بوضوح  
أن حركة حماس تقبل بقرار مجلس الأمن (242) وبدولة فلسطينية على حدود 4 يونيو  
1967 مقابل الاعتراف بدولة إسرائيل.

• • •

إن إسرائيل التي ترفض إقامة دولة فلسطينية على حدود عام 1967، لا ترغب على  
وجه العموم في إقامة علاقات جيدة مع أي طرف.. لا الفلسطينيين ولا غيرهم. بل إن الدولة  
الأهم التي ربطتها اتفاقية سلام مع إسرائيل وجدت نفسها في وضع العدو الدائم للسياسة  
الإسرائيلية.

وبدأت تتكشف تدريجياً حقائق مفزعة عن خطط إسرائيلية لتقويض الاستقرار في  
مصر.. سواء عبر دعم فتنة داخلية بين المسلمين والمسيحيين أو عبر دعمها لدول حوض  
النيل للتضييق المائي على مصر.

وقد نشرت الصحف تقارير عن دراسة أعدها سفير إسرائيل السابق في القاهرة  
"تسيفي مزرائيل" حول الصراع على النيل.. وفيها تحدث مزرائيل عن اتجاه عدد السكان  
في إثيوبيا والكونغو للزيادة على نحو يجعل البلدين أكبر من مصر.. ومن ثم احتياجهم إلى

كميات مياه أكبر في السنوات القادمة.. وهو ما يجعل مصر في أزمة وربما يدفعها للحرب.  
وانتهى مزارئيل في دراسته إلى ضرورة أن يتم تحويل النزاع على مياه النيل وأن  
يدخل العالم فيه قبل أن تعلن مصر قيام الحرب!  
وهكذا.. فإن الدبلوماسي الإسرائيلي لا يرى حلاً للأزمة التي تتمتع فيها مصر  
بموقف قانوني قوي للغاية.. إلا بالتدخل الدولي على حساب الحقوق المصرية في مياه النيل.

• • •

لقد كان نظام الرئيس السابق حسنى مبارك هزلاً.. وحين سقط النظام هادت مصر  
أكثر صلابة في مواجهة إسرائيل. وقد شنّ رئيس المخابرات المصرية السابق اللواء مراد  
موافى هجوماً شديداً على إسرائيل أثناء توليه منصب محافظ شمال سيناء عقب الثورة  
المصرية 2011.. واتهم اللواء موافى إسرائيل بلعب نور قذر مع دول حوض النيل.. وقال  
إن جهاز المخابرات الإسرائيلي "الموساد" خطط لإنشاء أنابيب لنقل المياه من أثيوبيا إلى  
إسرائيل..

وعلى خلاف تصريحات الساسة المصريين في عهد مبارك، قال اللواء موافى مهدداً  
"إن مصر تعى تماماً خطط إسرائيل القذرة.. ولكنه ليس بمقتور أحد أن يضرّ ببلادنا"..  
ويدروهم فإن قادة الجيش المصرى تحدثوا بقوة عن مواجهة أية مخططات تهدد  
الأمن القومى.. وقال قائد القوات الجوية المصرية وقتها الفريق رضا حافظ "إن الطائرات  
المسكوية المصرية لا تحتاج إلى إنن للعمل فوق سيناء.. وأن الطائرات المصرية تتحرك منذ  
قيام الثورة فوق كافة الأراضى المصرية".

والواقع أن الجيش المصرى كان يشعر في السنوات الأخيرة بأن جولة جديدة من  
المعارك مع إسرائيل قد تكون وشيكة.. واستجر الفكر العسكري المصرى يرضع إسرائيل في  
وضع الدولة التي قد نقاتلها قريباً.

وحين نفذ الجيش المصرى في عام 2010م المناورة "بدر"، قالت صحيفة "إسرائيل

اليوم.. "إن الجيش المصري يتدرب على غزو إسرائيل لأن المناورة بدر تقوم على عبور القوات المصرية لقناة السويس والتوغل فى أراضي العدو والأراضي الوحيدة قرب قناة السويس هى إسرائيل".

• • •

جاءت ثورة 25 يناير 2011 مفاجأة مذهلة لإسرائيل، ذلك أن عصر حسنى مبارك كان بالنسبة لإسرائيل أقرب إلى العنوان الشهير لريتشارد نيكسون "نصر بلا حرب" وبالنسبة للمصريين الذين تدهورت بلادهم فى عهد مبارك كانوا يرون عقود حكمه الثلاثة "هزيمة بلا حرب".

إن جهاز الموساد الذى يحظى بشهرة كبيرة لم يتوقع الثورة ولا الثائرين.. وفوجئت إسرائيل بمثل ما فوجئت الولايات المتحدة والعالم.. وأصبحت إسرائيل فى حيرة هى الأكبر منذ حرب أكتوبر عام 1973م.. ما الذى يجرى فى مصر؟

وما الذى سيجرى مع إسرائيل؟

كان الحقد الإسرائيلى على النجاح الكبير للثورة المصرية وللمكانة العالمية التى حظيت بها كبيراً وعميقاً.. وراح المحللون الإسرائيليون يحاولون إطفاء الأنوار.

• • •

"بينى موريس" واحد من أبرز الذين عبّروا عن الحقد الإسرائيلى على الثورة المصرية. كتب بينى موريس فى المجلة الشهرية الأمريكية "انترنخونال انقرست" مقالاً بعنوان "مانا يريد المصريون؟"

قال بينى موريس: "إن كبرى شبكات الأخبار الأمريكية والأوروبية أجمعت على أن الديمقراطية هى دافع المصريين للثورة.. ثم استنتج أن كل هذه الجموع من المتظاهرين المصريين يريدون نظام حكم ديمقراطى.. ثم الاعتقاد بأن تلك الديمقراطية هى التى حركت الناس فى شوارع القاهرة والإسكندرية بكافة الشرائح والمستويات".



ثم يمضى "بيني موريس" للقول: "للأسف.. كان هنا خداعاً بصرياً.. لقد كان الهدف الخبز فقط.. لقد حرصت شبكتنا CNN وBBC على إجراء حوارات مع النخب القادرة على التحدث بالإنجليزية وتلقت تعليماً أجنبياً.. ما أخشاه أن ينبهر الغرب بهذه الفجوة الواعية عن الديمقراطية.. وأن يقتاسي وسط تلك كله عبارات "الله أكبر".." "تسقط أمريكا".." "الموت لإسرائيل"

• • •

لم يكن "بيني موريس" محظوظاً في هذه الكراهية.. إذ سرعان ما اندلعت المظاهرات في إسرائيل، وتزاحم أكثر من ربع مليون إسرائيلي في أكبر مظاهرات تشهدها الدولة العبرية منذ تأسيسها.. لم يكن الهدف من المظاهرات فساد النخبة الحاكمة، ولا تدهور صورة إسرائيل في الخارج.. بل كان خروج مئات الآلاف من الإسرائيليين من أجل أهداف معيشية محدودة.. السكن والعمل!

أصبحت مصر مصدر إلهام كبير للإسرائيليين، تعلم الإسرائيليون من المصريين الجراءة والجرأة في مواجهة فساد النخبة الحاكمة.. وخرجت مظاهرات إسرائيل تحمل شعارات ميدان التحرير.. وإزاء السقف الشاهق للثورة المصرية راح الإسرائيليون يقتدون شباب التحرير في المطالبة بإسقاط النظام في إسرائيل.

كان الإسرائيليون يخرجون في السابق في قضايا محدودة وقد تعلموا من ثورة المصريين أن هناك أسباباً أخرى لأن يقول الشعب.. لا.

• • •

لم يترك الشباب المصري مظاهرات إسرائيل تمر دون استخدام سلاح التخريب القوي الذي ساهم في إسقاط نظام مبارك.

وخرجت تعليقات الشباب على صفحات الفيس بوك تطلق الفكات على مايجرى في تل أبيب.. وكان من أبرز كتابات الشباب: "ماتعينا ماتعينا.. العجازر مش ببلا..".  
"نزل رأسك تحت.. أنت إسرائيلي".." الحاخام أبو اسخاء: التظاهر محرّم بنص التوراة..

وبدعة مصرية منهي عن اتباعها" .. "ضبط أجنדת مصرية فى مظاهرات تل أبيب" ..  
"الموساد: هناك شباب إسرائيلى تم تدريبهم فى روض الفرج من أجل إشاعة الفوضى فى  
إسرائيل" .. "المتظاهرون الإسرائيليون حصلوا على علبه كشرى وخمسين جنيهه مصرى" ..  
"محامى رئيس الحكومة الإسرائيلىة يقول: نقتناهو هو أول من أيد الثورة".

• • •

على الجانب الآخر كان الفلسطينيون يفكرون فى بدء الإنتفاضة الثالثة، رآوا أن ذلك  
يتوافق مع موجة الربيع العربى.. بل إنه يتوافق مع الغضب الإسرائيلى ضد النظام  
الإسرائيلى. وبدأت صفحات الفيس بوك الفلسطينية تدعو للإنتفاضة الثالثة.. لكن القمع  
الإسرائيلى كان شديداً.. كما أن إنقسام السلطة الفلسطينية ما بين "دولة فتح" و"دولة حماس"  
"حال بون التوافق العام على الإنتفاضة".

استعدت إسرائيل بقوة لاحتتمالات الربيع الفلسطينى.. واستخدمت كل آليات القمع  
والتضييق.. وكانت لغة التهديد قائمة فى دائرة القرار السياسى ودائرة الفكر السياسى معاً.  
أحد المؤرخين الجدد فى إسرائيل وهو "توم سيجيف" تحدث إلى مجلة "ديرشبيجل"  
الألمانية مهدداً.. "لقد جرب الفلسطينيون الإنتفاضة، وإذا قاموا بذلك مرة ثالثة سوف  
يخسرون.. الإدارة الإسرائيلىة لن تسمح بذلك.. ثم إن القادرين فعلياً على القيام بإنتفاضة  
جميعهم فى السجون الإسرائيلىة".

إن المفاجأة فى تحليل "توم سيجيف" الذى يعارض أية إنتفاضة فلسطينية هى دعوته  
للثورة فى المملكة الأردنيّة.

يقول سيجيف: "إذا انقلب نظام الحكم فى الأردن.. سيكون ذلك فرصة مثالية لإنهاء  
الصراع العربى الإسرائيلى برمته.. فى هذه الحالة يمكن أن تكون الأردن والضفة دولة  
واحدة.. فالأغلبية فى الأردن من الفلسطينيين.. وهناك متسع من الأرض وترحيب من  
الناس.. إن الثورة الأردنيّة هى الثورة المثالية التى يجب أن تقوم".

يمثل سيجيف تلك النزعة الإستعمارية لإسرائيل.. إن حل القضية الفلسطينية برأيه شطب الدولة الأردنية وتعليق لافتة فلسطين فوق العاصمة عمان.. إنها نفس آلية الشطب الجغرافية التي اعتمدها المشروع الصهيوني حين شطب دولة فلسطين ووضع فوق أراضيها لافتة " دولة إسرائيل".

•••

لكن الحالة النفسية لدى إسرائيل تزداد تدهوراً.. فالنزعة الإستعمارية أصبحت تطول الجميع.. إنها تصل إلى الولايات المتحدة وأوروبا..

أصبح ذلك الإنفلات يتخطى الهجوم التاريخي على الإسلام والمسلمين إلى هجوم حديث على المسيحية والعالم المسيحي.. أصبحت إسرائيل تهاجم الغرب في الدين والسياسة.

خرج المذيع الإسرائيلي "ليؤورشلاين" في برنامج "الليلة" على القناة العاشرة في التلفزيون الإسرائيلي ليقول: "لا تصدقوا الكنيسة.. إن المسيحيين يعتقدون أن السيدة مريم عذراء.. وهذا خاطئ وكانب.. السيدة مريم ليست طاهرة ولا شريفة ولا عذراء" وهو ماعى مجلس كنائس الشرق الأوسط لتوجيه إنتقادات شديدة لإسرائيل التي طعنّت في شرف السيدة مريم.. أم المسيح.

وربما كان ذلك من الأسباب التي دعت بابا الفاتيكان للقيام بأول زيارة في تاريخ البابوية إلى المسجد الأقصى.. وهي الزيارة التي خلع فيها البابا الحذاء للمرة الأولى عملاً بالأعراف الإسلامية ودخل المسجد وخرج مؤيداً لإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

لكن المفاجأة الأكبر في زيارة البابا إلى فلسطين وإسرائيل هي قيامه بأداء صلاة جديدة دعا فيها البابا أن يدخل اليهود في الدين المسيحي وتتضمن الصلاة دعوة صريحة لأن يترك اليهود اليهودية من أجل اتباع الديانة المسيحية.

وهي الصلاة التي جرّت على البابا هجوماً غير مسبوق من رجال الدين اليهود.. أما "عودين بن حورون" سفير إسرائيل في روما فقد قال ناقماً "إن هناك تغيّراً في مواقف البابا

تجاه اليهود، وما يجرى حالياً يعدّ تراجعاً في العلاقات بين اليهودية والمسيحية".

• • •

ربما لا يلاحظ الكثيرون ذلك الصراع الخفى بين المسيحية واليهودية على أثر قوة الصراع بين الإسلام واليهودية.. لكن انكثير من معالم الحرب الباردة بين اليهودية والمسيحية لا تنقطع وبينما تحاول المسيحية جذب اليهودية للإعتناق أو الاندماج والنوبان.. فإن اليهودية تحاول دفع المسيحية إلى منقطة وسطى بين المسيحية واليهودية.. أو أن تصبح المسيحية أقل مسيحية وأكثر يهودية. وضمن آليات عديدة لهذا الغرض يتبدى مذهب "الكابالا" للقيام بدور.

والكابالا.. هو مذهب يهودى صوفى.. يقوم على مقولات روحانية وأفكار صوفية هائمة.. جانب من المذهب يقوم على إبعادات السمو الروحاني والتحليق خارج الماديات ومقاومة ضغوط العصر بالتجرد منه وخلق حالة ناتية من الصفاء والنقاء.. وهو فى جانب آخر منه يذهب إلى مواقع خرافية من التفكير.. مثل الاعتماد على التعاويذ والأحجية والمقتنيات الشخصية من أجل طرد الجن ومقاومة الشياطين!

إن مثل هذه الأفكار تجد هوى لدى الشخصيات الأكثر ثراء وشهرة ونفوذاً ممن يعيشون فى حالات ممتدة من القلق والمنافسة، وهكذا نجح مذهب الكابالا اليهودى فى جذب بعض أفراد تلك الطبقة المترفة بدعوى الصفاء ذهنى وبقظة الروح.

كتبت المطربة الشهيرة "مادونا" مقالاً فى صحيفة "يديعوت أحرונوت" الإسرائيلية تصف فيه يظلتها الروحية حين اكتشفت مذهب الكابالا.. تقول: "لقد جعلنى ذلك أرى قطع اللغز كاملة".." قهل سنوات كنت نجمة كبيرة.. لكننى أحسست أن شيئاً ينقصنى.. إنه الفراغ الروحى.. أرشدنى معلمى اليهودى إلى مذهب الكابالا.. إن الشهرة والنجاح لا يكفیان.. هناك فراغ روحى.. والكابالا تملأ ذلك!"

قامت "مادونا" باتخاذ اسم يهودى لها هو "استير" وأدت مناسك الحج

## اليهودى فى إسرائيل!

هنا يجئ دور السياسة.. استقبال الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز المطربة مادونا. قال لها: لولا الصهيونية لما كنت هنا.. ولما عادت إليك الروح.. وأعطها كتاباً عن الصهيونية، وبعد لقائها بيريز أعلنت مادونا نفسها سفيرة لليهودية فى العالم. إن "ديمى مور" و"بريتنى سپيرز" وآخرين هم من أعضاء مذهب الكابالا.. حيث الشكل المسيحى والمضمون اليهودى.. أو حيث المسيحية أكثر يهودية.. أو حيث المسيحية فى خدمة إسرائيل.

• • •

إن نماذج الإنفلات الإسرائيلى تمتد من عدم الاعتراف بدولة فلسطينية إلى المطالبة بإسقاط الأردن إلى تصعيد مستوى العداة مع مصر إلى إهانة الحليف التركى إلى نقد الولايات المتحدة وأوروبا.. من أجل تسريع الخطى فى الحرب على إيران ثم إلى التحدى الدينى للإسلام والمسيحية معاً. يكمن وراء ذلك الإنفلات إحساس إسرائيلى بالقوة المفرطة.. وعدم الحاجة إلى إخفاء تلك القوة أو التقليل من هذه القدرة. ولقد تبدى ذلك الإحساس المتضخم بالقوة فى الإعلان الإسرائيلى عن القدرات النووية المسكرية على نحو غير مسبوق.

كانت إسرائيل فى السابق تلجأ فى إعلان قوتها النووية إلى التلميح.. ولكنها تجاوزت ذلك مؤخراً إلى التصريح، حيث تحدث إيهود أولمرت عن السلاح النووى الإسرائيلى.. وفى إجراء أمريكى نادر اعتبرت وزارة الدفاع الأمريكية إسرائيل قوة نووية.. وقالت الصحف إن الجيش الأمريكى صنف إسرائيل باعتبارها قوة نووية عظمى مع روسيا والصين والهند وباكستان وكوريا الشمالية. وهى بذلك تسبق مجموعة الدول التى صنفتها الجيش الأمريكى بأنها "دول تقف على العتبة النووية" وتشمل اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان.. وتسبق دول "العتبة النووية بدورها" ما أسماه الجيش الأمريكى "الدول الناشئة نووياً" مثل إيران.

يجئ الاعتراف الإسرائيلى بعد تصريحات سابقة لمسئولين أمريكيين عن السلاح

النوى الإسرائيلى.. فقد سبق للرئيس جيمى كارتر أن تحدث عن امتلاك إسرائيل مائة وخمسين قنبلة نووية.. كما تحدث وزير الدفاع الأمريكى "روبرت جيتس" عن أسباب السعى الإيرانى لإنتاج قنبلة نووية بأن إيران ترى نفسها محاصرة بين قوى نووية.. روسيا فى الشمال وباكستان فى الشرق وإسرائيل فى الغرب.

• • •

إن البحث العميق فى أسباب الانفلات الإسرائيلى لا يفسره فقط الشعور المفرط بالقوة.. وإنما يفسره أيضاً الشعور المفرط بالضعف.

ذلك أن إسرائيل القوية تُخفى خلفها إسرائيل الضعيفة وتماسك الجيش يُخفى وراءه تدهور الدولة.

وقد عبّر الكاتب الإسرائيلى "ألوف بن" عن ذلك الانهيار فى مقالة نشرتها صحيفة "الجارديان" تحدث فيها عن أن نصف التلاميذ فى الصف الأول الإبتدائى إما إنهم عرب غير يهود أو إنهم يهود أصوليون لا مستقبل لهم.

فاليهود الأصوليون لا يؤنون الخدمة العسكرية ولا يعملون فى المصانع والشركات والخدمات.. وإنما يتفرغون للعبادة وتلاوة التوراة.. وهو ما يعنى أن نصف إسرائيل لن يكون مفيداً للجيش ولا مفيداً للتنمية.

بتعبير "ألوف بن" فإن نصف إسرائيل سيعيش عبثاً على النصف الآخر.. أو بتعبير أكثر وضوحاً لخبير إقتصادى إسرائيلى: "إننا نحمل فيلاً فوق ظهورنا.. وقد يدفننا تحته".. ويقول رئيس الأركان الإسرائيلى الجنرال "جابى أشكينازى": "بعد عشرين سنة لن نستدعى إلى الخدمة العسكرية إلا عدد قليل"!

كانت إسرائيل تعتمد فى السابق على موجات الهجرة اليهودية التى تفدى إسرائيل.. إما "ناجون من الهولوكست" أو "يهود سفارديم من العالم الغربى والإسلامى" أو "اليهود السوفييت" أو "اليهود الأثيوبون"..!

ولكن بحيرة المهاجرين قد أصابها الجفاف.. بل إن إسرائيل تشهد هجرة مضادة من

إسرائيل إلى العالم بعد أن كانت الهجرات السابقة من العالم إلى إسرائيل.

يتوازى مع الإنقسام الدينى وضعف المستقبل للدولة العبرية.. إنكسار الحاضر من جراء الفساد غير المسبوق لدى رجال السياسة.

• • •

ثمة مشهد مثير فى شأن الفساد والفسادين فى إسرائيل.. كان رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق آرييل شارون ممدداً على سريريه فى المستشفى.. فى غيبوبة طويلة دخلها منذ مطلع العام 2006م. كان الدهش فى مرض شارون هو مايفعله ابنه "جلعاد شارون".. حيث كان يستغل زوار والده لترتيب المصالح وعقد الصفقات.

وحيث أرادت السلطات نقل شارون إلى منزله بعد خمس سنوات كاملة قضاها فى المستشفى، قاوم شارون الابن طويلاً لمنع والده من العودة إلى المنزل.. حتى لا يفقد الصلات وتراجع الصفقات!

إن إبرة نقتياهو تتهم عائلة شارون بالفساد وعائلة شارون تتهم نقتياهو بالفساد.. وقد ألف "جلعاد شارون" كتاباً عن والده بعنوان "شارون سيرة حياة" نشره فى صحيفة "يديعوت أحرونوت" يقوم الكتاب فى معظم فصوله على إثبات فساد النخبة الحاكمة فى إسرائيل.

يقول المُرُخ المعاصر "توم سيجهيف" فى حسرة: "إذا كنت شاباً إسرائيلياً.. سوف تجد رئيس الدولة "موشيه كاتساف" يحاكم فى قضية تحرش جنسى، ورئيس الوزراء السابق "إيهود أولرت" يحاكم فى قضية فساد، وعدد من أعضاء الكنيست موجودون فى السجن بتهم متعددة..

من الطبيعى إن أن تفقد الأجيال الجديدة الثقة فى الإدارة السياسية لإسرائيل.. وأن تنهار المبادئ الديمقراطية لديهم..

عاد التاريخ ليمتد من جديد.. شروق فى مصر وغروب فى إسرائيل، خريف الفساد فى القاهرة وربيع الفساد فى تل أبيب.

جاءت ثورة 25 يناير 2011 المجيدة لتنتهى حقبة كاملة مثلها عصر حسنى

مبارك "هزيمة بلا حرب" .. ولتفتح الباب أمام حقبة جديدة مشروعها.. "نصر بلا حرب".

• • •

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب "ما بعد إسرائيل" كان الألق مسدوداً  
والأمل محبواً.

لم تكن مصر تستطيع.. ذلك أن المشروع السياسى لحسنى مبارك كان.. "صناعة  
الهاى".

سقط حسنى مبارك وسقط معه مشروع "مصر الصفوى".. وأصبح بمقدورنا أن نهتف  
واثقين: الآن نستطيع.

• • •

إننى إذ أقدم الطبعة الثانية من كتابى "ما بعد إسرائيل"، يطيب لى أن أتقدم بخالص  
الشكر والتقدير إلى الناشر البارز الأستاذ محمد هاشم صاحب دار ميريت للنشر والذي  
تفضل بنشر الكتاب فى طبعته الأولى على أفضل وجه.

كما أشكر الفنان المتميز الأستاذ أحمد اللباد الذى صمم الغلاف الباهر الذى ميّز  
طبعة دار ميريت.

وطيب لى أيضاً أن أتقدم بوافر التقدير إلى الصديق الأستاذ إبراهيم منصور رئيس  
التحرير التنفيذى لصحيفة التحرير الذى قام بتقديمى إلى الأستاذ محمد هاشم ودار ميريت  
وواصل تأييده ومساندته حتى صدور الكتاب ونفاذ طبعته الأولى.

إننى مدين لعائلتى هانم وفاطمة ومحمد وزينب ورقية.. ولوالدتى الحاجة سعاد  
الصاوى.. الذين منحونى الكثير من العواطف ومنعوا عني الكثير من المواقف.

ويهتئ شكرى وامتنانى للقارئ الكريم الذى أتشرف بأن أترك الطبعة الجديدة من  
"ما بعد إسرائيل" بين يديه.

حفظ الله الوطن.

**أحمد المسلمانى**

بسيون - الزمالك 2012



# مقدمة الطبعة الأولى

وضع العالم النرويجي "جوهان جالتونج" في السبعينات بحثاً بعنوان "بعض الملاحظات حول الـ(2500) سنة النصرمة، وبعض الملاحظات الإضافية عن الـ(500) سنة القادمة"!

وقد فكرت طويلاً فلم أجد وصفاً أدق لهذا الكتاب من وصف جالتونج لضمون بحثه قبل ربع قرن.

والعادة.. أن الكاتب لا يشرع في عمل إلا قاصداً المرور ببطء، والتلكؤ عند المفاصل ومفترقات الطرق.. وانحناءات السياسة والقدر.

والعادة أيضاً.. أنه يستخمر النشوة كلما وجد مرجعاً للاطلاع أو مصدراً للمعرفة. والعادة ثالثاً.. أنه يجد ضرورة في تقديم نقد هنا ودعم هناك، أو في إلقاء إتهام هنا وإزاحة إتهام هناك.. مؤكداً على أنه يمسك بالأحداث والأشخاص.. وله حق تقرير المصير!

ولقد وجدت أن تلك العادات لا يمكنها البقاء طويلاً أمام مهنة البحث في موضوع كهذا، حيث لا يمكن التلكؤ عند تقاطعاته ولا النشوى بمصادره، ولا امتلاك ناصية الرأي فيه، ولا حتى إبداء الحكمة بأثر رجعي فيما مضى وانقضى.

...

وقد تأملت طويلاً ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل.. وكنيت أجباً إلى كتاباته ملتصقاً الرأي كلما ضاقت العلوم، أو متقصياً المعلومة حين يختلط الرأي، فوجدته - في حالات عديدة - شاهداً حين يجب أن يكون قاضياً، وقاضياً حين يجب أن يكون شاهداً،

وغائباً حين تتعمد القضايا وترتبك الأحكام وتتبدل مواقع الإدعاء والإتهام!

وبعد مشروع طويل وصل به هيكل إلى مدى بعيد وجدته - في عبارات عاجلة خجولة - يتحدث بإعجاب عن الرئيس السادات، وباعياً إلى إعادة الإعتبار إليه.. فقد كان سابقاً لزمانه وأنقذ مصر من مصير مجهول.

وهو قول لم يعد إليه مرة أخرى، ولما نشرته الصحف نقلاً عنه وهو يحاضر في معهد الإدارة العليا بالإسكندرية.. لم يعلق.

وقد مررت على ما كتبه الأستاذ لطفى الخولى.. فوجدته يقول في خاتمة حياته ما لم يقله في حياته كلها، من اليسار إلى اليمين، ومن الزايدة على الحرب إلى الزايدة على السلام!

ثم وجدت الأستاذ محمد سيد أحمد.. يتقدم طواعية معترفاً بالارتباك.. يقول في كتابه "بعد أن تمسكت المدافع": وقفت ضد التيار، وكنت أرى أن المصالحة ممكنة، وكان الكل وقتها يرون السلام مستحيلاً، وبعد عشرين عاماً رأيت في كتابي "سلام أم سراپ" أن التعامل مع إسرائيل من الداخل صعب، والحل هو تغيير موازين القوى عن طريق التعامل مع إسرائيل من الخارج، رأيت في الكتاب الأول عكس ما رأيت في الكتاب الثاني!

وأنا كان هذا هو شأن "خاصة الخاصة" في مصر من الارتباك وتحولات الرأي والتقدير لما الذي عساه أن يفعله الآخرون.

• • •

هذه الحالة.. ليست حالتنا نحن وحدنا، بل هي حالة الآخرين أيضاً. ويروي الكاتب الإسرائيلي "آفي شلايم" نموذجاً مماثلاً للحيرة وعدم الإستقرار يقول: "في الشهر التالي لتوقيع اتفاق أوسلو بأيدي مرتعشة في حديقة البيت الأبيض (13 سبتمبر 1993) نشرت يوربية "لندن ريفيو أوف بوليتيكس" مقالتين حول الاتفاق، مقال رافض لإبوارد سعيد الذي وصف الاتفاق بأنه "فرساي فلسطينية"، وأن ياسر عرفات ألغى بتوقيعه ميثاق منظمة

التحرير وتنازل عن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني.. ومقال لي وفيه أهدت الاتفاق، ورأيته يمثل نجاحاً كبيراً في الصراع الطويل المرير على فلسطين.

وطوال السنوات التالية كان عقلي يعود مراراً إلى ذلك الجدل المبكر. من الذي استقطاع أن يقرأ الأمور قراءة صحيحة؟ هل هو إيوارد سعيد أم أنا؟.. فتارة كنت أشعر بأن الأمور تسير حسبما رآها هو، وتارة أخرى كنت أراها تسير كما رأيتها أنا، وثالثة كنت أعود فأراها تسير حسبما رآها هو.. وربما ينطبق هنا تعبير "شواين لاي" الشهير.. "بأن الوقت لم يحن بعد للتحدث عن الثورة الفرنسية".. ومن ثم على اتفاق أو سلو.

ويحلو لدارس العلوم السياسية تفسير هذه الراوحة في فهم طبيعة الصراع العربي - الإسرائيلي بأنها لا تعود إلى كون المحللين يفتقدون النضج والقدرة على سبر الأفوار، بل إن الصراع نفسه هو صراع غير ناضج. ويزيد "ريتشارد هاسن" مسئول التخطيط السياسى لى إدارة الرئيس بوش الابن.. بأن أزمة فلسطين هى أزمة غير قابلة للنضج من الأساس، لأنها تنطوى على مقدمات يصعب أن يكون لها "حل وسط"، وهنا النوع من الأزمات ليس له بواء غير عزل الأزمة ثم تركها للنسيان بمرور الزمن.. فتستهلك الأزمة نفسها بالتآكل والتلاشى.

• • •

الحادث أنه لا السياسيين راضون، ولا المثقفين أيضاً.. وأذكر يوماً أنى سألت أحد المثقفين البارزين عما إذا كان من الضروري إعطاء فرصة لحركة السلام العصرية للعمل والفعل.. وتأجيل الأحكام بشأنها.. فبادرنى لانماً على سؤال لا يجوز وعلى إجابة واضحة كالشمس.

وبعدها بأيام التقيت الراحل "فيصل الحسينى" مسئول ملف القدس فى السلطة الوطنية الفلسطينية فى القاهرة.. وسألته نفس السؤال فبادرنى لانماً على سؤال لا يجوز.. وعلى إجابة واضحة كالشمس.

وكان رأى المثقف البارز.. لا، ورأى فيصل الحسينى.. نعم، بل وذهب الحسينى إلى

ضرورة قيام المثقفين بزيارة السلطة الوطنية الفلسطينية دون أن يكون ذلك تطبيعاً وقال: إن البعض بهذه الزايدات يفرض حصاراً حول الفلسطينيين لا حول إسرائيل!

وفي إسرائيل، تتضح الشاهد نفسها: تلعثم وارتباك وإحساس بالمحنة.. حرب أم سلام؟ دولة أم دولتين؟ دين أم دنيا؟ صهيونية أم ما بعدها؟.. وقد أسهمت الإنتفاضة الثانية في تعظيم المحنة بعد أن زابت أزمة الإقتصاد، وغاب الأمن خارج غرف النوم، وأصبحت إسرائيل أشبه بإمارات الحروب في العصور الوسطى.

وحين انهزمت إسرائيل أمام النمسا في تصفيات كأس العالم في أكتوبر 2001، كتب "بن كسبيت" المعلق السياسي لصحيفة "معاريف" يقول: "راحت النمسا لتنافس من أجل الفوز بالمشاركة في المونديال.. وأبقتنا هنا مع الإنتفاضة والبطالة والعمليات الانتحارية".. وقالت صحيفة أخرى: "إنها الضربة القاصمة أمام العدو النمساوي النازي العادي للسامية".. وحملت إحدى لافتات الإستاد عبارة "الدولة تتوسل للنصر"، وكتبت إحدى الصحف: "من قال إننا شعب الله المختار.. لقد خدعنا"، وكتبت أخرى عن الفريق النمساوي: "إنه عدو لم يُمر أى إهتمام لمرحلات التحقير التي أطلتها (45) ألف متفرج خلال عزف النشيد الوطنى النمساوى، أمام فريق رضى (14) لاعباً أساسياً فيه السفر إلى إسرائيل خوفاً على حياتهم.. لقد بعثوا إلينا بمجموعة من المتقاعدین الذين نجحوا في سلبننا الابتسامة".

وما قالته "معاريف" بشأن استكمال النمسا محاولتها المشاركة في المونديال وتركها إسرائيل والإنتفاضة وجهاً لوجه.. هو قول مختصر وصحيح.

• • •

لقد فشل جنرالات الحرب في وضع نهاية للصراع بمثل ما فشل دعاة السلام، وقد حاول "مروان البرغوثى" الأمرين معاً.. فانضم إلى "تحالف كوبنهاجن للسلام" ولم يتحقق السلام، وقاد الإنتفاضة الثانية ولم يأت الانتصار!

وحيث وقعت أحداث الإنتفاضة الثانية، انفض معسكر السلام في إسرائيل، ومن بين

أكثر من (70) جماعة للسلام هناك لم تظهر سوى أصوات معدودة وباهتة، واختفى المؤرخون الجدد ودعاة ما بعد الصهيونية، غير قليلين لم يستمع إليهم أحد.

وبعد رابين لم يعد ممكناً الاعتماد على أحد في إسرائيل، فقد بقي بيريز على حالته المستعمية.. فيلسوفاً بلا أخلاق.

وبدوره، أضاع باراك فرصة السلام للمكنة، ولم يفعل طيلة سنوات في الحكم غير عقد المؤتمرات الصحفية "الفارغة".

ويذكر "هيكل" أن "حاييم رامون" وقف أمام باراك في اجتماع لحزب العمل ثم قال: "إن كل ما فعلته طوال رئاستك للوزارة، هو أنك وقفت في مكان مرتفع ثم (تبولت) وقلت لنا: هذا هو المطر فازرعوا واحصدوا، واشكروا الرب الذي أفاض عليكم نعمه!"

• • •

إن مازق العرب بإسرائيل قد يكون أقل سوءاً من مازق إسرائيل بذاتها.. لإسرائيل حالة تفتقد الأمن الطبيعي، والإقتصاد الطبيعي، والجوار الطبيعي، وهي إجمالاً حالة غير طبيعية، ومن المؤكد أن كثيراً من الإسرائيليين الذين جرفتهم الأمركة والعولة يرغبون في حياة كسولة ومعيشة رغدة، غير أن ذلك ليس متاحاً تماماً، فالخدمة العسكرية تقصم العمر إلى نصفين، واحتمالات الموت تقارب احتمالات الحياة.. إن الإسرائيليين ضعفاء في بلد قوي، خائنين في بلد مغامر، إنهم يعيشون في بلد غير طبيعي!

• • •

لقد كان انعقاد مؤتمر بازل في سويسرا عام 1997، في مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على المؤتمر الصهيوني الأول في المدينة نفسها عام 1897.. مناسبة لاستيعاب ما جرى، وما جرى هو نجاح الحركة الصهيونية في إقامة دولة وفشلها في إقامة شعب، أو هي دولة تمتلك القوة وشعب يفتقد القدرة..

وبعد مائة عام لم تكن الأمور على ما يرام، فالخوف من هواجس "معاودة السامية"

يزداد، وفي كل يوم تخسر إسرائيل أكثر مما تكسب، وتشعر الحركة الصهيونية بالزيد من العزلة.

وفي هذا المؤتمر المنعقد في بازل.. كان (17) ألف رجل أمن سويسري يعملون على حماية المؤتمر والمشاركين فيه، وكانت المظاهرات المناهضة للصهيونية تطوف في بازل وفي غيرها من المدن السويسرية..

وكان "حايم وايزمان" خليفة "هرتزل" وأول رئيس لدولة إسرائيل يقول: "لا ينبغي أن تكون مجنوناً لكي تكون صهيونياً.. لكن ذلك يساعد"، وربما يكون مناسباً اليوم استدعاء تلك المقولة: "لا ينبغي أن تكون مجنوناً لكي تبقى صهيونياً.. لكن ذلك يساعد".. ففي كل عام يهاجر آلاف اليهود من إسرائيل إلى الولايات المتحدة وأوروبا للاستقرار، وفي بعض السنوات كانت الهجرة من إسرائيل أكبر من الهجرة إليها.

وفي عام 1997 حين كانت الحركة الصهيونية تحتفل بعيدها الثوي، كان بعض اليهود الشرقيين في إسرائيل - هرباً من العنصرية والتمييز - يتقدمون بطلبات لجوء سياسي إلى السلطة الوطنية الفلسطينية!

• • •

تفقد إسرائيل من (18) ألف إلى (20) ألف شخص سنوياً بسبب الهجرة التي زادت بعد الإنقفاضة وحتى ألمانيا بدأت تجتذب الإسرائيليين، وخلال ثلاثة أعوام (1998 - 2001) استقبلت عشرة آلاف يهودي من إسرائيل، جميعهم ذهبوا يطالبون بالجنسية الألمانية على أساس أن أجدادهم ولدوا هناك قبل الحقبة النازية.

ويذكر الصحفي الإيراني "أمير طاهري" أنه خلال حقبة التسمينات جاء إلى إسرائيل مليون ونصف المليون مهاجر من الإتحاد السوفيتي السابق.. ثم سرعان ما تواصل النزيف السكاني، وغادر إسرائيل ثلث القادمين الجدد من الكتلة السوفيتية السابقة باتجاه الولايات المتحدة عقب استخدامهم إسرائيل جسراً للعبور، ويحمل

نصف مواطني إسرائيل جنسيتين أو ثلاث.

ويصف الباحث الإسرائيلي "آمون صوفر" من جامعة حيفا.. حالة النمو السكاني في إسرائيل بالخمول، فالفلسطينيون سيشكلون (58%) من إسرائيل والأراضي المحتلة وثالث السكان في إسرائيل بنهاية عام 2020، وخلال ثلاثين سنة ستكون هناك أغلبية فلسطينية في إسرائيل، وهذا هو السبب في حديث شازون المتواصل عن أمله في وصول مليون يهودي للاستيطان، لكن لا الأوروبيين ولا الأمريكيين لديهم الرغبة في ذلك، وأكبر جالية خارجهما هي في إيران (75) ألف يهودي.. لن يخرجوا، ولو خرجوا سيكون خروجهم إلى كاليفورنيا لا إسرائيل.

الحياة في إسرائيل غير آمنة، والأهم أنها مكلفة للغاية، فهي أعلى من الولايات المتحدة الأمريكية، ويعبر الروائي الإسرائيلي "عاموس عوز" عن الوضع بقوله: إن الحياة في إسرائيل ملهية، ومن الفكات الرائجة أن الذي يريد أن يكون ثروة صغيرة في إسرائيل عليه أن يصل وهو يمتلك ثروة كبيرة!

• • •

إسرائيل دولة صغيرة، لا تزيد مساحتها عن (1%) من مساحة السعودية، وهذه المساحة الصغيرة تقوم عليها مفاعلات نووية تنتج (200) قنبلة نووية تنذر بوقوع كارثة ضخمة في حال وقوع حادث صغير.. وبعملية حسابية بسيطة فإنه توجد قنبلة نووية لكل (20) ألف يهودي في إسرائيل.. أي قنبلة لكل قرية!

وإن الصورة العامة في إسرائيل.. مشكلة سكانية، وهجرة إلى الخارج، وأزمة في المجتمع، وأزمة في الإقتصاد، وفي مساحة صغيرة يعيش الكل في خوف.. كثير من القنابل وقليل من الأمن.

• • •

إذا كانت هذه هي حالة اليهود في إسرائيل، فإن حالتهم خارج إسرائيل لا تفتقد المشكلات والمشكلة الأكبر "برأي اليهود" هي النوبان والتلاشي على الرغم من قوة المال

وسطوة النفوذ.. أى تحول اليهود إلى جماعات سياسية واقتصادية لا جماعات دينية قومية. وقد نشرت صحيفة "الدبلى تلجراف" البريطانية فى مايو عام 2001 ثلاثة مقالات فى الذكرى الخمسين لقيام إسرائيل. أبدى المقال الأول إعجاباً بالتجربة، وتناول المقال الثانى خطر العربى على اليهودى ورصد الثالث تعرض يهود أمريكا وبريطانيا للنوبان.

فى المقال الثالث كتب "جراهام تيرنر" واصفاً اليهودية بأنها تواجه الفرق.. فالأجيال الجديدة من اليهود لا يحملون شيئاً من ذكريات "المحرقة"، إنهم يعيشون فى مجتمعات مفتوحة ومتسامحة، الأمر الذى يصعب معه العيش داخل مجتمعات منعزلة، وهى الطريقة التى حافظت على بقاء اليهود وحفظتهم من النوبان عبر التاريخ.

ينقل "جراهام تيرنر" عن محامى يهودى يعيش فى شيكاغو قوله: إن أمريكا تستكمل عمل هتلر.. إن المشكلة تكمن فى أن أمريكا مجتمع شديد الانفتاح وشديد التسامح، فبإمكانك محاربة عدو يضطهدك، ولكن كيف يمكنك محاربة عدو يعرض عليك مشروباً؟ إننى خلال السنوات الماضية لم أدرع إلى فرح واحد كان فيه الزوجان يهوديين، إن الثقافة اليهودية سوف تختفى.. ويمنتهى البساطة.

وينقل "تيرنر" عن زوجة مالك صحيفة فى فيرجينيا: "إنهم يقتلوننا باللفظ والذكاء فى هذا البلد، فالنوبان حتمى.. واليهودية فى أمريكا تنقرق". وقد نشرت إحدى المجلات "كاريكاتوراً" لشخصين واقفين إلى جوار سرير زواج وقد طبعت نجمة داوود على ظهر المرأة، وصليباً على ظهر الرجل، وتحت الرسم تعليق يقول "الحل الأخير"!

فى الولايات المتحدة يتزوج (6) من كل (10) يهود من غير اليهود، وهى النسبة ذاتها فى بريطانيا، ويذهب مركز الإتحاد العالمى لليهود التقدميين فى نيويورك إلى أنه "حيثما يوجد زواج مختلط، فإن ربع عدد الأطفال فقط تتم تربيتهم كيهود، وفى الجيل القادم فإن (6%) فقط منهم سوف يعرفون أنفسهم بأنهم يهود، وبناءً على ذلك ففى خلال جيلين فقط سيكون قد تم القضاء على السلالة اليهودية.. ومن الواضح أن أعداء السامية قد



أحدثوا خللاً جسيماً، وبدلاً من أن يظهروا اليهود، وهو ما خدمهم دائماً في تخليد الهوية اليهودية.. قد قاموا بممانقتنا!

وتنقل "الديمي تلجراف" عن إحدى قضاة المحكمة العليا الأمريكية قولها: "إنني لم أغضب أبداً لأن ابنتي تزوجت من مسيحي، فهو رجل طيب، بينما كان خطيبها اليهودي الذي كانت تخرج معه شخصاً لا يطاق".

ويقول "إسرائيل لاو" كبير حاخامات إسرائيل: إن اليهود قد خسروا من "التآكل" أكثر مما خسروا من الهولوكوست.

ففي بريطانيا وحدها انخفض عدد اليهود من (450) ألفاً في الخمسينات إلى (260) ألفاً في التسعينات، وفي الولايات المتحدة يشكل اليهود (2%) فقط من السكان أي نصف ما كان عليه الحال قبل أربعين سنة، ويتوقع البعض أن يهبط عدد اليهود الأمريكيين إلى النصف مرة أخرى خلال (25) عاماً.

وعلى مستوى الدين.. فقد حلت أشجار الكريسماس محل الطعام الحلال في الشريعة، وقلدت المعابد الإصلاحية الكنائس المسيحية في آلاتها الموسيقية، والجيل الجديد لا يرغب أن يكون مختلفاً، إنه يريد أن يكون جزءاً من أمريكا.. فتم تهذيب الدين حتى أصبحت اليهودية عندهم عقيدة متراخية لا تكاد تظهر طقوسها!

ولأن اليهودية ليست ديناً تبشيراً، فإن الخارجين من الدين لا يحل أحد محلهم، فاليهودية لم تكن أبداً ليمانة جذب، حيث لم يدخلها معتنقون جدد طوال (2000) سنة، وفي بريطانيا يتقدم إلى محكمة لندن الحاخامية (150) شخصاً فقط لاعتناق اليهودية كل عام، وفي أغلب الأحوال يرفض الحاخامات رغبة غير اليهود في التحول إلى اليهودية!

وعلى الرغم من تزايد أعداد الأصوليين اليهود، وتكرار اقتحامهم حفلات الغناء وضرب الطربات.. لأن صوت المرأة عورة والموسيقى حرام، فإن المتدينين اليهود عموماً يتسمون بالفظاظة حتى المعتدلين منهم، ولا يشكلون بأي حال نموذجاً للتطلع أو الإقضاء..

ويعترف الحاخام بلون- الذى نقلت عنه الديلى تلجراف - بأنه "كان بإمكاننا أن نحقق إنجازات أفضل لو أننا تعلمنا بعض الفضائل الإنجليزية.. اللباقة والحساسية والنوق.. هل تعرفون أن اللغة العبرية لازالت لا تملك بعد (4000) سنة كلمة تعنى اللباقة..؟"

•••

هنا تتبدى المفارقة بوضوح.. بين أزمة يهودية تشتمل الدين والدنيا معاً، وبين نفوذ يهودى يشمل السياسة والإقتصاد معاً..

وإنا كانت وقائع النويان والفرق قائمة فى أوروبا وأمريكا، فإن حقائق النفوذ والقوة تزداد بالتوازى.. أى أن الحقائق تسير عكس الوقائع..

فى الولايات المتحدة يملك اليهود (7,8%) من الثروة القومية، وهى نسبة ليست عالية على نحو عام.. ولكن الكثير من الشركات الكبرى ومؤسسات الإعلام تحظى بنفوذهم كمساهمين أو كمدبرين.. ونات مرة تحدث المثل الأمريكى "مارلون براندو" إلى المذيع الشهير "لارى كينج" فى شبكة "سى. ان. ان" فهاجم سيطرة اليهود على صناعة السينما الأمريكية، واستخدامهم تلك السيطرة فى تشوية كل الشعوب الأخرى.. أما حين يكون الأمر متعلقاً باليهود فإنهم يستثيرون عاطفة الناس تجاههم، وكأنهم الشعب الوحيد فى تاريخ البشرية الذى تعرض للمذابح.. ولكن "براندو" عاد تحت الضغوط وأبلغ أحد الحاخامات عن اعتذاره!

ويقول "كينيث نام" المسئول السابق فى وزارة الخارجية الأمريكية: "إن هناك محاولة واضحة لصيغ الشخصية اليهودية بالعبرية.. إن أحداً لم يتحدث عن أصل "وليم روجرز" أو "جورج شولتز" أو حتى "جون فوستر بالاس" أو "جورج مارشال" عندما تسلموا وزارة الخارجية، ولكن فجأة امتلئت وسائل الإعلام بالحديث عن الأصل اليهودى لكل من "هنرى كيسنجر" و"مادلين أولبرايت" - مع التركيز الواضح على تفوقهما.. وهذا ليس صحيحاً إطلاقاً، فأى منهما لا يتمتع بكفاءة دبلوماسية تتجاوز "جيمس بيكر" أو "دين راسك" أو "كريستيان

هيرتر- أو "دينى اتشيون" الذى قاد بعضهم العمليات المعقدة فى أكثر المراحل احتداماً فى الحرب الباردة.. لم يكن "كيسنجر" أبداً أكثر قدرة من "بريجنسكى" أو "برنت سكوكروفت" أو "وليام كوانت" .. فى تقييم الأمور وتقدير السياسات".

ويعترف "كينيث دان" بيان "هنرى كيسنجر" و"مادلين أولبرايت" و"جوزيف سيسكو" و"ريتشارد هولبروك" و"صمويل بيرجر" و"ميلتون فريدمان" و"جورج سوروس" و"ستيفن سبليبرج" .. هم أشخاص متميزون.. لكنهم لا يستطيعون الخروج من جلدهم اليهودى. وهناك من يقول بأن "سوروس" قد لا يتردد أبداً فى التحطيم المبرمج للأسواق الأمريكية إننا ما اقتضت المصلحة اليهودية أو الإسرائيلية ذلك!

ويذهب "ديفيد آلمان" أستاذ المستقبلات الأمريكى إلى أبعد، ويرى أنه قد يوجد هتلر أمريكى فى المستقبل ولكن "الإيباك" ترى أن ذلك مستحيل، فاليهود مفروزون بقوة فى كل القطاعات حتى إذا ما حاولت أية جهة تخريب الوجود اليهودى، فإن الخراب سيلحق بأمريكا كلها ولن يسلم أمريكى من النتائج الكارثية!

• • •

كان النظام العربى بانساً وهو يتعامل مع نشأة إسرائيل.. كانت مجمل التعاملات العربية مع تغيرات السياسات والخرائط .. خارج المصر..

ومما يثير العجب فى هذا المقام هو ذلك الوعى المبكر بخطور المشروع الصهيونى وكرثة قيام بولة يهودية فى فلسطين، ثم ذلك السلوك الفاضل بامتياز فى فعل أى شىء على مدى قرن أو يزيد..

لقد نشرت صحيفة "المقطم" فى 23 أكتوبر 1897 وبعد شهرين فقط من انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى "بازل" بقيادة "تيدور هرتزل" مقالاً لمراسلها فى باريس بعنوان "مملكة صهيونية" .. وجاء فى المقال: "فى بازل اجتمع مائتين من نسل إبراهيم للمفاوضة فى شراء أراض فسيحة وقرى كثيرة فى فلسطين، وجوار "أورشليم" من الدولة

العلبية، وجعلها مملكة إسرائيلية مستقلة، وعاصمتها القدس، ولا شك أن القراء يمدون تحقيق تلك الأمانى أضغاث أحلام، ولكن إذا بحثنا جلياً، وجدنا أن الإسرائيليين قد فكروا في هذا الأمر وشرعوا فيه منذ سنوات.. كما نشرت "الأهرام" في مطلع القرن تحذيرات عديدة في باب "رسائل القراء" ١

ومضت السنون، ولاتزال الصحف العربية تنشر نفس المخاوف، ولا يزال القراء يواصلون رسائل القلق والتحذير.. بون أمل أو ملأ

• • •

إنها قصة طويلة طويلة.. قصة ما قبل إسرائيل، وقصة إسرائيل وما بعدها، هي قصة الأنبياء الذين قتلوا، والأطفال الذين استشهدوا، والأوطان التي ضاقت بالأكفان! وقد مضت صفحات الكتاب سريعة.. سريعة، ولم تكن هناك فرصة كافية للتعليق على ما عرضناه، ولا لتأكيد ما قصدناه..

ولم يكن من المرغوب هنا أن أضع المراجع في نيل الصفحات فاصلاً بين المتن والهوامش، وفضلت أن يصعد الهامش إلى المتن، وأن يقدم المرجع نفسه قبل الشروع في المجيء..

وحيث لم تكن مصادرنا أصلية أشرنا إلى المصدر الوسيط، وحيث كانت صحيفة أو وكالة أنباء أغفلنا في بعضها التواريخ، وقد تجنبنا الألقاب طيلة الطريق..

وسوف يسأل القارئ ذات صفحة: وماذا بعد؟.. وانى لأشعر بالزهو لأنى امتلك إجابة سمعتها يوماً من الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي.. سألته نفس السؤال، حين التقيته في مدينة سرت الليبية في ربيع عام 2000، وكان يحدثني عن كتابه "أمريكا.. طلائع التدهور" وقد استعرض مظاهر ومراحل انهيار أمريكا، فقلت له: وماذا بعد؟.. أجاب: ليس بعد!

• • •

إننى مدين للقارئ الذى تحمّل عناء مقدمة طويلة راجياً أن يكون اعترافى له.. دافعاً  
لإكمال الطريق، كما أننى مدين لأصدقاء عديدين كانت مناقشاتى معهم بالغة الأهمية فى  
إفادتى وإرشادى، وإلى الأستاذ هشام يونس الكاتب الصحفى بالأهرام والذى كانت مشاهداته  
للأراضى المحتلة فى بدايات الإنتفاضة الثانية مدداً حقيقياً للتفكير والتأمل.

وإلى الصحفية الأستاذة مروة مشال التى ساعدتني كثيراً فى إعداد الطبعة الثانية  
لهذا الكتاب، وتفضلت بمقابعتها حتى أصبحت بين يدي القارئ.

ثم إلى أسرتى وإلى بلدتى.. قرية كفر الدوار مركز بسيون محافظة الغربية.. تلك  
الحناء.. الواقعة بين النيل والقمر!

**أحمد المسلماني**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

**الفصل الأول**

**ما قبل إسرائيل**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



كان كل شيء يتحرك.. الأديان والأفكار والبشر. ولم تكن للخطى في هذا الوقت المبكر - قبل أكثر من أربعة آلاف سنة - اتجاهات واضحة ولا غايات محددة.. إذ كان القحط والجفاف في الجزيرة العربية وراء الكثير من الهجرات.

وفي هذه الحركة النطوية.. اختفت قبائل بنى إسرائيل الذين بدأوا مع عصر إبراهيم وتجولوا بعده في جنابات المنطقة إلى أن تفرقت بقاياهم ولم يعد لهم ذكر.

لقد اختفى العبرانيون في الزحام، ولو أنهم قاوموا بين الزحام ما كان لهم أن يظهروا في ظل حضارات مصر وبابل وآشور وفينيقيا.. التي غطت على كل شيء.

ولم تكن القرون التي عاشتها الملكة العبرانية من بدايتها إلى نهايتها سوى خطوط باهتة في خلفية لوحة عملاقة شكلتها حضارات الشرق القديم.

ويتعبير "ويلز" فقد كانت حياة العبرانيين بـفلسطين أشبه بحياة رجل أصر على الوقوف وسط ميدان صاخب.. فكان مصيره أن دهمته السيارات.

• • •

حين جاءت الصهيونية كان أهم أهدافها.. هو إعادة كتابة التاريخ، ولم يكن المطلوب هو فقط تجميل تاريخ اليهود واليهودية وتأكيد دعوى العودة إلى فلسطين، وإنما تجاوز الهدف ذلك كثيراً إلى ضرورة إعادة كتابة تاريخ العالم على ضوء تاريخ العبرانيين.

وظهرت كتابات عديدة ترى في الوجود العبراني في فلسطين مركز التاريخ، ومن حول هذا المركز راح المؤلفون ينسجون تاريخاً للثقافات والحضارات.. يتكسى على تاريخ العبرانيين وهو يعرض لتاريخ غيرهم من أمم الدنيا وشعوب الأرض.

في القرن السابع عشر وضع الكاتب الفرنسي الشهير "بونسويه" مؤلفاً عن "تاريخ العالم"، وجعل من "يهودا" مركز الدنيا. وفي القرن التاسع عشر اعتبر الأديب الأمريكي

"هنري جورج" .. "خروج" اليهود من مصر على يد فرعون بداية لفكرة حقوق الإنسان وتأسيس الحريات، كما اعتبر "آبا إيبان" خروج الإسرائيليين من مصر مع موسى رمز التحرر الوطني والاجتماعي في الحضارات واللغات الأخرى.

وفي عام 1987 أصدر "مارتن برنال" كتابه الضخم "أثينا السوداء" ليقول بأن اليهود هم بناء الحضارة الإنسانية وأن فضلهم على التاريخ بلا حدود، وزاد آخرون فتحدثوا عن دور يهودي في الثورتين الأمريكية والفرنسية، وعن أن عصبة الأمم والأمم المتحدة من بعدها.. كلتاهما تطبيق لفكرة يهودية.

وهكذا فجأة.. أصبحت اليهودية قاعدة التاريخ، وصار العبرانيون محور الشعوب، وزادوا غروراً على غرور.. حتى قالت بعض الاتجاهات الدينية اليهودية: إن الله يستشير الحاخامات عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء!

لقد دفعت هذه الأمور كثيراً من المؤرخين لنقد وتنفيذ هذا الاتجاه، وينقل "روجيه جارودي" عن "برنار لازار": من غير المعقول أن نجعل إسرائيل مركزاً للعالم ومحركاً للشعوب والأمم.. ولكن للأسف.. فقد سار في هذا الطريق أصدقاء اليهود وأعدائهم.

• • وعلى خلاف هذا الطريق تسير الصفحات التالية.. التي تعرض لبرنامج الحركة الصاخبة في هذا الوقت المبكر.

**أديان متحركة..  
ارتباك التاريخ**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

في عام 1998م.. نشر العالمان "الكسندر وأبيث" في فيينا.. بحثاً علمياً مطولاً ينهض على التأويل العلمي للتوراة، وأهم ما جاء في هذا البحث هو ما أعلنه الباحثان من أن طوفان نوح قد وقع في الساعة الثالثة صباحاً بتوقيت جرينتش يوم 23 سبتمبر قبل (9545) عاماً، وقد توصل البحث إلى هذا التوقيت بالاستعانة بما جاء في التوراة، وبما جاء به علم "وندررو كرونولوجي".. الذي يعرف الأحداث الكونية من حلقات جنوع الشجر القديمة.

فقد وجد الباحثان زيادة في "الكربون - 14" عند الحلقة التي تتفق مع (9545) سنة مضت.. ثم مضيا في بحثهما يتحدثان عن أمور أخرى في العلم والتوراة.

إلى هذه الدرجة من الدقة حاولا أبيث والكسندر التوصل إلى تاريخ حدث هام للعلم والدين على السواء، على أنه ليس بمقدور أحد أن يفعل نفس الشيء في دراسة تاريخ اليهود أو عصور أنبياء بني إسرائيل.

• • •

يعود أول ذكر لليهود في التاريخ إلى إبراهيم أبو الأنبياء -عليه السلام، وهو في "القرآن الكريم" إبراهيم بن آزر وفي "التوراة" إبراهيم بن تارح، وكان قوم إبراهيم يمشون في الجزيرة العربية مثل الكثير من الجماعات السامية التي تناثرت في هذا الفضاء الفسيح، وكانت حركة هذه الجماعات وراء سبل العيش تتجه في العادة من الجنوب إلى الشمال، وعندما اشتد القحط والجفاف.. اتجه قوم إبراهيم من الجزيرة العربية إلى الشمال، ثم استقروا في منطقة "أور" في العراق وكانت تسمى بأرض الكلدانيين.

وفي "أور" ثار الخلاف بين إبراهيم وأبيه تارح، حيث كان تارح يعمل صانعاً للأصنام.. فيما كان إبراهيم يدعو لترك الأصنام وعبادة الله الواحد. وهاجر إبراهيم من "أور" على أثر هذا الخلاف الذي لم يستطع حسمه لصالح الدين الجديد.

اتجه إبراهيم ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط وآخرون ممن اتبعوه إلى أرض الكنعانيين في فلسطين، وليس معروفاً على وجه الدقة متى كانت هجرة إبراهيم من العراق إلى فلسطين، والأغلب أنها كانت عام 2000 ق. م، وأن عصر إبراهيم ينحصر ما بين عامي (2100 – 1900) ق. م.

• • •

قبل ظهور إبراهيم بألف عام، كانت الهجرات تتوالى من الجزيرة العربية إلى الشمال تحت ضغط القحط والفقر، وكان الفينيقيون من أسبق هذه الجماعات هجرة.

اتجه الفينيقيون إلى شاطئ البحر المتوسط وهناك استقر بهم المقام. وإلى الجنوب منهم استقرت قبائل أخرى جاءت من الجزيرة العربية، وكان الكنعانيون من أبناء كنعان بن حام بن نوح هم أشهر هذه القبائل التي استقرت على الضفة الغربية لنهر الأردن وحتى البحر المتوسط.. واسم منطقة استقرارهم "كنعان" ومعناها الأرض المنخفضة.

ولم يكن الفينيقيون والكنعانيون الذين جاءوا من الجزيرة العربية هم أول من سكن أرض كنعان وما فوقها، إذ يدل علم الآثار على وجود الإنسان في هذه البقعة قبل خمسة آلاف سنة من مجيئهم، أي قبل عشرة آلاف سنة من الآن. على أن الدور الحضاري للإنسان في هذه الأرض يعود فقط إلى وجود الكنعانيين الذين أقاموا حضارة مدنية كبرى عرفت الحديد والكتابة. وإلى الشمال الشرقي من كنعان، كانت تعيش قبائل الآراميين التي هاجرت من العراق بعد أن ازدحمت منطقة حوض نهر الفرات بالمهاجرين من الجزيرة العربية، والآراميون هم السوريون وكانت عاصمتهم دمشق.

وإلى الشرق من نهر الأردن ثم إلى جنوب البحر الميت كانت تقع الممالك الثلاث: عمون ومؤاب وإدوم.. وقد جاء سكانها من العراق أيضاً، ولغتها لهجة من الكنعانية، وتعد مؤاب هي أكثر هذه الممالك حضارة.

وفي الجنوب الشرقي كانت تعيش قبائل مدين، وفي الجنوب الغربي كانت مصر،

والى الشمال والشمال الشرقى كانت حضارتا بابل وآشور.

استمرت الأمور على هذا النحو.. قبائل تأتي من الجزيرة العربية إلى العراق ومن العراق إلى كنعان وما حولها، إلى أن كان عام 1200 ق. م حيث نزلت بالساحل المطل على البحر المتوسط قبائل فلسطين، وهم من شعوب البحر sea-people المشهورين فى التاريخ القديم، وقد جاءوا من جزيرة كريت لاضطراب بلادهم نتيجة تدفق الإغريق إبان حرب طروادة.

وطبقاً لجوستاف لوبون فى "اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى" .. فقد اختلط الفلسطينيون القادمون من كريت والذين استقروا بين غزة وبافا مع الكنعانيين - الذين سبقت هجرتهم من الجزيرة العربية - وأصبحت البلاد تسمى فلسطين.

وهكذا كان الفينيقيون والكنعانيون ثم الآراميون والعمونيون والمؤابيون والإبوميون ثم آل إبراهيم ثم الفلسطينيون.. هم اللاعبون الأساسيون فى فلسطين وعلى أطرافها فى الألفين الثالث والثانى قبل الميلاد.

جاء رهط إبراهيم من العراق عام 2000 ق. م ليجد حضارة راقية فى كنعان عمادها الكنعانيون الذين سبقوا فى الهجرة من الجزيرة العربية.. وكان على القادمين الجدد أن يحاربوا الكنعانيين ليتمكنوا من الإقامة فى أرضهم، ولكنهم لم يسيطروا سوى على التلال والأراضى الداخلية الفقيرة، فهما ظل الكنعانيون مسيطرون على مناطق السهول الغنية.

• • •

أطلق أهل كنعان على إبراهيم اسم "عبرى" أى الرجل الذى جاء "عبر النهر" .. دجلة والفرات، وأسموا أسرته بالعبرانيين أو العبريين.. وأخذ العبرانيون من الكنعانيين مظاهر التحضر.. أخذوا منهم لغتهم ومظهرهم وطريقة معيشتهم، إلا أنهم تميزوا عنهم فى جانب الدين، إذ استمر العبرانيون على تعليمات إبراهيم بعدم الانخراط فى عبادة الأصنام وإخلاص العبادة لله الواحد.

مضت السنون إلى أن عمّت المجاعة أرض كنعان، فجاء إبراهيم ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط إلى مصر هرباً من القحط والجفاف الذي أصابهم هناك.

جاءت هجرة إبراهيم إلى مصر بعد عام 2000 ق. م، في عهد الأسرة الثانية عشرة الفرعونية.. حيث كانت زيارات الساميين لمصر ممهودة في ذلك الوقت، وحظى بعضها بالتسجيل في مقابر بنى حسن بالنيها.

تقول التوراة "سفر الخروج" في وصف زيارة إبراهيم لمصر ما يتنافى ومقام الأنبياء: (وحدث جوع في الأرض فنزل إبراهيم إلى مصر. قال لزوجته.. إنك امرأة جميلة المنظر، وإذا رأى المصريون يقولون هذه زوجته فيقتلونى ويحتحبونك، قولى إنك أختى لتطيب حياتى بسببك. رأى المصريون المرأة فإذا هى جميلة جداً، ورآها رؤساء فرعون وعظموها لفرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فأحسن لإبرام بسببها، فضرب الرب فرعون ضربات عظيمة هو وبيته بسبب ساراي "سارة" امرأة إبراهيم.. فطلب فرعون إبراهيم وقال له.. ماذا صنعت بهى، لماذا لم تخبرنى أنها زوجتك، لماذا قلت إنها أختى فأخذتها لى زوجة، فالآن ها هى.. خذها وانصرف، وأعطى فرعون إبراهيم جارية مصرية هى هاجر وزاده فى أمتته ومنتولاته".

وفى صدد التعليق على موقف فرعون من زوجة إبراهيم يذكر "فرنسيس دافدن" فى كتابه "تفسير الكتاب المقدس" قول المفسر اللاهوتى "كيفن": "إن فرعون كان يتمم بالاستقامة الطبيعية والأخلاق الحميدة.. وبالطبع فإن رواية التوراة تخالف ما جاء فى القرآن الكريم.

لم يمكث إبراهيم بمصر كثيراً، إذ تروى التوراة أنه اتجه جنوباً من مصر لكنه فوجىء بقبائل سوداء البشرة، فخشى على نفسه وعلى زوجته وما يملكان، فعاد إلى الشمال إلى أن أقام فى مكان مكة المكرمة بالحجاز، وهناك وضعت هاجر ابنة إسماعيل الذى تزوج من جرهم سادة مكة وينتسب إليه العرب المستعربة.



ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل في الحجاز، وغادر إلى كنعان مع سارة، وبعد (14) سنة من ميلاد هاجر لإسماعيل أنجبت سارة إسحق. ومضت سنوات أخرى إلى أن مات إبراهيم تاركاً إسماعيل في الحجاز وإسحق في كنعان.

• • •

أنجب إسحق بن إبراهيم ولدتين هما: عيسو ويعقوب الذي عُرف باسم "إسرائيل" أي ملاك الله. وتزوج يعقوب أربعة نساء.. ابنتي خاله ليثة وراحيل، وجاريتيهما زلفة وبلهة، وأنجب منهن (12) إبناً هم: روبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكروز، ويولون، ويوسف، وبنيامين، وجاد، وأشير، ودان، ونفتالي.

وكان ليوسف وبنيامين حظوة عند أبيهما، ومن نسل "لاوي" الابن الثالث، جاء موسى بن عمران، ومن اسم "يهوذا" الابن الرابع جاءت كلمة "اليهود" و"اليهودية".

• • •

دخل العبرانيون من آل يعقوب في صدام شديد مع الكنعانيين أصحاب الأرض، ومع غيرهم من الأقوام والممالك المجاورة، وفي التوراة "سفر يشوع" (سمع الرب صوت إسرائيل "يعقوب". ودفع إليهم الكنعانيين.. فأبسلوهم "قتلوهم"). وفي موقع آخر تقول التوراة: (فأبسلوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ.. وحتى البقر).

ومثلما فعل العبرانيون مع الكنعانيين قاموا بتدمير ملك "عمراد" وشعبه ودمروا مدنه في جنوب فلسطين، كما أبادوا "سيحون" وقومه في شرق البحر الميت، وكذا فعلوا مع ملك باشان وقومه في شرق نهر الأردن، ومدين في جنوب سيناء. وفي سفر القثنية (ودمرنا كل مدينة وأبدنا الرجال والنساء والأطفال ولم نبق أحداً).

وبرغم حجم الدمار الذي ألحقه بنو إسرائيل بغيرهم على النحو الخفيف الذي تعوره التوراة، فإن المقام لم يطلُ ببعقوب في كنعان، إذ حلَّ بها القحط والجفاف وأصبحت الحركة خارج كنعان هي سبيل العيش والبقاء، وهاجر يعقوب وأبناؤه إلى مصر في منتصف

القرن السابع عشر قبل الميلاد، وفيها استقروا بأرض جاشان "بلبيس حالياً" نحو ثلاثة قرون إلى أن خرج بهم موسى- الذي يمثل الجيل السابع بعد إبراهيم - من مصر.

كان يوسف قد سبق يعقوب وبنيه إلى مصر مع قافلة التقطته من بئر في طريقها من كنعان ثم باعته، وفي مصر كانت قصة يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم بن قارح.. مع "فوتى فارغ" من ملوك الأسرة السادسة عشرة، وأصبح يوسف مديراً لخزائن الطعام في مصر وتزوج بنت كاهن أون "تل الحصن بجوار الطرية بالقاهرة".

التقى يوسف إخوته في مصر حين جاءوها هرباً من مجاعة كنعان وتعرّف عليهم، ثم استقدم يوسف أباه يعقوب وإخوته وكل ما كان لهم في كنعان.. تقول التوراة "سفر التكوين": (وأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاه إقطاعية في أرض مصر كما أمر فرعون). وكان دخول يعقوب وأسرته إلى مصر في زمن حكم الهكسوس، كما كان منصب يوسف بن يعقوب مستمداً من قبولهم ورضائهم حسبما يرى المؤرخون.

• • •

والهكسوس هم غزاة أجلاف من الرعاة الآسيويين الذين دفعهم القحط والجوع لفسزو مصر.. ونظراً لحالة الضعف والتدهور التي كانت عليها مصر حينئذ، فقد تمكن الهكسوس من إسقاط الأسرة الثالثة عشرة وأقاموا أربع أسر هي: الأسرة الرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والسابعة عشرة وأقاموا عاصمة لهم في أوارييس "سان الحجر- محافظة الشرقية" إلى أن تمكن البطل المصري "كامس" من هزيمة الهكسوس.. تالياً في نضاله لجهود أبيه "سُقْنُ رع" وسابقاً لجهود أخيه البطل الشهير أحمس.

لقد عاش بنو إسرائيل بمصر ثلاثة قرون كلها في عهد الهكسوس، كثُر فيها متاعهم وزاد عددهم، حتى أن التوراة تقدر عدد ذكورهم فوق سن العشرين عند خروجهم من مصر في عهد موسى بنحو (500,603) يهودياً.

ويرى المؤرخون أن هذا رقم مبالغ فيه للغاية، إذ أحصت التوراة نفسها عدد أهل

بيت يعقوب بسبعين شخصاً.. وهذا معدل غير مألوف في النمو السكاني، ثم إنه من غير المعقول أن تسير قافلة ضخمة بهذا الشكل دون أن تترك أثراً في مصر أو في سوريا.

يذكر "أحمد شلبي" في "اليهودية" .. أن بنى إسرائيل قد تفكروا لسادتهم المصريين، وتآمروا مع الهكسوس وثاروا ضد الحكم الوطني، وعاشوا يستنزفون أموال المصريين من غير تقديم إنتاج حقيقى فى مجالات العمل الجاد، ويرغم أن أحسس لم يتعرض لبنى إسرائيل بسوء إذ كان مشغولاً بالهكسوس.. العدو الأكبر، فإن خلفاءه فى الأسرة التاسعة عشرة قد انتقموا منهم. وفى هذه الأثناء ظهر موسى بن عمران.. أشهر أنبياء بنى إسرائيل.

• • •

ينتمى موسى إلى الجيل السابع بعد إبراهيم، وكان هذا الجيل محل سخط المصريين الذين أخذوا على العبرانيين تحالفهم مع الهكسوس، وخشى المصريون أن يزداد بأسهم أو يستفحل خطرهم إذا هم تركوهم وشأنهم. وكان رأى بعض المقربين من فرعون أن يقوم المصريون باستعباد العبرانيين حتى "يفكروا مثلنا ويمتقدوا مثلنا"، واستعبد المصريون العبرانيين، ولكن ذلك لم يجعلهم مندمجين فى الشعب، وكان رأى البعض الآخر من المقربين أن يُقتل كل ولد يولد للعبرانيين حتى لا يزداد نسلهم، وعندئذ تضطر بناتهم إلى الزواج من المصريين ويصبحن مصرية، وسنّ فرعون قانوناً يقضى بإغراق كل مولود ذكر تلده امرأة عبرية.

وذات يوم ولدت "يوكابد" زوجة عمران ولداً أسماه "موسى"، خباته ثم وضعته فى سلة وقذفته فى النيل. وعندما جاءت زوجة فرعون لتستحم فى النيل عثرت عليه فأخذته وأقنعت فرعون ببقائه.

ويرى بعض الباحثين أن نشأة موسى فى بيت فرعون كانت بداية معرفته الحكمة والأخلاق، فقد عاش فى ظلال الوحدةانية التى أعلن أمرها فرعون مصر أخناتون وهو فرعون مصر المسمى أمينوفيس الرابع (1367 - 1350) ق. م، وقد جاء فى الإنجيل "سفر أعمال

الرسالة (فتهدب موسى بكل حكمة المصريين، وكان مقتدراً في الأقوال والأفعال).

وذات يوم رأى موسى وكان قوى البدن رجلاً مصرياً يضرب عبداً عبرياً، فضرب موسى الرجل المصري فمات، ولأن قتل مصرى على يد عبرى لم يكن سهلاً، فقد أرسل فرعون من يبحثون عن موسى للقضاء عليه.

تقول التوراة "سفر الخروج" .. (ونظر موسى فإذا برجل مصرى يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت يميناً ويساراً فلم يرَ أحداً، فقتل المصرى وطمره فى الرمل.. وسمع فرعون هذا الخبر فطلب أن يُقتل موسى.. فهرب..

وكان هروب موسى إلى مكان فى سيناء يسمى "أرض مدين" حول خليج العقبة، فأخذه كاهنها "پترو" وهو النبی شعيب فى القرآن الكريم، وزوجه ابنته "صفورة". وقضى موسى فى صحراء مدين ثمانى سنوات، ثم ترك زوجته فيها وعاد إلى مصر بعد أن رأى ربه وأيقن نبوته.

ويروى القرآن الكريم قصة المناظرة بين موسى وفرعون، والمعجزات التى أظهرها موسى من خلال عصاه، وهى - طبقاً للمصادر الإسرائيلية - عصا يوسف بن يعقوب، حيث كانت العصا ضمن متاع يوسف الذى انتقل إلى قصر فرعون بعد وفاته فى مصر، وقد أخذها شعيب من قصر فرعون حيث كان كبير كهنته، ثم أخذها موسى من شعيب فى نهاية المطاف.. وهذه رواية لا يقرها القرآن الكريم.

وقد انتهى الحوار بين موسى وفرعون.. بعزم موسى على "الخروج" من مصر وكان ذلك - حسب بعض المصادر - فى عام 1300 ق. م فى عهد الفرعون رمسيس الثانى.

يرى بعض الباحثين أن رمسيس الذى تروى التوراة أنه كان فرعون مصر لم يكن موجوداً، إذ أن أول فرعون يحمل هذا الاسم تبوأ العرش عام 1315 ق. م، بينما تذكر التوراة أن تاريخ الخروج كان فى عام 1450 ق. م، أى قبل مائة سنة من ذلك، وعلى ذلك يرى هؤلاء الباحثون أن فرعون الخروج كان من الهكسوس.. ولم يكن رمسيس الثانى.

خرج موسى يقود العبرانيين باتجاه كنعان، ولحق فرعون بموسى وبنى إسرائيل، وفيما عبر موسى وقومه غرق فرعون ومن معه حيث انشق البحر ثم التنم.

• • •

قضى بنو إسرائيل مع موسى أربعين عاماً في سيناء ماتوا جميعاً خلالها ولم يدخل منهم إلى كنعان إلا اثنان من أصحاب موسى هما - طبقاً للتوراة - كالب ويشوع. عندما خرج العبرانيون من مصر كانوا يتوقمون نعيماً آخر ومقاماً أفضل، ولكن ذلك لم يحدث، وسرعان ما تمكن منهم الإحباط وسادت مشاعر الندم بينهم، فقد تذكروا مصر وخيراتها والمعيش الهانئ، الذي كان فيها.

وتصف التوراة "سفر الخروج" ذلك على لسانهم: (ليتنا متنا في أرض مصر بجانب قبور اللحم ناكل طعاماً للشبع). وفي "سفر العدد" تقول "التوراة": (فماذ بنو إسرائيل وبكوا أيضاً، وقالوا من يطعمنا لحماً، قد تذكرونا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً.. والقضاء والبطيخ.. والآن قد يبست أنفسنا).. (وتخاصم الشعب مع موسى، وتفوهوا قائلين: لما أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لنموت فيها نحن ومواشيها).

وتجمل التوراة في "سفر التثنية" نقاج هذه المشاعر في هذا النداء اللافت للنظر: (لا تكره مصرياً.. لأنك كنت نزيلاً في أرضه). وبرغم مشاعر الإحباط والندم فقد مضى بنو إسرائيل في البرية، وبرية سيناء التي مكثوا فيها أربعين عاماً هي طريق مصر فلسطين "حوالي (200) كيلومتر".

في سيناء حدثت معجزات لموسى - عليه السلام - مع قومه، غير أنهم عادوا عن دينه على يد رجل يدعى السامري صنع لهم عجلاً من ذهب فعبدوه.

مرت سنوات طوال دون أن يدخلوا أرض كنعان، ومات موسى على سفح جبل ودُفن في رمل أحمر، بعيداً عن كنعان.

• • •

إن أهم أحداث هذه المقود الطويلة التي قضاها بنو إسرائيل تائهين شاردين.. هو ما

جاء به موسى قومه من الوصايا العشر.. ألا يتخذوا إلهاً آخر، وألا يعبدوا أصناماً، وألا يتخذوا اسم الله لهواً ولعباً، وأن يستريحوا في اليوم السابع من كل أسبوع ويجعلوه مقدساً، وأن يكرموا آباءهم وأمهاتهم، وألا يقتلوا، وألا يزناوا، وألا يسرقوا، وألا يكذبوا، وألا يحسدوا الآخرين.

• • •

دخل الإسرائيليون إلى كنعان بقيادة يشوع، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال العاصمة ييبوس "القدس" أو الساحل الفلسطيني، ويذكر "ويلز" في "موجز تاريخ العالم" أن الإسرائيليين بقيادة يشوع لم يفتحوا سوى منطقة التلال الداخلية ولم يزيدوا عليها شيئاً، وظلت القبائل الإسرائيلية أجيالاً عديدة شعباً مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية مخفولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين والقبائل النازحة حولهم. ومع الوقت تحول بنو إسرائيل من قبائل صحراوية لا تعرف الاستقرار إلى فلاحين مقيمين.

في هذه الأثناء كان النظام الاجتماعي العبراني يقوم على القبيلة، وكانت القبائل العبرانية الإثنتا عشرة متجمعة حول الهيكل المركزي في "سيلون"، واعتمد نظام الحكم في هذه المرحلة على الكهنة والقضاة.

يسمى العصر الممتد من وفاة يشوع الذي قاد العبرانيين إلى كنعان وحتى قيام مملكة إسرائيل على يد ملكها الأول شاول.. بعهد القضاة. وقد استمر عهد القضاة نحو قرنين وكانت سلطتهم فيها محدودة وطاعتهم غير واجبة.. وهي أشبه بسلطة زعماء القبائل في النظام البدوي السامي القديم.

• • •

من أشهر الشخصيات في عهد القضاة.. "دبور" التي قادت (6) قبائل وانتصرت بها على الكنعانيين في موقعة مجدو، وجدعون وشمشون اللذان انتصرا في بعض المعارك. لم تكتمل انتصارات "دبور" و"جدعون" و"شمشون".. فقد شن الفلسطينيون هجوماً

مضاداً على الإسرائيليين.. وتمكن الفلسطينيون من هدم "هيكل سلون" وأسر "تابوت العهد".. أهم رمز ديني في اليهودية.. وقامت المدن الأخرى بالهجوم على الإسرائيليين حتى انهارت قواهم، ولم يعد لبني إسرائيل قبعة تذكر.. أصبح كل شيء شيئاً ومهيناً.. إلى أن كانت مملكة إسرائيل.

• • •

حضر المشهد الختامي لنهاية هذا العصر "النبي صموئيل".. آخر القضاة وأول الأنبياء بعد موسى بن عمران. قضى صموئيل في بني إسرائيل سنوات حتى كبر سنه، فاتخذ من ابنه قاضيان من بعده، ولكن الإسرائيليين رفضوا ترشيح صموئيل لابنيه وطلبوا أن يكون لهم ملكاً شأن الشعوب الأخرى. واختار صموئيل فلاحاً فقيراً ينتمي لأصغر قبيلة وأقربها إلى وسط البلاد هو "شاؤول" والذي جاء ذكره في القرآن الكريم باسم طالوت.

أتاح "شاؤول" نشأة الملكة ونهاية عصر القضاة. كان شاؤول أول ملوك إسرائيل ومؤسس الملكية الإسرائيلية عام 1020 ق. م - مقاتلاً قوياً، وتذكر التوراة أنه حارب قوماً عماليق من نسل "عمسو بن اسحق بن إبراهيم" شقيق يعقوب.. أي من العبرانيين أنفسهم وانتصر عليهم.

ويقول "سفر التكوين" أنه أبادهم إبادة تامة من الكبير للصغير والمرأة والرجل والماشية.. ولكنه لم يقتل ملكهم ولا الغنم السليم.. وقادهم للنبي صموئيل الذي استشاط غضباً.. لأن شاؤول كان رحيماً ولم يقتل.. الملك والغنم. على أن شاؤول سرعان ما اصطدم بالكهنة، وكان هذا الصدام سبباً في سقوطه إلى أن قتله الفلسطينيون في المعارك.

ذهبت الملكية إلى داوود.. الذي كان في مقدمة رجاله الأقوياء. انتصر داوود في صراع السلطة مع ابن شاؤول وقائد الجيش واستقر له الملك وأصبح الملك الثاني لإسرائيل.

استولى داوود على أورشليم واتخذها عاصمة له عام 1000 ق. م. وكانت أمور مصر في هذه الأثناء مرتبكة فضعفت هيمنتها على الشام وفلسطين، كما كانت أمور الدولة

الآشورية مرتبكة هي الأخرى، وتحالف داوود مع "حَبْشَام" عاهل مملكة صور الفينيقية..  
وتمكن بفعل هذه الظروف من أن يحكم إسرائيل أربعين سنة بالقوة والشدة.. على أنها طبقاً  
لكثير من الباحثين.. كانت فترة الرخاء الوحيدة للشعب العبرى على مر التاريخ.

ثم جاء النبي سليمان بن داوود الذي تقول التوراة أنه خاض صراعاً هو الآخر على  
السلطة انتهى بسيطرته الكاملة على مقاليد المملكة. بنى سليمان الهيكل، وقويت المملكة في  
عمره، وتزوج من ابنة شيشنق فرعون مصر وصار صهراً للمصريين.

• • •

كان سليمان بن داوود آخر ملوك إسرائيل، وبعد وفاته عام 935 ق. م، أعلن رحبعام  
بن سليمان بن داوود نفسه ملكاً على إسرائيل، كما أعلن أخوه يربعام نفس الشيء. وأقام  
"رحبعام" - الذي تزوج مصرية من آل فرعون - مملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها  
أورشاليم، فيما أقام "يربعام" مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة، وحدود هاتين  
الدولتين معاً تقع داخل الضفة الغربية حالياً. وكانت يهوذا مستقرة نسبياً فيما كانت عوامل  
عدم الاستقرار لا تنتهي في إسرائيل.

تعاقب على الدولتين عدد من الملوك وصلوا إلى (19) ملكاً لكل منهم.

وقد استمرت الأمور على هذا النحو إلى أن قضى الملك الآشوري سرجون الثاني على  
مملكة إسرائيل عام 721 ق. م، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً. وقد اعتقل سرجون  
الثاني "هوشع بن إبله" آخر ملوك مملكة إسرائيل.

وفي عام 608 ق. م. زحف "نخو" فرعون مصر في الأسرة السادسة والعشرين  
واحتل يهوذا ثم طرد الآشوريين من إسرائيل واحتلها هي الأخرى. لكن "نبوخذ نصر" ملك  
بابل عاد فزحف إلى هناك وهزم فرعون واستعاد مملكة إسرائيل.. ونهب أورشاليم ودمر  
هيكل سليمان وسبى أكثر السكان إلى بابل بعد أن قتل "صدقيها بن يواقيم" آخر ملوك  
يهوذا.. كان ذلك عام 586 ق. م بداية عصر السبي البابلي، واختفاء اليهود من فلسطين.



لكن متعة البابليين بانتصارهم لم تدم طويلاً، فبعد خمسين سنة من ذلك الانتصار  
وقموا في قبضة الفرس، ففي عام 538 ق.م. احتل قورش ملك الفرس بلاد بابل.

• • •

أطلق الفرس على شعب يهوذا اسم اليهود، وعلى عقيدتهم اسم اليهودية، ومن  
هنا.. أصبح اليهودى هو من اعتنق اليهودية ولو لم يكن من بنى إسرائيل. وكان الفرس على  
علاقة طيبة باليهود، فسمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء  
مملكتهم، وقد بقى معظمهم فى العراق وعاد بعضهم إلى فلسطين وأمكنهم إعادة بناء  
أورشاليم والهيكل بدعم من الفرس، لكنهم لم يقيموا دولة وإنما استمروا جماعة خاضعة  
للحكم الفارسى.

أما يهود العراق الذين لم يعودوا إلى فلسطين فقد كانوا الأغلبية، وقد وصل عددهم  
فى عهد السيد المسيح نحو مليون يهودى.. لكنهم تعرضوا للإبادة فى عهد المغول وبقى  
الآلاف فقط ويهود العراق هم نواة الشتات شرقاً.. إلى فارس وأفغانستان وبخارى وسمرقند  
والتوقاز.. ثم الهند والصين.

والأغلب - طبقاً لجمال حمدان - أن يهود الجزيرة العربية ينتمون إليهم، فاسم  
"يثرب" يهودى، وملك سبأ ذو النواص (القرن السادس الميلادى) كان يهودياً، والمهاجرون  
من حضرموت الذين أسسوا الإمبراطورية الحبشية كانوا يهوداً لم تحولوا إلى القبطية، ومن  
المحتمل أن يكون يهود المغرب من شتات الأسر البابلى. وإن كانت اليهودية قد انتشرت  
بالاعتناق بين بعض القبائل البربرية قبل الإسلام.

لقد مضى يهود فلسطين ينعمون برعاية الفرس إلى أن انهارت قوى الفرس أمام  
أعدائهم، وخضع اليهود لحكم الإغريق ثم الرومان (كان حكم الإسكندر الأكبر عام 320 ق.  
م ثم حكم البطالسة، وبدأ الحكم الرومانى عام 63 ق. م حيث اكتسح القائد الرومانى  
بامبيوس فلسطين واحتل القدس).

وفى عام 70 ميلادية.. دمر الإمبراطور الرومانى "تيطس" أورشاليم وأحرق الهيكل.. وهو التدمير الثانى بعد تدمير "نبوخذ نصر" عام 586 ق. م.

وفى عام 135 م .. تخلص "أبريانوس" من جميع اليهود فلم يبق يهودى واحداً، وأزال تماماً معالم أورشاليم والهيكل.. وحرث الأرض ثم قام بزرعها. وهرب من استطاع من اليهود إلى أوروبا وشمال أفريقيا.. وهكذا بدأ الشتات المملىنى ثم الرومانى فالوسيط

• • •

جاءت مرحلة الشتات المملىنى - وفقاً لجمال حمدان - بعد المرحلة الفارسية، وتبدأ هذه المرحلة بفتوح الإسكندر الأكبر وتستمر مع السلوقيين والبطالمة ثم البيزنطيين.. واتجه اليهود فى هذا الشتات إلى الغرب حيث انتشروا فى كل العالم المملىنى والبيزنطى، فى سوريا وآسيا الصغرى، والإسكندرية والبلقان وسواحل البحر الأسود، وقد ذهب بعض يهود البلقان إلى جنوب روسيا.

وما بلغت الأنظار فى هذا الشتات هو قدرة بعض اليهود على تأسيس دولة يهودية تسمى "الخزر"، وقد نشأت دولة الخزر على يد التتار فى القرن السابع الميلادى حول بحر قزوين غير أنها تحولت إلى اليهودية فى عهد "شارلمان" فى القرن الثامن وظلت هذه الدولة قائمة إلى أن تمكنت "دولة كييف" السلافية التى تمثل مقدمة الدولة الروسية الحديثة من القضاء عليها. وعلى أثر ذلك انتشر اليهود فى أجزاء كثيرة من جنوب روسيا، وفى عام 1110م منعت روسيا نهائياً دخول أى يهود جدد بها وحددت للموجودين منهم مناطق معينة لا يقيمون خارجها فيما صارت تعرف تاريخياً باسم "حظيرة اليهود" Jewish Pale.

ثم كان الشتات الرومانى والوسيط .. وهو الشتات الثالث - بعد البابلى والمملىنى - فى تاريخ اليهود القديم، فقد تواترت ثورات اليهود الذين كانوا يمثلون أقلية فى فلسطين على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب أورشاليم والهيكل وبإبادة اليهود فى مذبحه عام 70م.

وقد صفت هذه المذبحة أغلب اليهود، وفرّ الباقون إلى مصر وسوريا، غير أن بقايا

اليهود عادوا إلى الثورة عام 135م حيث قوبلوا بمذبحة نهائية قضت على مصير اليهود في فلسطين، فقد أعمل الرومان في اليهود القتل والإبادة، وحرّموا عليهم دخول القدس نهائياً وطردوهم من فلسطين إلى كل أجزاء الامبراطورية، وكان هذا هو التاريخ الذي انتهت فيه علاقة اليهود بفلسطين سكانياً وسياسياً.. إنه الخروج الأخير.

وينقل جمال حمدان عن المؤرخ "جوزيفوس" تقديرات مذبحة عام 70م بأنه قد قُتل فيها من اليهود مليون وثلث المليون يهودي، وتم أسر مليوناً آخر أو تم بيعه كرقيق.

مات مئات الألوف من المجاعة.. أي تم التعامل مع نحو ثلاثة ملايين يهودي قتلاً وأسراً وببعضاً وتجويعاً. ويقدر آخرون أن من قُتل في هذه الأحداث يزيد قليلاً عن نصف المليون.

كذلك قُتل معظم اليهود في قبرص وطُرد الباقون.. ولم يزد عدد يهود الخروج الأخير عن الأربعين ألفاً.. وما تبقى بعد ذلك من يهود بفلسطين تحول إلى المسيحية ولم يثبت على اليهودية.. إلا "السامريون" الذين تحولوا إلى قوقعة صغيرة في نابلس القديمة.

وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود يزيد عن العشرة آلاف نسمة فقط في كل فلسطين.

• • •

انتشر يهود الشتات الروماني وراء الرومان.. في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا. وجاءت العصور الوسطى بحروبها الصليبية ضد المسلمين واليهود، وفي 1394م اختفى اليهود تماماً في فرنسا بعد أن طُردوا وتفرقوا. وفيما ظل يهود إيطاليا على حالتهم من التقوقع والانغلاق فقد تعرض يهود ألمانيا وأسبانيا لخطر الإبادة والطرود.

ومن نسل هؤلاء الألمان والأسبان.. كان الثنائي: الأشكيناز والسفارديم. ويقصد بالأشكيناز.. يهود ألمانيا الذين يُعتقد بأنهم أرسقراط ينحدرون من قبيلة يهودا، أما

المفارديم من يهود اسبانيا فيعتقد أنهم وضعاء ينتمون إلى قبيلة بنيامين. بدأ اليهود الأشكيناز يتسربون إلى بولندا والعالم السلافي، وانتشر المفارديم الذين وصل عددهم في اسبانيا العربية إلى مليون يهودي.. في هولندا وانجلترا وإيطاليا وفرنسا وشمال أفريقيا.. وكذلك في البلقان وتركيا والشرق الأوسط

• • •

كانت الهجرة إلى العالم الجديد في أمريكا الشمالية قد تعاقبت منذ القرن السادس عشر، وفي أوائل القرن العشرين دخل الولايات المتحدة الأمريكية من اليهود نحو مليون ونصف المليون يهودي من بينهم أكثر من مليون يهودي روسي.. ثم زاد العدد.. إلى أن صار في الولايات المتحدة أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض.

كذلك انطلقت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية، وانطلق عدد أقل إلى استراليا وجنوب أفريقيا.

هاجر من يهود روسيا عدد إلى الشرق الأقصى السوفيتي وأقيمت لهم جمهورية يهودية خاصة في حوض نهر الأمور هي "جمهورية بيروبيدجان". ثم كانت الفترة النازية في ألمانيا ووقائع الحرب العالمية الثانية.. وجاء عدد من يهود أوروبا إلى فلسطين واتجه الجزء الأكبر إلى أمريكا. وكان المسرح مهيبًا للدعوة لإقامة إسرائيل.

• • •

طيلة الفترة الممتدة من حكم "صموئيل" أول نبي يأتي بعد موسى بن عمران وحتى نهاية فترة السبى البابلي بعد انتصار الفرس على بابل.. تعاقب على بنى إسرائيل عدد كبير من الأنبياء الذين تراوحت مهمتهم من بعث الأمل في النفوس وتأكيد النصر النهائي وما بين الإحباط والغضب الشديدين من بنى إسرائيل الذين لم تعد تصلح فيهم نبوة ولا كتاب.

وكان أبرز هؤلاء الأنبياء.. "إلياهو" و"إليشع" اللذان ظهرا في القرن التاسع قبل

الميلاد، و"عاموس" و"هوشع" و"ميكَا" الذين ظهوروا في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ثم "عاموس" يليه "أشعيا" الذي ظهر في مملكة يهوذا وقت سقوط إسرائيل، ثم "أرميا" الذي ظهر في مملكة إسرائيل حين سقطت أورشاليم وقضى نبوخذ نصر على الملكة، ثم ظهر "حزقيال" و"أشعيا الثاني" بين اليهود أثناء الأسر البابلي.

كان "إياهو" و"إيشاع" في طليحة الأنبياء الكبار، واليهما يرجع الفضل في القضاء على صور العبادة الوثنية. والنبي "إياهو" هو رسول الله "إياس" في القرآن الكريم، وقد جاء اسمه في القرآن في ثلاث صيغ: إياس، الياسين، إل ياسين.. وفي سورة الصافات: "وان إياس لمن المرسلين".

والنبي "إيشاع" هو تلميذ إياس وخليفته، وهو نبي الله "اليسع" الذي جاء ذكره في القرآن الكريم.. وفي سورة ص: "وانكر إسماعيل واليسع ونا الكفل وكل من الأخيار".

وكانت دعوة النبيين "إياس" و"اليسع" تقوم على العمل أكثر مما تقوم على القول. وقد لحق بهم الأنبياء عاموس وهوشع وميكَا.. وقد سماهم علماء التوراة بالأنبياء المنشدين الجوالين.. لأنهم كانوا يندرون الناس وينصحونهم بمواعظ جاءت في الأسفار التي تحمل أسماءهم.

وجاء عاموس.. وكان نبياً متألماً مما جرى لبني إسرائيل ثم مما جرى من بني إسرائيل، فصبّ عليهم اللعنات وأخذ يتحدث على لسان الرب يحذر وينذر ويقول.. "ويل للمستريحين في صهيون.. كرهتكم.. كرهت أعيادكم". وكان عاموس ملهماً يتحدث عن المستقبل في صفاء ووجل.. ومن أهم نبوءاته: "كما ينتزع الراعي من فم الأسد.. ينتزع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة من زاوية السرير وعلى الفراش.. فتهوى بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة".. ثم كان أن تحققت نبوءته وهو لا يزال حياً.. حيث غزا الآشوريون بيوت بني إسرائيل وأخذوهم أسرى.

ثم كان مجيء "أشعيا" أحد أهم أنبياء بني إسرائيل.. وقد ظهر في مملكة يهوذا وقت

سقوط مملكة إسرائيل، وعندما حوصرت أورشليم عاصمة يهوذا نصح حزقيال الملك بعدم التسليم، وكان أن انسحب ملك آشور.. فاعتُبرت من معجزات أشعيا.

وحسب التوراة كان أشعيا يدعو إلى العدل ويناصر الفقراء.. ومن أهم نبوءاته.. تنبؤه بالمسيح.. يقول: "ها العذراء تحبل وتلد ابناً تدعوه عمانوئيل.. يقضى بالعدل لبائسي الأرض". وانتفى أشعيا متخائماً ومتوقفاً الخراب، وهو ما حدث في زمن النبي أرميا من بعده.

لقد ظهر أرميا.. أشد أنبياء بني إسرائيل حنقاً عليهم حين سقطت أورشليم، وعاد ملك بابل نبوخذ نصر بآلاف العبيد بعد أن أحرق أورشليم وهدم الهيكل.. وفي تشلوم عميق واستسلام كئيب فيما يعد أقوى التعبيرات الحزينة في الفكر العبري يقول أرميا "لا تخرجوا إلى الحقل، ولا تذهبوا في الطريق.. لأن للعو سيفاً، والخوف محيط من كل جانب". ويقول: "يا ابنة شعبي تمرغي في التراب، وأقيمي لك ماتماً كمامت الولد الوحيد.. مناقه مرة.. لأن المخرّب سيأتينا فجأة".

وقد جلبت هذه الانتقادات العنيفة حنق الكهنة عليه.. فجاءوا به وأنزلوه بثراً مليئاً بالوحل، ثم سجنوه في حديقة قصر إلى أن وجده البابليون في أورشليم.. وفي القرآن الكريم كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء.

غير أن حدة النقد قد خفت في حضور الأنبياء الذين تعاقبوا من بعد أرميا.. فكان حزقيال.. النبي الذي ظهر بين اليهود في الأسر البابلي أقل نقداً وألماً، وزاد فتوقع بناء معبد جديد وعودة أورشليم، كما كان أشعيا الثاني يبث الأمل.. ويبشر بقدوم المسيح المنقذ الذي يتحمل آثام الجميع، ويعد أشعيا الثاني هو خاتم الأنبياء الكبار في بني إسرائيل.

**نصوص متحركة..**

**نقد التوراة**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



على غير العادة في الأديان السماوية والأرضية على السواء.. تأسس في القرن التاسع عشر في أوروبا علم جديد هو "علم نقد التوراة"، ويعكف هذا العلم على تناول التوراة بالبحث والتحليل، وأعمال النقد الشامل للغة والنص والمضمون.. ولم يبق هذا العلم على استقلاله فترة طويلة، إذ سرعان ما أضحي جزءاً من علم أوسع هو "علم الاستشراق".. وذلك لارتباط التوراة بتاريخ المشرق القديم.. أو لأن التوراة جاءت من الشرق.

والتوراة هي الكتاب المقدس الذي أنزله الله على موسى في سيناء، وقد توصلت جهود علماء فقه التوراة إلى أن النص الأصلي للتوراة لا وجود له، وأن التوراة الحالية اعتمدت على مصادر إنسانية استفادت من نص قديم للتوراة.

وطبقاً للعالم الألماني "يوليوس فلهاوزن".. فإن تثبيت نص التوراة على ما هو عليه الآن يعود إلى شخص مهم يدعى "عزرا" في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن بعد "عزرا" ظهرت تشريعات إضافية، ثم قام محرر كهنوتي بتوحيد الكتاب المقدس حوالي عام 400 ق. م، ومنذ عام 330 ق. م.. أصبح نص التوراة نصاً قانونياً نهائياً، ولم يتم السماح لأحد بعد هذا التاريخ بإضافة أية مواد للتوراة. وقد احتل "عزرا" بما فعل مكانة هامة في التاريخ اليهودي، ويطلق عليه بعض علماء اليهودية لقب "أبو اليهودية".

وعزرا هو كاهن يهودي أحضر معه من بابل نسخة من "كتاب ناموس موسى".. وقراه على الناس في اورشليم، ثم كان دوره في تثبيت نص التوراة واعتباره القانون الرسمي للدين اليهودي.

• • •

وهكذا.. فإن الفترة الممتدة من زمن موسى (عصر التوراة الأصلية) إلى زمن عزرا (عصر التوراة الحالية) وهي نحو أربعة قرون لا يوجد عنها شيء، وكل التصورات المتعلقة بكل هذه القرون وبما قبلها إلى بداية الخلق هي من صياغة هؤلاء المحدثون.

ويعود الحصول على النسخة الآرامية القديمة إلى ما يسمى "لفائف البحر الميت" ..  
والتي تحوى أقساماً من "سفر اللاويين وأبواب"، وقد تم ترجمة هذه النسخة بالإسكندرية إلى  
اللغة اليونانية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد حتى يستفيد منها اليهود المقيمون في  
مصر. وتسمى الترجمة اليونانية للنسخة الآرامية من التوراة باسم "السبعونية"، كما تمت  
ترجمتها في شمال أفريقيا في القرن الرابع الميلادي من اللغة العبرية إلى اللاتينية باسم  
"الفولجات" وهي النسخة المعتمدة من الكاثوليكية الآن، كما تمت الترجمة إلى لغات  
أخرى.. السريانية والقبطية والحبشية.

ويذكر "زياد مني" أن أقدم نسخة مترجمة ومتكاملة هي نسخة ليننجراد عام  
1008م، ومنها نسخة شتوتجارت الألمانية الحديثة، وقد ترجمت التوراة من اللاتينية إلى  
العربية في نهاية القرن التاسع عشر في إطار "الكتاب المقدس"، وهناك نسخة ترجمها من  
اللاتينية "مارتن لوثر" مؤسس الاتجاه البروتستانتي في المسيحية عام 1534م وصدرت  
طبعة حديثة منها عام 1987م.

• • •

يمتد عدد من السامريين في نابلس في "التوراة السامرية" .. وهي نسخة خطية من  
التوراة يقولون أنها نسخت بعد دخول يشوع إلى أرض كنعان أي بعد وفاة موسى بسنوات  
قليلة، لكن العلماء يقولون إن الخط الذي كتبت به هذه النسخة يرجع إلى القرن الثالث عشر  
الميلادي.

وطبقاً للمفسر "جون الكمندر" في كتابه "قاموس الكتاب المقدس" .. فإن النص  
السامري المذكور يختلف عن النص العبري الحالي بما يقرب من ستة آلاف موضع، ويتفق  
نص التوراة السامرية مع الترجمة السبعينية في ألف وتسعمائة موضع.

وتضم الترجمة الموحدة الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية عام 1974م بعض الأسفار  
غير المعترف بها في اليهودية ولا في البروتستانتية.. وتزيد النسخة الكاثوليكية سبعة

أسفار عن النسخة البروتستانتية.

• • •

تتكون التوراة من (39) سفرًا.. على ثلاثة أقسام: يضم القسم الأول منها أسفار موسى الخمسة وهي: التكوين، الخروج، العدد، اللاويين، التثنية.

ويضم القسم الثاني أسفار الأنبياء.. وقد تم تقسيم هذه الأسفار في القرن الثامن الميلادي إلى جزأين.. يحوى الجزء الأول أسفار الأنبياء الأولين: يشوع، القضاة، صموئيل الأول، صموئيل الثاني، الملوك الأول، الملوك الثاني. ويحوى الجزء الثاني أسفار الأنبياء المتأخرين: أحميا، أرميا، حزقيال.. وهوشع، يوشع، عاموس، عوبديا، يونان، مینحأ، ناحوم، حبقوق، صفيان، حجي، زكريا، ملاخي.

ويضم القسم الثالث من التوراة أسفار الكتب: الزامير، أيوب، الأمثال، راعوت، أنشودة الأناشيد، مراثي، الجامعة، أستير، دانيال، عزرا، غميا، الأيام الأول، الأيام الثاني.

يتحدث "سفر التكوين".. أول أسفار التوراة عن أصل العالم وتاريخ الإنسان حتى نشأة إبراهيم وأسرته، ثم يحكى عن هجرات المبريين إلى فلسطين ثم إلى مصر. ويتناول "سفر الخروج".. قصة خروج اليهود من مصر بعد ملاحقة فرعون لهم ثم إعلان الشريعة من جبل سيناء.

يحتوى "سفر اللاويين والعدد" على المزيد من أحكام الشريعة، ويواصلان حكاية التجوال فى الصحراء حتى الوصول إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن. ويورد "سفر التثنية" أحكاماً أخرى للشريعة.. باعتبارها آخر ما فرضه موسى قبل موته وأرض اليعاد على مرأى عينيه. وهذه الأسفار الخمسة.. أسفار موسى هي القاعدة الأساسية للمهد القديم ولكل الديانة اليهودية.

وتحكى الأسفار الأخرى عن موضوعات متنوعة فى التاريخ والدين والدنيا.. فيحكى

"سفر يشوع" عن فتح يشوع لكنعان، ومؤرخ "سفر القضاة" لما يسمّى بعصر القضاة الذين كانوا حكاماً محليين على اليهود. ويتحدث "سفر صموئيل" و"سفر الملوك" عن فترة المملكة المتحدة.

وبعد سقوط الملكتين.. يهوذا وإسرائيل.. يحكى "سفر عزرا ونحميا" عن الظروف التى جرت بها القراءة الأولى للشريعة الموسوية. ويتناول سفر "المكابيين" النقطة الأخيرة للاستقلال اليهودى.. وهذان السفران لا يوجدان فى التوراة العبرية.

وأما أسفار الأنبياء.. ففيها معلومات أخرى عن التاريخ العبرى.. وبقية أسفار العهد القديم تميل لفن الأدب والأناشيد وتحتوى على قدر واضح من الحكمة.. إذ أن "سفر مراثى أرميا"، "سفر نشيد الأناشيد"، "سفر الأمثال"، "سفر الحكمة".. كلها أشعار وأناشيد وحكم.. ويعد "سفر المزامير" من أعظم الأسفار الشعرية فى التوراة.

غير أن ما يلفت النظر فى هذه الأسفار.. هو "سفر راعوت".. الذى يعف بوضوح ما يجب على المرأة غير اليهودية أن تفعل إذا ما تزوجت من يهودى.. وفى هذا السفر مقطع خارج يتحدث عن الأساليب والحيل الجنسية التى راودت بها "راعوت".. "بوعز" عن نفسها.. وفى تقرير البعض فإن سفر راعوت بما يتضمن من إثارة وخروج لا يمت للدين بعلة.

• • •

تعرضت التوراة لنقدٍ قاسٍ من قبل عديد من الباحثين، وقد تراوح هذا النقد من إبداء ملاحظات مهمة حول مصداقية وقائع جاءت فى التوراة أو القيمة الحقيقية لبعض الأسفار، إلى النفى الكامل لقدسية التوراة وصدق الديانة اليهودية.

وتأتى خطورة الرؤية الأخيرة من أنها لا تصطدم مع العقيدة اليهودية وحدها.. إذ أن النفى المطلق لليهودية إنما يصطدم تماماً بالسيحية والإسلام على السواء.

فذكر بنى إسرائيل وأنبيائهم تحتل مساحات كبيرة داخل سور القرآن الكريم،

وبالقطع فإن الاحترام والإجلال الذي يحظى به موسى بن عمران نبي اليهودية الأكبر وكذا يوشع وداوود وسليمان ويعقوب ويوسف - عليهم السلام - في القرآن الكريم لا يمكن مقارنته بما يلاقه هؤلاء الأنبياء من ازدراء وإهمال داخل نصوص التوراة.

• • •

إن الصورة التي انتهت إليها جهود "عزرا" وخلفائه في شأن "التوراة النهائية" كانت مشوهة ومعيبة إلى حد جعلها هدفاً سهلاً للنقد والنقض.

ويطول النقد.. فيما يطول - صميم العقيدة اليهودية.. التوحيد والآخرة، كما يطول مجمل التاريخ الديني لليهود.

أول ما يتبدى في هذا المقام هو ما يقوله البروفيسور "إليس ريفكن" في كتابه "صياغة التاريخ اليهودي".. الذي صدر في نيويورك عام 1972م.. يقول: إن اليهود لم يكونوا موحدين منذ نشأتهم، وأن أول كلمة كتبت من قبل مؤسس المذهب الفريسي في اليهودية كانت "في البدء خلق الله السماوات والأرض" وهي في النص العبري "في البدء خلقت الآلهة السماوات والأرض".. بجمع الإله لا بتوحيده.

ويرى بعض أهل العلم أن "يهوه" إله اليهود.. قد جاء بتطور بطيء، إذ أنه كان واحداً من آلهة ثم صار واحداً لا شريك له، وقد يكون نتيجة لهذا التطور، تلك الحرب الشعواء التي يخنها "يهوه" من خلال التوراة على غيره من الآلهة والتي بقيت آثارها عالقة في أذهان اليهود.

ويقرر "جيمس فريزر" في كتابه "الفولكور في العهد القديم" أن الدين اليهودي تكتنفه مظاهر الشرك وعبادة الأوثان، فقد قدس بعض أنبيائهم بعض الأشجار خاصة شجرة البلوط، وكان يعقوب قد رأى في منامه حجراً انتصب فوقه سلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه، فلما استيقظ نصب الحجر وصب الزيت واعتبره مقدساً.

ومن بين قصص عديدة تنطق بالشرك وعدم الإجلال الكامل لله.. تبرز في "سفر

التكوين" قصة صراع يعقوب والرب.. حيث صارع يعقوب الرب حتى طلوع الفجر وهزمه، فقال له الرب: لقد طلع الفجر فأطلقني. فقال له: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب.. فقال الرب: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله وانتصرت!

وطبقاً لويل ديورانت فإن اليهود لم يتخلوا قط عن العبادات الوثنية، وقد بقيت عبادة المجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين لآخر.. وقد صنع يربعام بن سليمان بن داود عجلين من الذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يذهبوا إلى الهيكل. وقد عبد "أهاب" ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد.

وبعد موسى وفي عهد القضاة.. تأثر بنو إسرائيل بمعبودات الكنعانيين.. ويقول "شارلز فوستر كهنت" في "تاريخ العبريين" أن إله الكنعانيين "بعل" أصبح معبوداً لبني إسرائيل في كثير من قراهم.

• • •

ويعود هذا الارتباك المعيق في اليهودية إلى طول القرون التي فصلت بين تورا موسى وكتابة عزرا للتوراة الرسمية، وهي الفترة التي شهدت فترة السبي البابلي التي حملت الكثير من مشاعر النفي وآثار النفي. ففي النفي قدمت نبوءة حزقيال للمرة الأولى فكرة أن السبي إلى بابل ليس سوى أسلوب "يهوه" إله بني إسرائيل لتطهير شعب إسرائيل المخطيء ليكون أهلاً لقيادة الإنسانية على الخريجة اليهودية.

كانت نبوءة حزقيال قد وضعت ما بين عامي 592 و 570 ق. م.. وتمثل هذه النبوءة مشكلة في دراسة التوراة حيث أنها تتجاهل تماماً أسفار موسى الخمسة التي كتبت فيما بعد، كما أنها تتجاهل اسم النبي موسى الاسم الأكبر في الديانة اليهودية.

ويعدّ حزقيال هو الأساس في نشأة المذهب الفريسي المنصرى في اليهودية. والفريسي كلمة آرامية تعنى المنشق، والفريسيون هم المنشقون اليهود الذين أعادوا كتابة

التاريخ على رغبتهم العنصرية التي ترى في اليهود مركز العالم.

وهكذا كانت فترة السبي البابلي بقدر ما حملت من مهانة وعذاب بقدر ما جاء رد الفعل خلالها مغالياً في تقدير الذات، ومتوهماً بغير أساس رسالة كبرى ومبادئ عظمى تحملها الأمة اليهودية بتكليف من الرب إلى كل شعوب الدنيا، ولا يكون ذلك بغير السيطرة والحكم.

وينظر الكثيرون باشمزاز بالغ إلى الإنتاج الديني اليهودي في فترة بابل، ويرونها أساس البؤس اليهودي على مر التاريخ اللاحق. ويحمل كبار رسل المسيحية قدراً عظيماً من الحنق والكراهية لبابل ولقاطنيها الفريسيين اليهود.. يقول يوحنا (رؤيا يوحنا): "بابل العظيمة أم زواني الأرض ورجاستها".." سقطت سقطت بابل العظيمة.. وصارت سكناً للخياطين ولكل روح نجس".

أما بولس الرسول الذي كان حاكماً فريسياً وتبرع للذهاب إلى أورشليم عن طريق دمشق ليسوق تلاميذ يسوع المسيح موثقين إلى هناك.. وأصبح مسيحياً بعد رؤيا رآها في طريقه إلى دمشق فيقول عنهم "بل أعميت بصائرهم.. لأن ذلك البرقع نفسه باقٍ إلى يومنا هذا غير مكشوف عند قراءة التوراة.. حتى إنه إلى اليوم إذا قرىء موسى فالبرقع موضوع على قلوبهم".

! . . .

وهكذا - كما يجزم "فلهاوزن" - فلم يكن التشريع الموسوي نقطة البداية في تاريخ اليهودية، إذ أن نقطة البداية فعلاً تعود إلى عصر السبي البابلي ثم جاء التشريع الموسوي متأخراً عنه.

وهنا تكمن قضية ارتباك النص في التوراة.. حيث لم تكن الفترة البابلية بداية فلسفة سياسية جديدة تنشأ الإستعلاء من قلب الهزيمة. وإنما كانت كذلك عصر ابتكار للنص والنبوءة.. أو بالأحرى فترة خصبة لإعادة إنتاج الدين.

وقد جاءت عملية الإنتاج قلقة وضعيفة.. حتى أن المفاهيم العقيدية الأساسية في اليهودية قد واجهت انتقادات ناسفة على نحو ما سبق الإيضاح.. وطبقاً لبعض المصادر فلم يكن "يهوه" قبل حزقيال سوى إله آخر من آلهة القبيلة السامية مثل (بعل، مردوخ) في بابل، (ملكارت) في صور، (أخو) في آشور، وقد جاء حزقيال في العصر البابلي فأضفى عليه من صفات الألوهية ما لم يكن فيه.

• • •

يرى بعض المؤرخين أن "خناتون" هو أول من قال بالوحدانية الخالصة.

ويذهب "سيد القمني" في كتابه "النبي موسى.. وآخر أيام تل العمارنة"، 1999، إلى أن موسى هو الخناتون.

وهو رأي يتوافق مع بعض التحليلات الغربية وإن ظل يحمل درجة عالية من الجرأة تجعل مصداقيته موضع الكثير من علامات الاستفهام.

ويذكر "أحمد شلبي" أن المعاني التي ذكرها الخناتون في قصيدته عن الشمس قد تكررت في أسفار العهد القديم. ويزيد الباحث "أولف إرمان" في بحث قدمه إلى المجمع العلمي الروسي عام 1924م وعنوانه "مصدر مصري لأمثال سليمان".. بأن حكم سفر الأمثال قد جاءت أساساً على لسان حكيم مصري تم اكتشاف نصائحه التي كتب على ورق البردي في ثلاثين باباً بليفاً.

وأضافة إلى الأثر البابلي والمصري يبرز تشريع حمورابي (1900 ق. م) كمصدر أساسي لأسفار العهد القديم، وتشريع حمورابي هو أقدم تشريع سامي، وبينه وبين التشريعات اليهودية شبه كبير، ومعظم القوانين اليهودية مأخوذة من تشريع حمورابي.

ويُرجع "عباس العقاد" ذلك الارتباك في نصوص التوراة إلى كون التوراة قد دونت بعد السبي البابلي أي بعد سقوط مملكة يهوذا حوالي عام 580 ق. م.. فطال العهد بينها وبين دعوة إبراهيم، فيما طالت هي عصور اختلاط العبادات الإلهية والوثنية. ويزيد من



ارتباك نصوص الدين اليهودى تلك التوراة الشفهية المعروفة بالتلمود. والتلمود هو الروايات الشفهية التى تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل من بعد ظهور المسيح بمائة وخمسين عاماً، وقد بدأ جمعها الحبر "شمعون جمانيل" عام 166م وأتمها يهوذا عام 216م.

• • •

يتألف التلمود من قسمين هما: المشناة والجمارا. والمشناة.. كتاب جمعه "جمائيل" ومعناها الشريعة المكررة.. ولما صارت المشناة صعبة الفهم والإدراك واستعصت على التعليم، قام الحاخامات بشرحها على الحواشي.. أى كان متن الكتاب هو "المشناة" وعلى حواشيه شروح وتفسير، وقد سميت هذه الشروح التى فى الحواشي "جمارا".

ويضم المشناة.. جانباً من أفكار وآراء حاخامات فلسطين وبابل، ويسمى الجزء الذى يتضمن آراء حاخامات فلسطين بتلمود أورشاليم، ويسمى الآخر تلمود بابل.

ويقول الحاخامات.. إن الله قد أعطى الشريعة لموسى على طور سيناء، وأرسل على يده التلمود شفاهة.. ويضع اليهود التلمود فى منزلة التوراة. وقد ظهرت ترجمات عديدة للتلمود فى لغات مختلفة ولكنها جميعاً غير مكتملة، وقد ظهرت ترجمة البروفيسور "ايزيدور ابشتاين" بالإنجليزية بين عامى (1935 و 1952) فى (35) مجلداً، ويقال أن نص التلمود الأسمى الكامل مطبوع فى البندقية بين عامى (1520 و 1523) ولا توجد منه الآن سوى ثلاث نسخ.

وقد حاولت إسرائيل إعادة طبع النسخة العبرية الأصلية من التلمود وأحالت ذلك إلى الحاخام "آدين شتاينز التز" ليخرجه فى (35) جزءاً.

• • •

فى التلمود زاد النص اليهودى ارتباكاً.. وتغيرت أصول العقيدة اليهودية الأولى.. فإنه - عزّ وجلّ - غير معصوم من الخطأ. ومما جاء فى التلمود: (الله لا سُغل له بالليل غير تعلم التلمود مع الملائكة).. (الله يبكى وينوح كل يوم على خطاه فى حق اليهود ومن دموعه

تحدث الزلازل).. (كتب بفرض الإصلاح بين إبراهيم وزوجه سارة).. (إن يسوع الناصري - المسيح - موجود في لجات الجحيم بين القار والنار، وقد أتت به أمه من المعكرو باندا عن طريق الخطيئة).. (الكنائس النصرانية قانورات والواعظون فهما كلاب نابحة).. (الإسرائيلي أفضل من الملائكة.. ومن ليس يهودياً فهو كافر).. وما يذكره التلمود باسم الرب (تباً لي لأنني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي).

وهكذا وصل النص اليهودي إلى أقصى درجات الشطط والفوضى.. ما دفع عدداً من اليهود الى البحث عن هدف وطريق لا يؤمن بما جاء في التلمود حتى يعضوا أنفسهم من ويلات الدفاع عن هذه النصوص التمهالكة. واجتمع بعض هؤلاء في منهد الصدقيون لوصادوقيين الذي تأسس عام 168 ق. م.. وهم ينتسبون إلى صادق الكاهن الأعظم في عهد سليمان.

وهم ينكرون البعث والآخرة، والجنة والنار، فينكرون الخلود والملائكة والخياطين ويؤمنون بحرية الاختيار لا القضاء والقدر وينكرون للمسيح المنتظر، ويرون أن الحساب يكون في الدنيا، وينكرون التلمود ويعتقدون في أن التوراة غير مقدسة تقديماً مطلقاً.. وأن الزيادة في الاعتقاد بدعة.

• • •

في مواجهة الصادوقيين نشأ منهد من اليهود الأرثوذكس (المحافظون) باسم "الفريسيين" .. ومعناها المنشقين والمتمزلين.. ويسمون أنفسهم بالأخبار والربانيين.

ويعتقد الفريسيون بأن الأسفار الخمسة قد خلقت منذ الأزل ثم أوحى بها إلى موسى.. ويعتقدون في البعث وقيامة السموات والملائكة واليوم الآخر.. يؤمنون بالتلمود ويكون الحاخامات معصومين وأقوالهم كالشريعة.. يقولون بالقضاء والقدر.. ومعظم الفريسيين ناسكون وزاهدون ومحافظون.. وقد عارضوا الأنبياء الذين ظهروا في الأسر البابلي وبعده وتمسكوا بشريعة الأنبياء الأولين.. وعندما جاء المسيح عارضوه وقاوموا

دعوته وقالوا ببطلانها.

على أن مذهباً ثالثاً قد نشأ بزعامة "عنان بن داود" داعماً لمذهب الصادوقيين ومخالفاً لمذهب الفريسيين في شأن الإيمان بالتلمود.. ففي القرن الثامن الميلادي قامت في بغداد فرقة سميت "القرائية".. نسبة إلى قراءة التوراة وليس سماعها فقط كما هو في التوراة الشفهية.

ويرفض القراءون التمسك بالتلمود الذي يعتبرونه دخيلاً على الدين.. على أن هذه الفرقة قد حُوربت في وقتها حتى أبيدت.. ولكن بعضهم قد عاد لهما بعد.. ويمثلهم حالياً "المجلس اليهودي الأمريكي American Council for Judaism". ويمتدح اليهود الأرثوذكس هذا المجلس بمعاداة السامية.

وإلى جانب الصادوقيين والفريسيين والقرايين ظهرت فرقة "الكتبة".. وهي مجموعة كانت مهمتها كتابة الشريعة.. فهم أشبه بالفنّان.. ثم عرفوا بعض المعلومات من الكتب التي نسخوها.. فاتخذوا الوعظ وكتابة الشريعة وسيلتهم للعمل.. وكانوا يسمون بالحكماء.. ولأنهم غير موهوبين ولا مؤهلين إنما هم نساخ امتهنوا حرفة الدعوة.. فقد زابوا الأسور القباساً وتعقيداً.

• • •

النتيجة الخاتمة لهذا الحصاد.. هي أننا إزاء نصوص دينية قلقة ومرتبكة.. الأمر الذي جعلها جديرة بنشأة علم خاص بها هو "علم نقد التوراة" على نحو ما ذكرنا. فالتوراة التي كانت في زمن موسى تم تدوينها في زمن عزرا.. والنص التكميلي للتوراة أي التلمود جاء بعد ذلك بفترة طويلة.. وبحساب المنين فقد كان نزول التوراة سابقاً لتدوينها بأربعة قرون وكان تدوين التوراة سابقاً لوضع التوراة الشفهية (التلمود) بستة قرون.. وهكذا يفصل زمن نزول التوراة المكتوبة عن كتابة التوراة الشفهية نحو ألف عام.. وهو تاريخ شاسع ويعيد لا مثيل له في كافة أحيان العالم.

• • •

وطيلة مسيرة الألف عام تحركت النصوص، وتأرجح مفهوم الألوهية من تعدد الآلهة إلى الله الواحد.. ولكن الله الواحد لم يعد كاملاً ومنزهاً ومجيداً في التوراة الشفهية التي نسبت إليه الندم والخطأ والكذب.. والبكاء والنواح والوساطة بين الأزواج.

ومع تأرجح مفهوم الألوهية اختلفت مفاهيم الدنيا والآخرة.. والجنة والنار والحساب.. ولا يوجد في التوراة نص واحد يتحدث عن جهنم في الآخرة للكافرين والمعاصين.

وهكذا.. ثلاثة نصوص في عشرة قرون.. تسعة وثلاثون سفرأ.. وخمسة وثلاثون جزءاً.. تجاوزت فيها النصوص اليهودية تعاليم العقيدة والمعاملات إلي وصف التاريخ والمغامرات.. فاختلفت الأسطورة بالنبوءة وغطت الدراما على رسالات الأنبياء وحقائق الأشياء.

أجناس متحركة..  
مشكلة السامية

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

لم يعد بالإمكان إدارة مناظرة أو الدخول في جدل هام حول الأصول التاريخية للشرق الأوسط المعاصرون الخوض في مسألة "السامية"، وقد جرت العادة أن تكون مناسبة هذا الخوض نقد ما يوجهه العرب إلى إسرائيل ورد مقابل وناثم بأن وراء النقد معاداة للسامية.

ومن وقائع الجدل.. ظهرت مفردات: الجنس السامي، الحضارة السامية، التاريخ السامي، التفوق السامي. وعلى استحياء وبطريقة فاترة كان بعض المثقفين العرب يردون على اتهامات معاداة السامية بأنهم ساميون أيضاً.. وأن العرب واليهود ينحدرون من جنس واحد فكيف يعادى العرب أنفسهم؟

• • •

السامية لغة قديمة كانت تتحدث بها شعوب وقبائل عديدة في ثلاث مناطق رئيسية هي: الجزيرة العربية والعراق والشام.. ومن ثم فإن السامية هي لغة وليمت جنساً أو عنصراً.

ويجزم الأمريكي "مارتن برنال" في كتابه "أثينا السوداء" الذي صدر في نيوجرسي عام 1987م بأن مصطلح "السامية" مجرد مصطلح لغوي أكثر منه قومي أو سلال، إذ أنه يطلق على الشعوب التي كانت تتكلم اللغات السامية، وهذه اللغات تتسم بسمات مشتركة في الأصوات والمفردات والنحو والصرف، وتتشرك معها في بعض هذه الصفات اللغة العربية الفصحى.

ويسبق "سبتينو موسكاني" في كتابه المتميز "الحضارات السامية القديمة"، الذي ظهرت في روما أولى طبعاته عام 1949م، بالقول بأنه ليس هناك قطعاً شيء اسمه الجنس السامي، وأن نظرية "الجنس السامي" باعتباره جنساً متميزاً يشمل الشعوب التي تتكلم السامية.. هي نظرية دعائية خاطئة ولا تنتمي إلى العلم الجاد.

• • •

استعمل الأوروبيون قرب نهاية القرن الثامن عشر لفظ الساميين اسماً مشتركاً لتلك المجموعة من الشعوب نظراً لقرباتها الشديدة في لغاتها لا لوحدتها العرقية.

وقد سُمى الساميون بهذا الاسم نسبة إلى سام بن نوح الذي ورد ذكره في الإصحاح العاشر من "سفر التكوين" في التوراة، وهو إصحاح يسجل الصلات بين الشعوب المختلفة في صورة سلاسل أنساب تنحدر من نسل نوح. وكان سام قد أنجب من الأبناء آرام وآشور وعبر.. ومنهم: الآراميون والآشوريون والعبريون.

وتعود نشأة الساميين إلى الصحراء بالأساس.. وأساس وجودهم في الأغلب هو صحراء شبه الجزيرة العربية.. ويرى آخرون أنها سوريا أو العراق أو أفريقيا.

• • •

نشأت اللغة السامية الأم في الجزيرة العربية ثم انتقلت مع الهجرات إلى المناطق الخصبة المحيطة بها كالعراق والشام، وأصبح المهاجرون يحملون أسماء المدن أو المناطق التي استقروا فيها أو التي اتخذوها عاصمة لهم كالأكاديين والبابليين في العراق والكنعانيين في الشام.

وقد إنحدرت من اللغة السامية الأم لغات متعددة آخرها العربية الفصحى.. التي أخذت تتضح ملامحها في النقوش النبطية في الحجاز قبل الإسلام بثلاثة قرون ونصف.

ويذكر "أحمد عثمان" في مقدمته العربية لكتاب "برنال".. أن اللغة السامية الأم قد انحدرت منها ثلاثة فروع.. الفرع الأول يمثل السامية الشمالية الشرقية ويشمل اللغات الأكادية والبابلية الآشورية.. والثاني يمثل السامية الجنوبية ويشمل العربية في الحجاز والعربية في اليمن ومن عربية الحجاز جاءت العربية الفصحى.. والفرع الثالث يمثل السامية الشمالية الغربية ويشمل الكنعانية والآرامية.. ومن الكنعانية جاءت اللغتان العبرية والفينيقية، ومن الآرامية جاءت اللغتان السريانية والنبطية.. وعلى ذلك فقد جاءت العبرية من اللغة الكنعانية.

• • •



ومن اللافت للنظر هنا أن التوراة لم تذكر العبرية كلغة لبنى إسرائيل، وبرغم أن أقدم كتابة للتوراة كانت باللغة العبرية وذلك قبل الميلاد بعشرة قرون فإن التوراة في سفر شعيب" تسمى لغة بني إسرائيل باسم "لغة كنعان" .. وهي بالعبرية "سفت كنعنى". وفي سفر "أخبار الأيام الثاني" الذى أخذ شكله الحالى فى القرن الرابع قبل الميلاد.. تصف التوراة لغة بني إسرائيل بأنها "يهوديت" أى يهودية.. نسبة إلى قبائل يهوذا. وهناك مقاطع من العهد القديم فى أسفار "دانيال وعزرا وأرميا والتكوين" .. مدونة بالآرامية.

ويحدّد "زياد منى" فى "جغرافية التوراة" تاريخ اختفاء اللغة العبرية التام فى القرن الثالث قبل الميلاد حيث حلّت محلها اللغة اليونانية إلى جانب الآرامية، وبعد الفتح الإسلامى للشام تثبتت اللغة العربية الفصحى، على أن العبرية قد تم احياؤها بعد ستة عشر قرناً وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى.. العصر الذهبى للإسلام، وما أن وصل الإحياء إلى ذروته حتى اندثرت العبرية واختفت تماماً من الوجود إلى أن عادت من جديد مع الحقبة الصهيونية.

• • •

وصلت العبرية إلى أقصى درجات قوتها فى النصف الثانى من القرن العشرين بعد قيام إسرائيل. وبرغم محاولات التطوير فى اللغة العبرية المعاصرة فلازال من الصعب التعرف على معانى المفردات العبرية بون الاستعانة بلغات سامية.. ومنها العربية.. ولا توجد أية قواميس عبرية خالصة، بل كلها معاجم مقارنة تستعين بالثروة اللغوية للغات القريبة.

• • •

على الرغم من بؤس اللغة العبرية وفقرها التاريخى، وعلى الرغم من أن العبرية قد تطورت من داخل اللغة الكنعانية وظلت مبتسرة وهزيلة منذ ميلادها إلى الآن.. فقد فاجأ "مارتن برنال" الدوائر اللغوية بما ذهب إليه فى "أثينا السوداء" من أن الفينيقية هى العبرية.

يستند برنال فى زعمه الخاطيء إلى قول "فريدريش" عام 1951م عن العلاقة بين

الفينيقية والعبرية بأنها "شبيهة بالعلاقة بين الهولندية والجرمانية العليا"، وكذلك قول "مناحم شتيرن" عام 1974م: "لا يوجد فارق من الناحية العملية بين اللغتين العبرية والفينيقية"، ثم إلى رأى "جسينيوس" فى تصنيفه للغة الفينيقية على أنها مطابقة للغة العبرية أكثر منها مطابقة للغة البربر.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه القدمات الخاطئة هو ذلك الاستدلال المضلل الذى انتهى إليه برنال من أن الفينيقيين هم يهود العالم القديم، وأن معاداة السامية فى الأوساط العلمية والثقافية قد امتدت إلى معاداة الفينيقية.. وهكذا طبقاً لبرنال فالعبرية هى الفينيقية واليهود هم الفينيقيون والحضارة الفينيقية هى حضارة اليهود.

• • •

لقد أكمل برنال نظريته الغريبة فى فصول كبرى ببحثه الضخم.. واصلاً إلى القول بأن الحضارة الإنسانية المعاصرة تعود إلى الحضارة اليونانية، وأن الحضارة اليونانية هى بالأساس حضارة مصرية فأثينا وإسبرطة مدن مصرية.

ومؤسس أثينا "كيكرولبس" من أصل مصرى هو سنوسرت، وكلمة أثينا من أصل مصرية هو Athanak، ومدينة طيبة اليونانية (مدينة أوديب) كانت هى الأخرى مستعمرة مصرية فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد، والكثير من الأعلام الإغريقية من مدن وقرى وجبال ووديان وأنهار هى أسماء مصرية قديمة.

ثم يقول برنال.. إن الحضارة اليونانية إذن هى حضارة مصرية، ولكن الحضارة المصرية بدورها ليست حضارة أصيلة وإنما جاءت من التأثير الكبير للتراث الكنعانى العبرى عليها.. وهكذا فإن التأثير العبرى على الحضارتين المصرية والهيلينية، قاعدتا الحضارة والتاريخ الإنسانى، كان حاسماً وبالغ الأثر.

وقد شهدت السينما الأمريكية الحديثة تجاوباً متواتراً مع هذا القول الساذج.. بمركزية التأثير العبرى فى التاريخ البشرى.. وإلى جانب السينما حفلت فنون الإعلام

والثقافة المختلفة ترديداً واسعاً لهذه المقولات الهائمة.

• • •

الصافي أن السامية ليست عنصراً أو جنساً من الأجناس ولكنها لغة كبرى من بين اللغات، ثم انفرطت اللغة السامية الأم إلى لغات أخرى من بينها الكنعانية التي أفرزت اللغة العبرية التي لا تزال غير مكتملة البنيان حتى الآن.. وعلى ذلك فالعبرية تقع في موقع الحفيد الضعيف للغة السامية، ولا أساس علمي للقول بأن اليهود يمثلون جنساً سامياً.

وهكذا فإن اليهود القدامى لا ينتمون لعرق سامي على نحو ما يذهب البعض على أن الجنس السامي اليهودي هو حقيقة لا جدال فيها. وإذا كان هذا هو حال اليهود القدامى الذين لا صلة لهم بالسامية غير لغة مأخوذة عن لغة مأخوذة عن اللغة السامية الأم، فإن اليهود المعاصرين يصل بهم البعد إلى أقصاه.. حتى ليؤكد كثير من الباحثين أنهم لا صلة لهم باليهود الأوائل أنفسهم.

وفي كتابهم المهم "نحن الأوروبيون" يذهب المؤلفون "هكسلي وهابون وكارسوندرز" إلى أن اليهود المعاصرين لا يمكن أن يصنفوا كأمة ولا حتى كوحدة عرقية.. بل هم مجموعة دينية اجتماعية تحمل قدراً كبيراً من عنصر البحر المتوسط والأرمن وغيرهما، وتتفاوت تفاوتاً عظيماً في الصفات الجسمية.

وإن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين في الأغلب الأعم فإنهم بالتأكيد يبدون من الصفات "الأرمينية" أكثر مما يبدون من الصفات "السامية"، وأن النمط الجنسي الذي يميز طائفة السامريين نادر بينهم.. فقد ناب اليهود في العالم.

وطوال التاريخ اليهودي هناك حقيقتين أساسيتين: أعداد ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، أعداد ضخمة من اليهود تخرج من اليهودية.. والخلاصة أن جسم الطائفة ليس ثابتاً عرقياً بل هو متحرك.. وفي آخر المطاف فإن اليهود الحاليين يختلفون انثروبولوجياً عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة بينهم من الأساس.

ونفس المعنى نجده عند "توماس كيرنان" فى كتابه "العرب" الذى صدر فى بوسطن عام 1957م.. يقول: "اليهود الصهاينة أوروبيون تماماً، وليست هناك أية رابطة بيولوجية أو انثروبولوجية بين يهود أوروبا والقبائل العبرية القديمة".

• • •

يقرر "جمال حمدان" فى كتابه "اليهود انثروبولوجياً" أن اليهود ليسوا من الساميين فى شيء، وأن اضطهاد اليهود لم يكن.. "ضد السامية" وإنما "ضد اليهودية"، والاضطهاد النازى لليهود كان اضطهاد ألمان لألمان.

ويشرح حمدان نظريته فيقول: يُجمع علماء الانثروبولوجيا على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفتهم التى نعرف اليوم من سرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول فى الرأس.

وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين وتمثلوا كثيراً من دماثهم، ولكن هذه الجماعات نفسها لم تكن تخرج عن نفس السلالة الجنسية المتوسطية، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الأساسى لليهود.. والقليل من الجماعات التى عثر عليها فى فلسطين وخارجها مما يعود إلى عصر النبى سليمان وبعده تشير إلى سلالة البحر المتوسط

وهكذا.. فلا يوجد فى العالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات، ولهذا السبب ليس صحيحاً أن اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين يمثلون تمثيلاً صادقاً يهود فلسطين أيام المسيح.

وعلى مستوى العالم فإن أشكال اليهود تحوى من المتناقضات ما يجعلها تغطى كل الأجناس.. فهناك اليهود السود فى الحبشة، واليهود الشقر فى أوروبا، والملونون فى الهند، بل واليهود الصفر فى تركستان.

وفى أوروبا القرن التاسع عشر كان هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود.. البيض

والسمر والسود.. هناك غليظ الملامح من الأشكيناز ودقيق الملامح من السفارديم. ويبدو اليهود بينهم تفاوتاً كبيراً في فئات الدم.. وأكثر من ذلك لا تبدو تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين مما يؤكد انفصالهم جنسياً عن الأصل القديم.

واليهود السامريون هم المجموعة الوحيدة التى ظلت فى فلسطين طوال التاريخ حتى يومنا هذا فى عزلة كاملة وتزواج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها.. وهم عدد محدود للغاية ويوجدون فى قرى نابلس. ومن ذلك يصل جمال حمدان إلى أنه إذا كان العرب ويهود التوراة هم أبناء عمومة من إخوة غير أشقاء، فإنه لا قرابة للعرب باليهود المعاصرين.

• • •

يصل "ماكسيم رودنسون" فى كتابه "الشعب اليهودى أو المشكلة اليهودية" إلى نتيجة مباحة.. فمن المرجح جداً - طبقاً لرودنسون - أن يكون عرب فلسطين وهم فى أغلبيتهم مستعربون قوم تجرى فى عروقهم دماء من قدماء العبريين أكثر مما تجرى فى عروق يهود الشتات الذين يكفى إلقاء نظرة عليهم فى أى اجتماع يهودى مختلف الجنسيات لنرى إلى أى حد تختلف أجناس اليهود.

وقول رودنسون يعيد إلى الأذهان ما اقترحه "الفريد ليلينثال" فى كتابه "الوجه الآخر من العملة" الذى ينقل عنه حمدان اقتراحه.. بعودة الصهاينة الإسرائيليين الذين هم من أصل أوروبى إلى أوروبا، ويبقى الإسرائيليون من أصل شرقى فى فلسطين.. وذلك مع عودة عرب فلسطين إليها ليعيشوا معاً فى بولة واحدة جديدة، تكون نواة لوحدة سامية كبرى بين شعوب المنطقة.

وفكرة الدولة السامية قال بها الملك عبدالله فى الأربعينات ثم دعا إليها يورى أفنيرى، ثم عزمى بشارة وآخرون بأسماء مختلفة.. على أن هذه قصة أخرى.

• • •

غاية القول هنا.. أنه برغم قول الكثيرين بأن السامية تمثل جنساً وأن العبرانيين

بذلك قوم ساميون، فإننا نميل إلى القول بأن السامية ليست جنساً وإنما هي لغة تفرعت منها لغات سامية، ثم بدأ بفعل الزمان والأحداث أن السامية جنس واللغات السامية أجناس من جنس. والأصوب أنها قوميات تقوم على وحدة اللغة وتشابهات أخرى أكثر مما تقوم على وحدة الدم والأصل.

وفى كل الأحوال وأياً كانت إجابتنا على سؤال.. هل السامية جنس أم لا؟.. فإن الثابت على وجه اليقين.. أن اليهود المعاصرين ليسوا ورثة شرعيين ليهود عصر التوراة، فقد تغير الجسد اليهودي وتبدلت خلاياه بشكل كامل، ولم يعد بالإمكان القول بأن سكان إسرائيل من اليهود هم عبرانيون من زمن موسى أو سليمان بن داود..

وينفس القدر يمكن القول - مع رودنسون - بأنه إنا بقيت صلة دم بين قوم معاصرين وبين يهود عصر التوراة فربما كان ذلك من نصيب جماعات من الفلسطينيين العرب المعاصرين الذين هم مستعربون.. أى غير عرب تحولوا إلى العربية.. مما ينفى أى حق تاريخى لليهود المعاصرين فى فلسطين ويعطى الحق الكامل للعرب الفلسطينيين.. ليس فقط لأنهم ورثة الكنعانيين فحسب ولكن لأنهم أقرب إلى وراثته العبرانيين أنفسهم.

وهكذا كانت حياة اليهود فيما قبل إسرائيل.. حياة مرتبكة.. كان الارتباك يحيط بكل شىء.. التاريخ والتوراة والذات.. وبدأت عصور بنى إسرائيل وكأنها حركة فى وضع الثبات.. أقدام تملو وتهبط ولا خطوة للأمام.. ولم يكن ممكناً السير إلى أهدد بغير تنظيم الحركة وضبط الخطى.. كثيرون حاولوا ولكنهم فشلوا.. وكان أبرز الفاشلين موسى ابن ميمون.

موسى ابن ميمون..

ضبط الحركة

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



لم يكن "موسى ابن ميمون" هو أول فيلسوف يهودى ولكنه أكبر فيلسوف يهودى على مر العصور، ويلقبه البعض بموسى الثاني.. بعد موسى - عليه السلام - نظراً لعلمه وفقهه.

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الفلاسفة اليهود، فإن الكثيرين لا يسلّمون بوجود فلسفة يهودية، ذلك لأن أعمالهم تمثل اجتهاداً داخل فلسفات أكبر وأعظم، ولكنهم لا يشكلون بقاءً فلسفياً واحداً ولا نسيجاً فكرياً متميزاً.. بل هي إضافات أو شذرات متعددة المسارات.

ويجزم "يوسف زيدان" بأن الفلاسفة اليهود ثلاثة: فيلون وابن ميمون وابن كمونة، وهم ثلاثتهم لا يشكلون فلسفة يهودية، فقد كان "فيلون" فيلسوفاً يونانياً، وكان ابن ميمون وابن كمونة فلاسفة مسلمين، يمثل ما أن اسبينوزا وكارل ماركس وبرجمون فلاسفة غربيين..

ويرى "عبد الوهاب المسيري" أن موسى ابن ميمون أعظم فيلسوف يهودى لم يكن إلا تلميذاً لابن طفيل وابن رشد، وأن كتابه الأشهر "دلالة الحائرين" هو كتاب بالعربية وإن كان بالقلم العبرى، وقد حاول ابنه من بعده إضفاء الطابع الإسلامى على اليهودية.

ويذهب "حسن حنفي" إلى أن اليهودية لم تعرف علم كلام أو فلسفة أو فقهاً إلا بفضل نماذج هذه العلوم فى الحضارة الإسلامية، فسعيد بن يوسف الفيومى مثل الفارابى، وبهيا بن باقود مثل مسكويه، ويهود هاليفى مثل الغزالي، وموسى ابن ميمون مثل ابن رشد.

وقد جاء ابن ميمون بعد فراغ شاسع يصل إلى "فيلون" قبل اثنا عشر قرناً، ثم لحقه فراغ طويل دام قرناً أخرى.

ويعد "فيلون" أول فيلسوف يهودى معروف، وقد ولد عام 40 قبل الميلاد وتوفى عام 40 ميلادية، وعاش بالإسكندرية.

قامت أعمال "فيلون" على تأويل نصوص التوراة لتوافق العقل، اعتماداً على فلسفة

أفلاطون المعدلة أو ما تسمى بالأفلاطونية الجديدة.

ويذكر "ول ديورانت" في "قصة الحضارة" أنه أحسُّ بالحاجة إلى التوفيق بين العقائد اليهودية والفلسفة اليونانية، وتذكر الكتب في مآثره أنه شكى إلى الإمبراطور الروماني "كاليجولا" سوء معاملة الحاكم الروماني في مصر لليهود.

وقد ظل عطاء المفكرين اليهود محدوداً إلى أن جاء موسى ابن ميمون في القرن الثاني

عشر.

• • •

ولد أبو عمران موسى ابن ميمون في قرطبة بالأندلس عام 1130م، وتوفي في القاهرة عام 1204م، ولأنه ولد وتعلم في الأندلس يقال في تعريفه أحياناً "موسى القرطبي"، وحين تعرض أستاذه ابن رشد لمحنة نفسية وحرقت كتبه، سارع ابن ميمون بالهجرة من قرطبة إلى القاهرة.

ويذكر "عبد الرحمن بدوي" أنه أقام في القاهرة (37) عاماً، كان في بعضها طبيباً في البلاط الأيوبي، وله في الطب كتب معروفة مثل كتاب "الفصول"، وقد عُرف بفصول موسى، وترجم إلى اللاتينية وطبع بها وله كتاب مطبوع بعنوان "شرح أسماء العقار"، وله كذلك "المقالة في تنبير صحة الأفضية" و"مقال في بيان الأعراض"، و"رسالة في البواسير" و"مقالة في الربو".

وقد حظى ابن ميمون باهتمام كبير من الباحثين والدارسين، ومن بين الأدبيات الكبرى التي كتبت عنه كتاب "موسى ابن ميمون.. حياته ومصنفاته" لولفنسون، وقد صدر بالعربية عام 1936م، وكتاب "موسى ابن ميمون" لأولفرليمان، و"تفسير ابن ميمون" لمارفين فوكس، و"وجهات نظر في ابن ميمون" من تحرير جويل كريمر.

وفي رأي "برنار لازار" في كتابه الشهير "الاسامية.. تاريخها وأسبابها" الذي صدر عام 1886م رداً على كتاب "فرنسا اليهودية" لدرومون عام 1849م فإن موسى ابن

ميمون هو أعظم فلاسفة اليهود على مر العصور، ولكن اليهود قاوموه أشد مقاومة، وهاجموا كتابه - دلالة الحائرين - وتم منعه من التداول كما أحرقوه في كل مكان.

• • •

وضع موسى ابن ميمون وهو في الأندلس ما يعرف بقانون الهالاشاه.. وهو قانون يحظر على اليهودى دخول الجبل المقدس في فلسطين إلى أن يأتي المسيح.

ويرى ابن ميمون أن الهيكل الثالث لن تبنيه أيد بشرية وأنه سينزل كاملاً من السماء وهو ما يخالف تماماً ما جاءت به الصهيونية فيما بعد.

وعلى أى حال.. فلم تكن قضية الهيكل والعبوة هى أساس عمل الفلاسفة اليهود فى التاريخ بل كان للشروع الرئيسى لابن ميمون ولغيره هو حلّ معضلة الدين، والتوفيق بين النص والعقل، وقد قطع ابن ميمون شوطاً طويلاً فى إعادة التفكير فى العقيدة والشرية وأمكنه بسهولة شديدة أن يهاجم الدين الإسلامى ويصف اليهودية بأنها دين أعلى من الإسلام، دون أن يجد اضطهاداً من المجتمع أو السلطة الإسلامية، التى رند أفكاره هذه فى كنفها.

وقد توزعت اجتهادات موسى ابن ميمون بين علم المقيدة وعلم التفسير وعلوم الشريعة.

• • •

فى شأن العقيدة يؤمن ابن ميمون بحدوث الكون، فالزمان والحركة حادثان على خلاف ما يرى أرسطو.. حيث يقول أرسطو بأن الزمان لا يمكن أن يكون قد حدث بعد إن لم يكن، لأن هذا الحادث نفسه لابد أن يقع فى زمان ما، ولذا فإن الزمان مستديم، والحركة مستمرة.. لأن الحركة أيضاً تفترض أن تكون هناك حركة سبقتها.

وعلى خلاف أرسطو.. يرى ابن ميمون أن الزمان تابع للحركة، والحركة مخلوق.. فالزمان والحركة مخلوقين محدثين وليسا قديمين سرمديين، فالسرمدية ليست صفة الزمان والحركة بل صفة الله تعالى وحده.

وكل من يقول أين الله قبل خلق الزمان؟ ثم يجيب بأن الله كان قبل أن يخلق العالم، فقوله غير منضبط، لأن كلمة "كان" تدل على زمان، والزمان مخلوق والسؤال على ذلك مرفوض.. فلا حركة ولا زمان قبل خلق الكون..

ويعتقد ابن ميمون من يعتقد بأن الله وجوداً مادياً يشبه وجود مخلوقاته، كما يعتقد كثير من اليهود. مثلاً وراء ظاهر التوراة، حيث آمنوا بأن الله جسداً وبدأً وعيناً وغيرها من الجوارح، وأن الله صنع العالم كما يصنع الصانع البشري مصنوعاته، فإله لا يجوز فيه التجسيم بحال. ولكن الناس في معرفتهم بالله درجات.

يقول ابن ميمون: "الناس ليسوا متساوين في قدرتهم على الرؤية.. الذي لم يحقل الله كمن هو في ظلام ولا رأى ضوءاً قط، والذي أدركه وهو مقبل عليه كمن هو في ضوء الشمس الصافي، والذي قد أدرك وهو مشتغل فمثاله في حال اشتغاله كمن هو في يوم غيم لا تشرق فيه الشمس من أجل السحاب الفاصل بينها وبينه".

ويقول في درجات العارفين: "تارة يلوح لنا الحق حتى نظفنه نهارة، ثم تخفيه المواد والعوائق حتى نعود في ليل مبهم قريب مما كنا أولاً، فنكون كمن يبرق عليه البرق مرة واحدة، وهو في ليلة شديدة الظلام، فمنا من يبرق له المرة بعد المرة كأنه في ضوء دائم لا يبرح فيصير الليل عنده كالنهار، وهذه درجة الأنبياء.

ومنهم من برق له مرة واحدة في ليلة كلها وهي درجة من قيل فيهم "تنبأ إلا أنهم لم يستمرو"، ومنهم من يكون بين البرق والبرق فترات.. يلوح ويختفي كأنه "برق سيف متقلب".. وبحسب هذه الأحوال تختلف درجات العارفين".

• • •

واتساقاً مع مراتب المعرفة ودرجات العارفين يرى ابن ميمون ضرورة التدرج في العلم الإلهي.. وله في ذلك نص بليغ.. يقول ابن ميمون: "أعلم أن الإبتداء بالعلم الإلهي "مضر" جداً، بل ينبغي أن يعطى المقصرون على قدر إدراكهم أما متى ابتدأ بهذا العلم

الإلهي، فليس يحدث تشويش فقط في الاعتقادات، بل تعطيل محض، وما مثال ذلك عندي إلا مثل من يغذى الصبي الرضيع بخبز الحنطة واللحم وشرب الخمر، فإنه يقتله بلا شك، ليس لأن هذه أغذية سوء وغير طبيعية للإنسان، بل لضعف التناول لها عن هضمها حتى يحصل الاستنفاع بها.. كذلك هذه الآراء الصحيحة ما أخفيت من أجل كونها في باطنها سوء.. بل أخفيت لقصور العقول في الإبتداء عن قبولها".

• • •

ويتهدى هنا المشروع الفلسفي لوسى ابن ميمون، في اجتهاده المركزي للتوفيق بين العقل والنقل.. العقل الذي لا يناقض النقل في المعرفة الحقة. ويذكر ابن ميمون في حديثه عن "يوسف بن عتнин" وهو تلميذ ابن ميمون الذي كتب من أجله كتاب "دلالة الحائرين".. "لقد جذب العقل الإنساني وقاده ليحل محله، وعاقته ظواهر الشريعة فبقى لي حيرة ودهشة.. إما ينقاد مع عقله وي طرح ما علمه من تلك الأسماء، أو يبقى مع فهمه منها ولا ينجذب مع عقله.. فلا يزال في ألم قلب وحيرة شديدة".

وقد مضى ابن ميمون في أعماله فيلسوفاً ومفسراً وفقياً على هدف واحد: توفيق التوراة مع العقل والمنطق. وهو إلى جانب ذلك بذل جهداً كبيراً في ضبط الشريعة اليهودية وفي أحكام قواعد التوراة الشفهية.

• • •

وابن ميمون هو صاحب الكتاب الديني الشهير "شرح المشناة" والمشناة هي نصف التلمود ونصفه الثاني يسمى "جمارا". و"الجمارا" بدورها جزئين: جمارا أورشاليم، وجمارا بابل. ومن ثم فهناك تلمودين: تلمود أورشاليم ويتكون من المشناة وجمارا أورشاليم. وتلمود بابل ويتكون من المشناة وجمارا بابل، وكلاهما يطبع على حده. ويصل تلمود أورشاليم المكتوب بالعبرية إلى ثلاثة أرباع مليون كلمة.

وكلمة "مشناة" كلمة عبرية معناها بالعربية "المعرفة" والجمارا كتاب شارح ومفسر

للمشناة، ولذا فإن المشناة هي النص والجمارا هي الشرح، ويقول رجال الدين اليهود.. أن المشناة قد تناقلها عن موسى - عليه السلام - أربعون شخصاً.. جيلاً بعد جيل حتى جاء "يهونا هاناس" فجمعها عام 200 ميلادية.

ومن بعد "يهونا هاناس" لم يقدم أحد شرحاً مشهوراً للمشناة بمثل ما فعل موسى ابن ميمون.. يقول ابن ميمون في مقدمة كتابه "شرح المشناة": "منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس (يهونا هاناس) لم يتفق أحد من علماء اليهود على أية عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية باسم القانون الشفهي، وهكذا تقدم الزمن حتى أتى حاخامنا المقدس الذي جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنة والأحكام وشرح القانون الروى عن معلمنا موسى.. الأمور به في كل جيل".

وقد أجمل موسى ابن ميمون عدد الأوامر والنواهي الشرعية التي حددها الفكر الحاخامي عبر العصور ب (613) فرضاً شرعياً أساسياً.. وهي من السلمات لدى أغلب يهود إسرائيل حالياً.

وقد توفي ابن ميمون عام 1204م، ويعتقد البعض بوجود قبره في طبرية ويزورونه إلى اليوم.

• • •

من الواضح من أعمال أكبر الفلاسفة اليهود على مر العصور.. موسى ابن ميمون، أنه لم يخرج في الكثير من آرائه الفلسفية حول الزمان والحركة والقدم والحدوث، وفي أفكاره من تدرج المعرفة ودرجات العارفين.. عن ذلك الجدل داخل الفلسفة الإسلامية، وعن تلك الآراء التي قال بها المتكلمة والتصوفة كل من طريق.

وهو ما يجعله في نظر الكثيرين ليس إلا واحداً من الفلاسفة المسلمين وإن كان يهودى الديانة، وهو في ذلك كان نموذجاً لثالث الفلاسفة اليهود.. ابن كمونة، الذي ولد

بعده بقليل واحتل وضعاً تالياً له في المكانة، إذ يذكر "يوسف زيدان" أن كتاب "ابن كمونه" الأشهر "الجديد في الحكمة" فيه أصداء الفلسفة الإسلامية، وهي أقرب للمعتزلة، ويرى بعض المؤرخين أنه أسلم وحسن إسلامه.

وأما الإسهام الشرعي لموسى ابن ميمون في علوم الفقه والتفسير، فقد مكّن بأعماله من نفوذ الحاخامات وسطوة التلمود على بنية الدين اليهودي، فقد جعل هناك وضعاً مرموقاً للتلمود أو ما يسمّى بالشريعة الشفوية والإضافات التي أدخلت على شريعة موسى من قبل الحاخامات.

وقد أسفر ذلك في القرون القليلة عن مزيد من الاتجاه نحو الخرافة والتعقيدات الدينية، كما أن التلمود كان الأساس لاستقرار الرؤية المنصرية لليهود تجاه الآخرين، بل إن ابن ميمون نفسه لم يكن خالياً من المنصرية فهو القائل في "دلائل الحائرين" أن سكان شمال أوروبا وجنوب أفريقيا يمثلون في المرتبة البشرية المستوى الأسفل.. يقول:

"ما هؤلاء عندي في مرتبة الإنسان، وهم من مراتب الموجودات دون مرتبة الإنسان، وأعلى من مرتبة القرود، إذ قد حصل لهم شكل الإنسان وتخطيطه، وتميز فوق تمييز القرود  
١"

ولا يزال اليهود القراءون مختلفين عن اليهودية التلمودية التي عززها موسى ابن ميمون، وهم على إيمانهم بالتوراة وسفر يوشع كمصدرين وحيدين للتشريع، ويقومون الصلاة مرتين لا ثلاث، ويؤمنون بنبوة عيسى ومحمد ويرفضون الصهيونية.

غير أن اليهودية التلمودية - وهي الغالبة - لا تعترف بهم، ولا يزيد عددهم في إسرائيل عن عشرين ألف شخص معظمهم من أصل مصري، ويعيشون في الرملة وأشدود وبئر السبع.

• • •

ومما يثير الدهشة في شأن اليهود واليهودية، هو ذلك التطرف إلى حد الهوس الذي يصيب جموعاً من المتدينين، ثم تلك الحالات الموازية للردة وترك الدين..

وإذا كان ما قيل عن اعتناق موسى ابن ميمون الإسلام بعض الوقت تاركاً اليهودية هو الأشهر في المزج بين التطرف وترك الدين في آن واحد، فإن خلفه ابن كمونة قد خاض التجربة وقيل أنه مات مسلماً..

وتذكر كتب التاريخ أن رجل الدين اليهودي "السموال بن يحيى الغربي" الذي توفي قبل ابن ميمون بعقود، لم يتحول إلى الإسلام فحسب، بل وصنف كتاباً لأزعا في نقد اليهودية، وقد نشر "محمد عبد الله الشراوى" تحقيقاً للكتاب في القاهرة عام 1986م.

وفيما بعد انتهى "شبتاي زيفي" الذي آمن اليهود بكونه المسيح المنتظر إلى اعتناق الإسلام بهن لدى السلطان العثماني. وبعده بمائة عام اعتنق "يعقوب فرانك" في القرن الثامن عشر الكاثوليكية هو وأتباعه الذين كانوا قد آمنوا به مخلصاً لليهود..

وفي القرن التاسع عشر أعلن "موسى هيس" أن الدين والشريعة اليهودية قد ماتا، وأن المسيحية هي دين العصر الذي يمسى إلى توجيه البشر كافة في حين لا تسمى اليهودية إلا إلى توحيد شعب واحد بعينه. وقد كان "موسى هيس" زميلاً لكارل ماركس في الجامعة، وكان منقلب المزاج، وتزوج من فتاة ليل في باريس وراح يبشر بالصهيونية.

وبعده جاء الفيلسوف اليهودي "هنري برجسون" ليعلم رفض إله اليهودية الذي لا يسخر كل قوته إلا في سبيل البعض، على العكس من إله الحب المسيحي الذي يتوجه بحبه إلى الإنسانية بأسرها، ولولا تعاضد النازية لاعتنق برجسون الكاثوليكية..

وهو ما فعلته "سيمون فيل" التي ارتدت عن اليهودية واعتنقت المسيحية واصفة العهد القديم بأنه كتاب قبائلي عن الحروب..

وهكذا.. فإن هذا التقلب الديني الحاد ما بين الدين والآخر أو ما بين الدين وخارج الدين، جاء موصولاً بتجارب سابقة كانت إحداها من نصيب الفيلسوف اليهودي الأكبر موسى ابن ميمون.



اسبينوزا..

الحركة خارج الدين

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

جاء "اسبينوزا" .. أشهر فيلسوف يهودى منذ موسى ابن ميمون.. لينقلب على اليهود ويفند التوراة.. ويعمل من خارج الدين.

وإذا كان موسى ابن ميمون فى القرن الثانى عشر قد نجح فى ضبط الحركة لدى اليهود الذين تشتتوا وصاروا شيعاً، آخذاً من الفلسفة الإسلامية ذلك المجهود الضخم فى التوفيق بين العقل والنقل، ومثبتاً التوراة الشفهية، ومعظماً مكانة التلمود فى أصول الدين، فإن اسبينوزا قد جاء مربكاً للحركة من جديد وعائداً بها الى ما وراء الدين.

ولد الفيلسوف الهولندى - البرتغالى الأصل - "اسبينوزا" فى عام 1632م وتوفى عام 1677م. وقد حظى اسبينوزا باهتمام كبير، وله مساحة مميزة فى الثقافة العربية ضمن وضعه المميز فى الثقافة العالمية.

وقد أبدى كل من حسن حنفى وفؤاد زكريا اهتماماً خاصاً بتقديم اسبينوزا للفكر العربى، ويعتبره "حسن حنفى" الذى ترجم كتابه الأشهر "رسالة فى اللاهوت" إلى العربية، واحداً من تلامذة الفلاسفة المسلمين وكثيراً ما كانت آراء اسبينوزا فى الأخلاق والحرية موضع تقدير من المفكرين المسلمين.

قام اسبينوزا بنقد الفكر التوراتى، ورآه مجرد نتاج تحريض قام به الحاخامات على مدى آلاف السنين، كما قام بنقد التوراة ورفض العقيدة اليهودية، وعمل على إثبات أن الأسفار الخمسة الأولى من التوراة "أسفار موسى" .. هى أسفار غير صحيحة.

يرى اسبينوزا أن المعلومات التاريخية الواردة فى التوراة هى معلومات ناقصة، بل هى كاذبة، وأن الأساس الذى تقوم على المعرفة فى التوراة هى غير كافية من حيث "الكم" ومعيبة من حيث "الكيف".

وعلى ذلك يرى اسبينوزا أنه لا يجب تصديق أو تثبيت أيًا مما جاء في التوراة إلا بعد الفحص التاريخي، وبعد دراسة فكر الأنبياء نحدد إذا كان هذا الكتاب من بين كتب العهد القديم يرقى إلى مستوى القدسية أم لا.. فنحن لا ندرى في أي مناسبة وفي أي زمان كتبت هذه الأسفار التي نجهل مؤلفيها الحقيقيين.. إننا نجهل كثيراً من مؤلفي تلك الأسفار كما أننا لانملكها في لغتها الأصلية أو في لغة كاتبها.

لقد حاول اسبينوزا نقل "الديكارتية" إلى اليهودية، أو إكمال المشروع التوفيقى بين العقل والنقل الذى بدأه موسى ابن ميمون، غير أن اسبينوزا قد انتهى الى تحكيم العقل وإسقاط النقل، وقد قضى العقل على الوحي، وأصبح اسبينوزا خارج الدين، وكان أن تم فصله من الجامعة بعد اتهامه بالالحاد.. وبقي على آرائه وعمل لبعض الوقت فى بيع الخضار والفاكهة.

وربما اقتضى الإنصاف هنا.. عدم إعتبار اسبينوزا فيلسوفاً يهودياً، على الرغم من أنه وُلد يهودياً وظل أمل اليهود فترة طويلة فى رفع شأنهم الفكرى.

فاسبينوزا لم يمكث داخل اليهودية أكثر مما مكث خارجها، كما أن موقفه العام من الدين لا ينصرف إلى اليهودية وحدها فجانب من انتقاداته للتوراة تحمل صداماً مع القرآن الكريم، كما أنه قد خالف الكنيسة الكاثوليكية وإن كان قد اقترب من الإسلام فى قوله بعدم ألوهية المسيح وبأنه ليس إلا إنسان كسائر الناس.

والمحصلة أن اسبينوزا فيلسوف العقل بون أن يكون فيلسوف الدين، وأنه قد أخذ من موسى ابن ميمون لكى يأتى عليه وعلى مجمل الفلسفة اليهودية.



جاء اسبينوزا الثانى.. "موسى مندلسون" فى القرن الثامن عشر بعد أن احتل اسبينوزا القرن السابع عشر.

ولد "موسى مندلسون" عام 1729م ومات عام 1786م فى برلين، ويذكر "جورج طرابيشى" فى "معجم الفلاسفة" أن مندلسون قد تحدر من أسرة يهودية فقيرة، وأنه كتب الشعر بالعبرية فى العاشرة من عمره وقد عمل مديراً لمعمل لفزل الحرير، ثم تفرغ للدراسة، وكان مصاباً بمرض عصبى خطير طيلة حياته وكثيراً ما كان يعانى اكتئاباً حقيقياً. وقد تزوج من ابنة تاجر ثرى من هامبورج وأنجب ثمانية أولاد تفرغ لتربيتهم.

ألف "موسى مندلسون" .. "المحاورات الفلسفية الأربع" عام 1755م، وقد كتبها بأسلوب يضاها المحاورات الأفلاطونية، وفى عام 1877م نشر ترجمة لأسفار موسى الخمسة، وانه بعد ذلك كتاب بعنوان "القدس"، و"دروس فى وجود الله". ويقول عنه "اهمانويل كانط": "لو كان على ربة الفلسفة أن تختار لغة لاختارت لفته" ويقول "ليسينج": "إن روحه الفلسفية تجعله اسبينوزا ثانياً لا تنقسه سوى أخطاء الأول".

• • •

جاء "مندلسون" بجديد عن سابقه، فلم يعد يلقي بالألقضية التوفيق بين العقل والنقل التى شغلت موسى ابن ميمون فى العصر الوسيط، بل كان أبرز من قال بعالمية اليهودية.

يثير مندلسون لفظاً آخر فى فهمه وتصنيفه، فعلى الرغم من قيامه بتوسيع الدين اليهودى ليكون ديناً عقلانياً عالمياً، ويضع اليهودية ضمن السياق الإنسانى العام، فإنه على الجانب الآخر، لم يكن معنياً بدينه، ولم يستشهد بالكتاب المقدس كما لم يشر - ولو مرة واحدة - إلى يهوديته، ويرى البعض أنه كان أقرب إلى الدين الطبيعى الذى كان "ديفيد هيوم" أحد رواده.

واليهودية عند "موسى مندلسون" ليست ديناً منزلاً، وهى ليست إلا مجموعة من

القوانين و الشرائع وهى بذلك دين بلا عقيدة، بل دين له شعائر وطقوس فحسب، وهذا ما يميزه عن المسيحية.

• • •

جاء "إيمانويل كانط" فى كتابه "الدين فى حدود العقل وحده" مخالفاً مندلسون فى اختزاله الدين فى مجرد طقوسه، إذ يرى كانط أن الطقوس والشعائر بجميع أنواعها أبعد شئ عن روح الدين الحقيقى، ذلك أن الأخلاق الذاتية هى الدعاية الأساسية للدين، وأما الشعائر فلا تعبر إلا عن صلة زائفة بالله. وهكذا لم ير "كانط" فى اليهودية إلا.. وهماً. ويرى كانط أن اليهود باعتبارهم أنفسهم الشعب الوحيد المختار.. أعداء لكل الشعوب، قد أصبحوا بالتالى هدفاً لعداوى الجميع.

لقد أسفر هذا الارتباك فى العلاقة بين العقل والوحي، وفى مكانة الطقوس وقيمة الروح فى اليهودية إلى ظهور أعمال كثيرة تحاول ضبط الحركة من جديد، حتى لقد ألف أحدهم وهو "ناحمال كروشمال" كتاباً بعنوان "دليل الحائر فى زماننا" متأسياً بموسى ابن ميمون.. داعياً الشباب اليهودى الحائر بالعودة إلى حظيرة الإيمان، دون أن يكون ذلك على حساب العلم والحداثة."

• • •

بعد ذلك بقليل جاء "هرمان كوهين" أول فيلسوف يهودى كبير بعد "اسبينوزا" و"مندلسون".. داعياً إلى تأسيس الأخلاق العقلانية انطلاقاً من مفاهيم عالمية.

ويذكر "حمن طلب" فى دراسته "اتجاهات الفلسفة اليهودية المعاصرة" التى نشرتها مجلة "إبداع" القاهرية فى مارس 1995م.. أن "هرمان كوهين" قد أوضح مشروعه فى الأخلاق العقلانية فى كتابه "ديانة العقل بمعزل عن المصادر اليهودية".

اشتبك كوهين مع الفكر الألمانى "هينريش فون تريتشكه" الذى اتهم المفكرين الألمان من اليهود بأنهم معاونون للمسيحية وللقومىة الألمانية، وحاول كوهين أن يثبت انتماء

اليهود إلى الأمة الألمانية، لا على الرغم من كونهم يهوداً.. بل لأنهم يهود!

ونظراً لسلطان "كانط" على الفكر اليهودي.. قال "كوهين": الألمان هم أمة "كانط"، فكيف لا ينسب اليهود إليهم، فالشرائع اليهودية تتفق مع الأخلاق المثالية عن كانط، وراح "هرمان كوهين" يعمل على تأويل التوراة وتعاليم الأنبياء على ضوء فلسفة كانط مما أثار عليه المثقفين اليهود.

• • •

لقد حظيت "المسألة اليهودية" باهتمام تيارات الفلسفة الحديثة، ولم تقف داخل دوائر التفكير اليهودي الخاص، وفي ذلك يتساوى إهتمام الليبرالية والماركسية والوجودية بالمسألة اليهودية، ويذكر حسن حنفي أن التيار الليبرالي قد قدم كتاب "برونو باور" عام 1843م بعنوان "المسألة اليهودية"، كما أن التيار الماركسي قد قدم في العام نفسه كتاب "كارل ماركس".." المسألة اليهودية"، وقد قدم التيار الوجودي في عام 1954م كتاب "جان بول سارتر".." تأملات في المسألة اليهودية".

أراد "برونو باور" تحرير اليهود في ألمانيا عن طريق الدولة الليبرالية القومية، وأراد "كارل ماركس" الأمر نفسه عن طريق تحرير المضطهدين في العالم كله، وأما "سارتر" فقد رأى أن المشكلة ليست في "اليهودية" بل في "معاداة السامية"، وأن اليهودي هو الضحية وليس الجلاد، وعلى ذلك فإن المشكلة لا تكمن في اليهود بل في الآخرين.

• • •

هناك العديد من الأسماء التي يتوجب الوقوف إزاءها، لكن ضيق المقام يجعلنا نتوقف عند الفيلسوف اليهودي "مارتن بوبر" وهو غير الفيلسوف الشهير واليهودي أيضاً "كارل بوبر". فقد تمكن "مارتن بوبر" من التوفيق بين الصهيونية واليهودية بمثل ما تمكن موسى ابن ميمون قبل ثمانية قرون من التوفيق بين العقل والنقل.

ولد "مارتن بوبر" في فيينا عام 1878م ومات في القدس الغربية عام 1965م.

ويذكر "جورج طرابيشي" في "معجم الفلاسفة" أن مارتن بوبر قد عمل بتدريس تاريخ الأديان في جامعة فرانكفورت حتى عام 1933م ثم اعتنق الصهيونية وروج لها، وهاجر إلى فلسطين مع صعود النازية، وأصبح منذ عام 1938م أستاذاً لعلم اجتماع الدين بالجامعة العبرية.

وقد مثل "بوبر" التيار المضاد للتيار الإصلاحى فى اليهودية الذى مثله هرمان كوهين. ومن مؤلفات "مارتن بوبر" .. "الحكايات الحسيدية"، "طريق نحو الحسيدية"، "رسالة الحسيدية"، والحسيدية عنده هى نوع من الفلسفة الوجودية حيث انعلاقة المباشرة للقاء الله بموسى ومعاينة موسى لوجه الله تعالى.

وله أيضاً "أنا وأنت"، و"دروب اليوتوبيا"، و"الإيمان باليهودية"، و"الإنسانية العبرية"، و"الدين التوراتى"، و"إسرائيل والعالم" وحاز جائزة جوته من مدينة هامبورج، واستأنف علاقته بألمانيا بعد الحرب، واستقبله رئيس جمهورية ألمانيا الإتحادية.

• • •

يذكر "أنيس صايغ" فى كتابه "الفكرة الصهيونية" أن "مارتن بوبر" ينظر لإسرائيل كحوار بين الله والإنسان على المستوى القومى، وأن إسرائيل مدعوة لأن تستجيب لتحدى حياة الحوار مع الله!..

أسهم بوبر إسهاماً كبيراً فى نجاح الحركة الصهيونية فى فترة ما بين الحربين، وقد اكتسب وضعاً مميزاً لكونه عمل مع تيودور هرتزل فى بداية الحركة الصهيونية، ثم كان مديراً للنشاط التعليمى لدى جالية فرانكفورت اليهودية فى سنوات حكم هتلر.

يقول "مارتن بوبر" فى كلمة ألقاها فى فرانكفورت عام 1934م: "إن هذا الشعب يقف على أرض يمكن أن تنزاح من تحت أقدامه فى أى لحظة.. كل إتحاد يدخله يغير به، وكل تحالف انضم إليه عبر التاريخ كان يحوى عنصر انتهائه بشكل خفى، كما أن امتزاجه مع بقية الحضارات كانت له قوة محطمة خفية.. لقد كان الشعب اليهودى دائماً "شبحاً"



مشنوماً لا وطن له، كان ينظر إليه على أنه سبب الطاعون مثلاً، ولكننا نعرف أننا لسنا  
أشباحاً، وإنما نحن مجتمع حي، وطريفنا إلى ذلك.. الإيمان..”

ويقول: “إن هناك مقياساً واحداً لتمييز الأمة عن العقيدة، فالأمة تعيش التاريخ،  
والمعاند يعيشها الأفراد في تجاربهم، وهذه التجارب في أقصى أشكالها هي “الوحي”،  
والأمة والمعاند تختلفان بالطريقة نفسها التي يختلف فيها التاريخ والوحي، ولا يتطابقان  
إلا في حالة واحدة. إن إسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة كشعب، ليس النبي وحده  
هو الذي تشمله عملية الوحي بل المجتمع كله.. فمجتمع إسرائيل يعيش اليوم التاريخ  
والوحي كظاهرة واحدة.. التاريخ كوحى والوحي كتاريخ”.

“إن وحدة القومية والإيمان التي تشكل أساس وضع إسرائيل الخاص هي مصيرنا،  
وليس هناك من سبيل لإعادة بناء إسرائيل وتحقيق أمنها سوى طريق واحد، وهي أن  
تتحمل عبء وضعتها الخاص كمملكة الله”.

• • •

يقرب “مارتن بوبر” من أفكار سابقة حول العالمية اليهودية غير أنه يجعل ذلك من  
خلال الصهيونية.. في نص بليغ ومنطق غريب، وقد نشر في ذلك كتابه الشهير “الإنسانية  
العبرية” عام 1942م، وفيه يبذل جهداً كبيراً من أجل دعم نفس أفكاره حول وحدة الدين  
والدنيا في إسرائيل.

يقول مارتن بوبر: “إن رجال التوراة آثمين مثلنا ولكن هناك إثم واحد لم يرتكبوه،  
وهو أنهم لم يحصروا الله في الدين الذي هو مجرد جانب من الحياة، لم تكن لديهم الجرأة  
على رسم حدود لوصايا الله، لم يقولوا لله: إن سيادتك تنتهي عند هذه النقطة، ولكن وراء  
هذه الحدود يبدأ العلم والمجتمع والدولة. ليست إسرائيل أمة كبقية الأمم، إنها شعب ليس  
كباقي الشعوب، لأنها الشعب الوحيد الذي كان منذ بداية تاريخه أمة ومجتمعاً دينياً في  
الوقت نفسه.. ففي الساعة التاريخية التي التقت فيها قبائل بني إسرائيل لتشكل شعب

أصبحت حاملة شعلة الوحي".

وحول نظرة الشعب اليهودي لنفسه بأنه شعب الله المختار، ونظرة شعوب أخرى ذات النظرة لنفسها يقول بوهر: "المسألة ليست هي ما إذا كنا نشعر أو لا نشعر بأننا شعب مختار، ولكن المسألة هي دورنا في التاريخ الذي هو فريد من نوعه، إن طبيعة اختيارنا تختلف كلياً عن طبيعة نظريات الاختيار عند بقية الشعوب، إن إسرائيل اختيرت لتمتلك من الارتفاع بتفكيرها للمستقبل عن القوة البيولوجية التي تمجدها الشعوب إلى دائرة الحقيقة، لقد اعتبر الله أيوب خادمه وإبراهيم حبيبه، وقد جرب الاثنين ودعاهما للحساب، وقد قبلنا التجربة وتحملناها.. هذه هي الإنسانية العبرية".

"إن القيم العظيمة التي أنتجناها نجمت عن تزاوج الشعب والدين، فلا نستطيع الاستعاضة عن هذا الزواج الأصلي بالجمع بين الأمة والدين جمعاً سطحياً مصطنعاً.. إننا لا نستطيع أن نفتخر بأننا نمتلك "الكتاب" إذا كنا نخون وصاياه".

"إنني أضع الإنسانية العبرية ضد القومية اليهودية التي تعتبر إسرائيل أمة كالأمم الأخرى، فإذا اختارت إسرائيل الإنسانية العبرية سيكون لديها ماتقدمه للجنس البشري".

• • •

لكن "مارتن بوهر" في واقع السياسة اختار نولة إسرائيل ولم يتم باختيار الإنسانية العبرية.. وقف مع القومية اليهودية التي سبق أن هاجمها، وأيد المشروع الصهيوني الذي هو نقيض فلسفة بوهر في عالمية اليهودية.

ولما وجه "المهاتما غاندي" سؤالاً انتقادياً.. لماذا لا يشعر الصهيونيون بارتباطهم بالوطن الذي ولدوا فيه ويقاوموا الظلم مع بقية الشعب بدلاً من زهابهم للبحث عن وطن جديد؟، وجه "مارتن بوهر" رسالة مفتوحة إلى المهاتما غاندي تقول.. بأن الإيمان اليهودي لا يمكن أن يعيش إلا في مجتمع يقوم على قوانين الخاصة، وهذا أمر يرتبط بإنجازه بالأرض وبشعب حر عليها.. "أنا لا أظن أن الله يمنح قطعة أرض دون حساب ليقول المالك كما يقول

الله في التوراة "لأن هذه الأرض ملكي"، إن الأرض المفتوحة برأبي قد أعيرت إلى الفاتح الذي أقام عليها، وأن الله بانتظار ما سيفعل بها، لسنا نريد نزع ملكيتهم فنحن نريد أن نعيش وإياهم، وكلما زاد خصب الأرض كلما اتسع المكان لنا ولهم".

• • •

يذكر "روجيه جارودي" في كتابه "ملف إسرائيل" أن مارتن بوبر قد وجه انتقادات عديدة لسياسة إسرائيل فيما بعد، وينقل عنه قوله بأن "اليهودية قد اقتلعت من جذورها، فالرغبة في الاستيلاء على الأرض هي الأساس الذي يخفي كل ما استعارته القومية اليهودية المعاصرة من القومية الأوروبية الحديثة، وإنا لم تكن إسرائيل غير تشكيل لهويتنا القومية، وغير تبرير جميل لأنانيتنا الإجتماعية التي تحولت إلى صنم نعبده ونحن الذين لا نعبد غير إله واحد للناس جميعاً، فإننا نكون مثل غيرنا. إننا نخالف مهمة الأنبياء التي يرددونها بلا انقطاع.. "إننا تفاخرتم بأن الاختيار قد وقع عليكم بدلاً من أن تحيوا في طاعة الله فتلك خيانة".

• • •

الواقع أن فلسفة "مارتن بوبر" هي أكثر من فلسفة، فأراؤه حول الدين والعقل.. أو الأمة والعقيدة.. أو التاريخ والوحى، هي أفكار نظرية عامة يمكن قبولها بلا أي تغيير في أديان أخرى.

وبعض أفكار "مارتن بوبر" هي "مجرد كلام" فأراؤه في أرض فلسطين والتعاون العربي اليهودي وتغليب العبادة وأوامر الله على ماعداها من رغبات البشر.. هي مجرد أقوال لامعة لا تعنى شيئاً.. فالذابح وعمليات التهجير وتشريد شعب بكامله وصبّ العذاب على من بقي منه على أرضه.. لم تكن إلا تدنيهاً للأرض المقدسة وبعداً مملكة الله وقيم الإيمان.

ثم إنه في دعوته للإنسانية العبرية لم يبطل مقولة "الشعب المختار" لصالح مفاهيم

الأخوة الإنسانية أو المساواة بين البشر، بل جعلها غطاءً رحباً لإسرائيل.

• • •

غاية القول هنا.. أن تلك الحركة الصاخبة التي غطت على حالة اليهود واليهودية.. بشراً وديناً، لقرون طويلة.. قد أتى عليها موسى ابن ميمون في القرن الثاني عشر محاولاً الضبط والتوازن.. ما بين العقل والشريعة وما بين الدين والدنيا، ثم غابت الرؤية قرناً أخرى إلى أن جاء اسبينوزا في القرن السابع عشر بادئاً من نهاية ابن ميمون، وموازيماً بين العقل والشرع، غير أنه انتهى خارج الدين ناقداً للتوراة والتلمود.. للعقيدة والشريعة.

ثم تعاقبت أفكار أخرى سعى البعض خلالها إلى الأخذ من الإسلام والمسيحية بالقول بعالمية الدين، وسعى آخرون لفض اشتباك جديد بين اليهودية والحدائثة، وسعى غيرهم إلى العمل خلاف قول ابن ميمون من أن العبد الثالث لن تبنيه أيد بشرية وأنه سينزل جاهزاً من السماء، فكانت الفكرة.. ثم جاءت الحركة، ومضت الصهيونية إلى شوط جديد.. راحت تعمل بأصول الدنيا لا بأصول الدين!

**الفصل الثاني**

**الصهيونية سيرة متفرقة**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

كان كلما ظهر غطي النور المكان، وكان الناس يستقبلونه في كل مكان بالفرح والبهجة، وفي أوروبا تجمع الناس في الكنائس، ووزع الأغنياء ثرواتهم.. وظهرت القصص والحكايات العجيبة.. وكان بعضها يتحدث عن ظهور سفينة غريبة بديعة في شمال أسكتلندا.. قلاعها من حديد وحبالها من حديد.. وملاحوها يتحدثون اللغة العبرية.. ويرفرف عليها علم مكتوب عليه "بنى إسرائيل".

آمن الكثيرون من اليهود والمسيحيين بأنه المسيح المنتظر وليس سواه.. وأن خلاص البشرية قد حان بعد طول إنتظار.. ولكن شيئاً لم يحدث.. فقد كان "شبتاي زيفي" اليهودي التركي هو أشهر مسيح كاذب في التاريخ.

ولد "شبتاي زيفي" في مدينة أزميز التركية عام 1626م، وقد جاء ميلاده بعد حرب الثلاثين عاماً في أوروبا التي عانى منها اليهود الكثير، وقاسى فيها كل الأوروبيين الويل، وإزاء العذاب المهين الذي ذاقه الناس تسرب لديهم إحساس بأنها نهاية العالم، وأن الحرب اللعينة إنما نشبت لكي تمهد لقيام مخلص البشرية وانقضاء العالم.

وضع المؤلفون في ذلك العديد من الكتب التي نشرت في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا مؤكدة على أن عام 1666م هو عام قيامة المسيح. وعندما اقترب العام المنتظر راح "زيفي" يخبر أصدقاءه بأنه المسيح المنتظر، وأنه سيعيد شعب إسرائيل إلى فلسطين، ولما واجهه الناس بسخرية شديدة، رحل إلى سالونيك، ولاحقته السخرية طريقتاً بطريق، فمضى إلى مصر التي مكث فيها ثلاثة أعوام تشجع خلالها من قبل الجالية اليهودية في مصر على السفر إلى أورشليم، وهناك قضى نهاره في صوم دائم وليله في صلاة لا تنقطع.. وبدأ أمره يشتهر.

وفي عام 1665م.. أي قبل القيامة المنتظرة بعام.. ذهب "زيفي" إلى أزميز واستقبله الناس بالفرح والبهجة، وتوالت القصص العجيبة عن السفينة الحديدية والسيح الأخير.

وأمن الكثيرون بأن المسيح الذي طال به الإنتظار قروناً عديدة هو "زيفى" .. ولكن المفاجأة كانت بالغة الغرابة ودرامية بما يفوق أى توقع، فبدلاً من أن يذهب "زيفى" إلى أورشاليم.. ذهب إلى القسطنطينية.. ليعلمن الإسلام.. وتحول فرح اليهود إلى ماتم كبيراً

• • •

منذ "شبتاي زيفى" وتلوح فى الأفق دعوات العودة والراحة الأبدية لبني إسرائيل، وفى نهاية القرن التاسع عشر ظهر رجل آخر جاء بنفس البشارة من غير صوم ولا صلاة. وعلى خلاف الفضل الذريع الذى أحاط بدعوة "زيفى" الذى بدأ يتعلم مبادئ الإسلام، نجح الداعية الجديد "تيودور هرتزل" الذى لم يكن سوى صحفى مغمور لدى صحيفة نمساوية محدودة فى تمرير الدعوة وتجميع اليهود وبدء الصراع ثم بناء الدولة.. والذى أراد "زيفى" وحققه "هرتزل" هو بناء المعبد الثالث وإعلان دولة إسرائيل..

ولأن الأكواخ العربية المجاورة كانت بالغة الضعف حين البناء.. فقد علا المعبد اليهودى، ثم كان أن هبت رياح عاصفة على أكواخ العرب فى التسعينات، وبدت الأمور بعد سكون العاصفة خارج زمام السيطرة وتراجعت الأحلام العربية فى معظمها وراء حدود الأمل إلى أن عادت الروح مع نسائم الربيع العربي فى عام 2011م.



**إجابة خاطئة**

**لسؤال غير مطروح**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

ربما تكون هذه النكتة هي الأكثر دلالة على ماجرى، يحكى "يعقوب أجمون" المستول عن احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس إسرائيل فيقول: المشروع الصهيونى حدث فيه خطأ كبير.. فبدلاً من كندا كانت فلسطين.. ويرجع ذلك إلى تمثّر لسان موسى.. فحينما سأله الإله،.. أى بلد تريد؟.. قال: كاكاكأ.. نانانا.. فأعطاه الله كنمان بدلاً من كندا.. فهاج بنو إسرائيل وقالوا: أما كان بوسعك أن تختار كندا بدلاً من هذا المكان البائس الخرب المحاط بالرمال والعرب؟!

ويكمل عبد الوهاب المسيرى راوياً.. أنه على دورة مياه فى الجامعة العبرية كتب أحد المستوطنين: "ليذهب السفارديم إلى أسبانيا، والأشكيناز إلى أوروبا، والعرب إلى الصحراء.. ولتعدّ هذه الأرض إلى الله".

وسيظل هذا الإحساس اليهودى بالورطة التاريخية وبالطريق المسدود حتى النهاية، ذلك أن الذين جاءوا إلى فلسطين منذ بدء الدعوة الصهيونية وإلى الآن لم يجدوا الراحة التى كانوا ينشدونها، ولا النشوى التى كانوا يطلبونها.

كان هناك اعتقاد بأن الوصول إلى فلسطين نهاية لشتات القرون وعذاب الأيام، كان الغن كذلك أن الرب الذى يرعى بنى إسرائيل رعاية خاصة قد أراد العمد والنصر لشعبه المختار ولذا اختار لهم وطناً من ياقوت ومسكناً من حرير. وعندما جاءوا لم يجدوا شيئاً مما وعدوا أنفسهم به.. فقد دخلوا فى حروب لا تنقطع، وصار الأمن هدفاً مفقوداً على الدوام.. وأصبحت أيام اليهود فى إسرائيل برغم حقائق القوة ومظاهر الأبهة.. أهماً كئيبة عصيبة يكسوها الخوف والقلق.. من كل الأشياء وفى كل الأوقات.

جاء اليهود إلى فلسطين استجابة للدعوة الصهيونية، والصهيونية هي الكلمة التوراتية "زيون" Zion، التى غالباً ما استخدمت مرادفاً للقدس وأرض إسرائيل.

ويرى البعض أن الصهيونية التى تبلورت فى القرن التاسع عشر لم تكن جديدة فى

مفهومها ولا مضمونها، بل هي إحياء لفكرة قديمة وحركة دائمة تحاول تنفيذها لكي تعيد اليهود إلى فلسطين. وعلى ذلك فجوهر الصهيونية يقوم على إعادة اليهود إلى أرض فلسطين. وقد ظل هذا الجوهر ضعيفاً حتى القرن التاسع عشر، ولما زاد التضييق على اليهود في أوروبا وجدت الفكرة نصيباً من التعاطف لدى بعضهم.

وهنا ظهر زعماء الصهيونية الأوائل وأبرزهم "موسى هيس" الذي ظهرت آراؤه بعد منبحة اليهود في دمشق 1844م حسب الرواية اليهودية، وكذا "ليون بنسكر" الذي ظهر بعد مذابح اليهود في روسيا عامي (1881-1882م) عقب اغتيال القيصر ألكسندر الثاني، ثم كان "تيودور هرتزل" الذي قاد الصهيونية المعاصرة إلى أن قامت إسرائيل.

• • •

تعرف صهيونية هرتزل بالصهيونية السياسية، وكانت من قبل تعرف بالصهيونية الدينية التي كثيراً ما نادى بها المتصوفون اليهود رابطين بينها وبين الأمل اليهودي في مجيء مسيح آخر الزمان.

كانت الصهيونية الدينية قد أدت إلى إعادة الحج إلى الأماكن المقدسة بل وإلى تكوين طوائف دينية، ولكن اضطهاد الملوك الكاثوليك في أسبانيا دفع بعضهم للهجرة إلى فلسطين.

ويقدر جارودي أن هذه الصهيونية الدينية لم تمتد إلا إلى جماعات محددة، ولم تلق أبداً معارضة من المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم من ذرية إبراهيم ولا ينكرون دينه، وبالتوازي فلم تكن هذه الصهيونية تستهدف أبداً إقامة دولة أو فرض سيطرة على فلسطين، ولم تثر قط أية مصادمات بين اليهود وبين السكان العرب مسلمين ومسيحيين.

وبعيداً عن الصهيونية الدينية.. كانت هناك حركة تنوير عقلانية تحاول حل المشكلة اليهودية، وتعرف حركة التنوير هذه بالهاسكلاه.. وكان هدفها تحرير الإنسان اليهودي وتحقيق ذاته استناداً لقيم العدالة والمساواة.

ولكن البعض رأى أن تحقيق التحرر الشخصي والعدالة هو أمر بالغ الصعوبة، ذلك أن المشكلات القومية لا تصلح معها سوى الحلول القومية.. وأن الإشعاع الديني

في فلسطين لن يكون كافياً.

هنا جاءت الصهيونية السياسية.. وبدأ المشوار الطويل نحو الأرض التي كانت مقدسة.

• • •

بدأ "تيودور هرتزل" في وضع فكر "الصهيونية السياسية" في فيينا عام 1882م، وانتهى من إرساء نظامها عام 1894م في كتابه "الدولة اليهودية" عام 1894م وشرع في وضعها موضع التنفيذ في أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل بسويسرا عام 1897م.

واللافت للنظر أن هرتزل يحمل إعتقاداً مناقضاً تماماً للصهيونية الدينية، فهو من أتباع مذهب "اللائرية" اللاحدي، وهو المذهب الخالف لجميع الأديان والذي لا يعترف إلا بما يدخل في نطاق الحس والتجربة الملموسة. ويعارض هرتزل من يفهمون "اليهودية" على أنها دين من الأديان السماوية.. بل هي قومية، واليهود هم أولاً وقبل كل شيء "أمة" واحدة. وبمثل هذا الإيمان يعتقد الكثيرون من قادة إسرائيل.. وكان بن جوريون مؤسس الدولة ملحداً لا يؤمن بوجود الله، وكثير من قادة اليسار الإسرائيلي لا يعتقدون في صحة الدين اليهودي.

• • •

سارت الأمور على نحو ما أراد هرتزل.. وجاء اليهود من كل مكان في موجات متلاحقة من الهجرة، كان الهدف الديني في العودة إلى ما يرونها أرضاً للميعاد ماثلاً في ذهن البعض، وكان الهدف السياسي في جمع شتات الأمة وإقامة الدولة حليماً عنيداً لدى آخرين، وكان الإغواء الذي مثلته الصهيونية لدى اليهود بما يتضمن من إشاعة الرعب في أوروبا وإطلاق الرغبة في فلسطين سبباً ثالثاً في المجيء.

وبقدر ما كان جانب الرغبة مؤثراً في هذا الإغواء بالتجمع في فلسطين، كان جانب الرهبة من الهولوكوست واحتمالات الاضطهاد أكثر تأثيراً لدى عدد من اليهود الأوروبيين.

وقد بُعثت كلمة "هولوكوست" خصيصاً من التاريخ الديني لتكريس صورة اليهود الضحية، فالكلمة لها دلالة دينية وهي تطلق في الأصل على "القربان" الذي يقدم لله.. والمعنى أن اليهود الذين قتلهم النازيون الألمان كانوا قرباناً لله وتضحية إليه، وهو قول غير

دقيق، فالنازيون لم يكن لهم صفة دينية.

وحسبما يشير جارووي، فإن هذه الكلمة تعزل ضحايا هتلر من اليهود عن غيرهم في حرب كبدت البشرية ملايين عديدة من الرجال والنساء، فقد قتل من البولنديين ثلاثة ملايين نسمة من غير اليهود، وقتل ستة ملايين من السلافيين المدنيين. وكان اليهود بهذا التخصيص يقولون بأن النازية هي العنصرية المضادة لليهود فحسب، وكان تلك المذابح هي حلقة من حلقات الاضطهاد التي جاءت نتيجة اصطفاء إلهي لليهود.. وهذا خروج عن التاريخ ومحاولة لطمس الحقيقة، وهي أن جرائم هتلر ضد اليهود وغيرهم إنما هي جزء في جرائم الغرب عموماً.. من نهب عشرات الملايين من المهنود الحمر والأفارقة إلى ملايين داخل أوروبا في حروبها الصليبية أو خارجها في عصور الاستعمار.

لقد نجحت الصهيونية في إخفاء هذه الحقيقة المركزية وفي لفت انتباه العالم إلى أن قتلى اليهود.. كانوا قرباناً لله.

• • •

وهكذا.. جاءت الصهيونية باليهود إلى هنا، كان البعض يقترح الأرجنتين، واقترحت إنجلترا أوغندا.. وانتهى المزاد الدولي على فلسطين. رأت الصهيونية أن اليهود في كل بلدان العالم يشكلون "أمة" واحدة، وأنهم في كل زمان ومكان كانوا هدفاً للاضطهاد، وأنهم لن يندمجوا في أية أمة يعيشون فيها أيأ كان الأمر، ولا حل سوى إنشاء الدولة اليهودية التي تجمعهم من الشتات.

وهكذا وضعت الصهيونية سؤالاً لم يكن مطروحاً.. أين يذهب اليهود؟.. لم يكن أحد منهم يسأل.. إلى أين يذهب.. فكل في مكانه حيث الوطن.. اللغة والحياة والجنسية. وأهم ما أنجزته الصهيونية هو طرحها هذا السؤال.. ثم إجابتها عليه بفلسطين.

• • •

لم تكن الإجابة آمنة تماماً.. فقد بدأ صراع مديد.. ومضت سنوات طوال.. وبقي القلق واستمرت مشاعر الشتات، واحتفظ نصف الإسرائيليين بجنسيات أخرى.. ونما لدى البعض شعور باحتمالات الخروج إلى شتات جديد.

**عودة غامضة  
إلى أرض مجهولة**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



نجحت "الصهيونية" يوماً بعد يوم.. فلى أن تصبح الهدف الجامع للكثيرين من يهود العالم، وبرغم أن عدداً غير قليل من المثقفين اليهود اتخذ مواقف مغايرة زادت عند عدد أقل إلى مواقف معادية، فإن الأحداث كانت أسرع من الأفكار، كما كانت المشاهد أبعد من حدود النظر.

وفيما كان نفرٌ من منظري اليهود يتأملون الفكرة ومكوناتها وآفاقها.. إلى غير ذلك مما يميل إليه المفكرون من تفتيت وتحليل.. ثم تخويف وتحذير.. كان الآخرون بعدد إعداد تذاكر السفر وتدبير وسائل الإقامة والبحث فى ترتيبات الأمن والعمل.

وهكذا فى حالة لا تتكرر كثيراً فى التاريخ.. كانت الوقائع تتلاحق على الأرض أسرع مما كانت الأحلام تجرى فى الأذهان.

ويعبر الحاخام "موريس ليفر" عن هذه الحالة بما كتبه عام 1939م عشية إندلاع الحرب العالمية الثانية: "قبل أربعين سنة تمنينا أن يكون الاندماج حلاً عالمياً للمشكلة اليهودية، لكن الأحداث تغلبت على الأيديولوجيا، والنظريات البارزة انهارت فى نفس الوقت الذى سعدت فيه القومية المتطرفة.. فلم يبق إننا أمامنا إلا مباركة إنشاء دولة يهودية تكون ملاذاً لإخواننا المازومين".

والأغلب أنه لو كان الأمر بيد المثقفين اليهود ممن يزنون الأمور ويحسنون الراى.. لما قامت إسرائيل ولبقى الأمر عند انفعالات وأشواق لاتزيد.

غير أنه من حظ الصهيونية أن وجدت من ينامرون ويتقدمون دون أن يدركوا بالضرورة حجم المخاطر أو عواقب الأمور.

ومن يتأمل كتابات هذه الفترة من تاريخ الصهيونية يدرك إلى أى مدى كانت الاستجابة لنداء الذهاب إلى فلسطين مطلباً مستحيلاً أو ضرباً من الجنون.

• • •

جاء اليهود إلى فلسطين وسط أوام عديده، كان "فراغ الأرض" هو الوهم الأسبق.. فقد كان القادمون يعتقدون أنهم أتوا إلى أرض بلا شعب، وكان وهم "الراحة" هو التالي..

حيث كانوا يظنون أنهم يتجهون صوب الراحة الأبدية.

ولكن سرعان ما اكتشفوا حقائق الوهمين معاً.. فإذا بشعب عربي يقيم في بلاده وعلى أرضه. وبدأت الأوهام تتبخر تبعاً، غير أن آلة الدعاية كانت تجذب الآلاف من غير تفكير.

ويروي الفيلسوف اليهودي "مارتن بوبر" أن "نوردو" دخل على "هرتزل" ذات يوم صارخاً: "إننا نرتكب ظلماً"، وذلك لما جاء فوجد سكاناً عرباً في فلسطين.

ويذكر الصحفي الإسرائيلي "أوري أفنيري" الذي ولد في مدينة هانوفر الألمانية عام 1923م.. أن والده كان يحوز منصباً مرموقاً في مجال البنوك، وأنه كان ينتمي إلى الطبقة البرجوازية الألمانية التي رأت في النداء القومي اليهودي حلماً مستحيلًا، غير أن إغواء الصهيونية قد تمكن من أسرته التي كان عليها أن تبدأ من جديد، ولم يكن أمام والده سوى العمل في مصبغة متواضعة لتنظيف الملابس بعد أن تراجع مقامه الاجتماعي عما كان بكثير.

وبمثل أسرة أفنيري جاءت أسر عديدة لتواجه الصدمة ثم لا تستطيع العودة، وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من اليهود ممن ساءهم تصاعد الحركات القومية الأوروبية وأغرثهم الأفكار المثالية الاشتراكية قد اختاروا الاندماج في الحركات الاشتراكية الأوروبية.. إيماناً بأن نضال البروليتاريا اليهود يجب أن يكون بدأً بيد مع الشعوب المضطهدة وليس خروجاً على بيئاتهم الأصلية.. وأن نشأة الحركة الصهيونية وإقامة إسرائيل لن يحل المشكلة تماماً.. على الرغم من ذلك فإن الدعاية والدعوة كانت تجري بغير انقطاع.

كانت الدعوة تتجه إلى اليهودي لإقناعه بضرورة الانتماء إلى الحركة الصهيونية والعودة إلى فلسطين من أجل إنشاء الدولة الجديدة، وكانت الدعاية تتجه إلى غير اليهودي لإقناعه بعدالة القضية اليهودية وحق اليهود في إقامة الدولة.

وحين كانت الدعوة تضي كانت الدعاية تغطي، وبدلاً من حديث رتيب عن مملكة داوود والتاريخ القديم.. لعت أحاديث عن الثورة وعن الوظيفة الحضارية.

حتى ليذهب يوري أفنيري إلى أن "الصهيونية أكثر ثورية من الثورات الكبرى في

العالم.. من الثورة الفرنسية والبلشيفية والصينية" أما "ليون بلوم" الذى كان من أبرز الداعين للصهيونية فى فرنسا.. فقد ذهب إلى أبعد.. حيث رآها حلقة وصل بين الشرق والغرب وعامل إخصاب بينهما.

وفى عام 1925م ذهب "بلوم" إلى احتفال تدشين الجامعة العبرية ليشرح أكثر: "كان التعامل مع اليهودى يجرى على اعتبارة معثلاً للشرق فى الغرب، أما منذ الآن فإنه يتحول إلى مبعوث الغرب إلى الشرق.. ومن ثم فرض عليه أن يدفع إلى التقارب بين هاتين الحضارتين الكبيرتين.. من أجل اندماجهما فى يوم من الأيام، وليست هناك مدينة أصلح ولا مكان أنسب للالتقاء بين الشرق والغرب أكثر من القدس".

• • •

الواقع.. أن اليهودى لم يكن يوماً معثلاً للشرق فى الغرب، ولم يصبح يوماً مبعوثاً للغرب فى الشرق. لم يكن هناك دور لأحد حين كانت الصلة قائمة أو مقطوعة بين ضفتى العالم.

كانت العلاقة مباشرة بين الإسلام والمسيحية سواء حين كانت القوة للإسلام فوصل إلى غرب أوروبا فاتحاً شرقها وجنوبها، أو حين كانت القوة للمسيحية فشرع المغامرون فى حروب صليبية احتلت القدس وأرهقت عواصم الإسلام فى الشرق.. وفى الحالتين لا يمكن الحديث عن دور يهودى وسيط

وحين حلَّ عصر من الفتور فى العالم وسادت حالة من القطيعة.. "الشرق شرق والغرب غرب".. لم يكن هناك من دور لوسيط أو رسول، ليس فقط لأن الطرفين العملاقين: الإسلام والمسيحية لم يكونا راغبين فى ذلك، بل لأن الوجود اليهودى فى العالم لم يكن مؤهلاً بأى حال لهذا الدور. ولو كان لأحد هذا الدور.. لكانت أسبانيا أولى به، ذلك البلد الذى شهد لقاء الحضارتين الأعظم، والذى لا يزال الإسلام فيه ماثلاً بالتاريخ بقدر ما تسكن فيه المسيحية بالجغرافيا.

وأما كون "الصهيونية" أكثر ثورية من الثورات الكبرى فليس أكثر بؤساً من هذا القول.. فالثورة هى حركة ضد الأخطاء وفى صالح القيم.. هى قول ضد الكذب وفعل ضد

الظلم.. الثورة في ذاتها ضوء وللآخرين طريق.

ولقد نعمت الثورة الفرنسية بما نعمت به إما مثلت من قيم الحرية والإخاء  
والساواة، وهي قيم في مجملها أبعد ما تكون عن الصهيونية التي طالما اعتبرها القانون  
الدولي شكلاً من أشكال العنصرية.

• • •

على أن الداعين للصهيونية لم يكن يعنيهم تماماً ما يرددون.. بل كانت مثل هذه  
العبارات تلقى هنا وهناك، ثم يكملون سعيهم في توزيع بطاقات الدعوة إلى كل يهود  
العالم.. بالاجتماع العاجل في فلسطين.

لم تمنع حرارة الدعوة وبريق الدعاية اليهود من التفكير في تلك العودة الفاضحة إلى  
الأرض المجهولة.. ويمكن أن نقلمس آراء عديدة كانت تحذر من الفكرة ومن الداعين لها،  
ونشرت صحيفة فرنسية ليهود يحذرون من أن "الذي يعطى أذنيه لفزوات هرتزل ويستسلم  
لاغراماته بتوك فرنسا إلى الأبد.. فقد تخلى بذلك عن كونه فرنسياً ويهودياً في آن واحد".

أفاض المؤرخ تيودور ياناخ.. أحد كبار منتقدي الصهيونية من اليهود في بداية  
القرن العشرين في ذكر المآزق الذي تذهب إليه الصهيونية.. فرأى أن المشروع الصهيوني  
يشكل خطراً كبيراً على اليهود، فهو إما يخيب رجاءه أو يدركه الفشل، وبعد أن رجح  
احتمالات الفشل، راح ينتقد الأوهام التي زرعتها قادة الحركة في قلوب آلاف اليهود  
المساكين الذين صدقوا أنهم يمكنهم الاستيطان بهدوء في أرض قاحلة وفقيرة المصادر إلى  
جوار سكان عرب أكثر منهم بكثير.

ولأن العرب لن يوافقوا بأي حال من الأحوال على الطرد أو القمع الذي يمارسه اليهود  
عليهم، فإنهم سوف يثورون لكي يحافظوا على حقوقهم، وبذلك ستبدأ المذبحة الدموية على  
أرض فلسطين، وهي الأكثر خطراً من الاضطهاد الذي حل باليهود في أوروبا، وحتى لو نجح  
المشروع الصهيوني، فإن نتائجه ستكون مدمرة.. بافتراض أن مليون يهودي سيصلون إلى فلسطين

سيكون عليهم أن يعملوا ضد (700) ألف عربي حتى يُكتب لهم البقاء.

• • •

قد زادت هواجس المثقفين اليهود تجاه احتمالات البقاء، ولم يكن هناك ثمة أمل من غير الإيمان بضرورة القتال وخوض الحرب.. وحيث لم يكن واضحاً ذلك الطريق الذي يمكن أن ينهى مشكلة اليهود مع العرب، راجت تنظيمات وعصابات العنف.. وناعت أفكار ما يسمى بـ "الصهيونية المنطقية" التي بدأت في القرن التاسع عشر واستمرت في القرن العشرين لتؤكد استحالة إنجاز الأهداف الصهيونية دون خوض الحروب.

وحلول الجميع أن يلتمس الأعذار لما كان من أمر القتل والتدمير.. على اعتبار أنه لم يكن هناك ثمة طريق آخر مع العرب. ويستعيد الباحث الإسرائيلي "ميخال افيتبول" في دراسة "الصهيونية والعودة إلى التاريخ" التي نشرها بداية عام 2001م.. ما نشرته مجلة "العالم الإسرائيلي" Universe israelita في يناير 1897م بشأن هذا التفكير الذي انتهى إلى التدمير.

لقد نسي هرتزل أن يوضح ماذا سيكون مصير السكان العرب القاطنين في أرض فلسطين، هل سيكون عليهم التخلي عن أماكنهم أمام موجات السكان الجدد والمهجرة إلى أرض أخرى أم سيسمح لهم بالبقاء؟ وإذا كان الأمر كذلك.. فما الذي سيكون عليه وضع العرب: هل سيجرى تصنيفهم كأجانب في وطنهم؟.

لو عومل العرب كأجانب وجرى تجريدهم من حقوقهم سيصبح وضعهم مشابهاً للوضع الذي يتطلع هرتزل ورفاقه أن ينقنوا منه يهود أوروبا.

وإذا اعتمد الصهيونيون طريقة أكثر عدلاً ولم يسمحوا بأي ظلم أو تفرقة ما بين السكان الجدد والسكان القدامى، ويصبح الجميع مواطنين متساوين في حقوقهم السياسية والمدنية والإقتصادية، فإن الصهيونيين سيجدون أنفسهم مضطرين للتنازل عن حلم القومية اليهودية وأساس الدولة اليهودية، ولن يكون أمامهم إلا أن يقيموا دولة عادية، كواحدة من تلك الدول الحديثة التي يعيش فيها معاً مواطنون متساوون من ديانات مختلفة.

وحينئذ.. من ضمن ألا يتحول اليهود بالتدرج إلى أقلية في مثل هذه الدولة. اليس

من الجنون جلبهم إلى أرض إسرائيل لكي يواجهوا مشكلات وأوضاع مشابهة لتلك التي هربوا من مواجهتها في أوروبا؟

• • •

كانت الحرب هي الحل، والروح العسكرية هي الطريق، وكان على السلاح أن يقدم حلولاً لمعضلات الفكر، وعلى الجنرالات أن يتجاوزوا بقراراتهم قدرات الساسة وخواطر المثقفين.. وحققت الصهيونية نجاحاً يتلوه نجاح.

وفي كل مرة كان سؤال الروح يطرح نفسه من جديد.. حول الهوية والهدف وحول النهاية والمصير. كانت آلة الحرب تخطو إلى أبعد، فتضيف إلى المساحة بدلاً من أن تدخل في جدل الداخل الذي لا ينتهي، أي كانت الجغرافيا باستمرار هي الحل في مواجهة التاريخ.

وبعد أن كانت الصهيونية تمتلك (7%) من فلسطين عام 1947م، وأعطاهها قرار التقسيم رقم (181) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (54%) من الأرض، فإنها استولت على (79%) من الأرض نتيجة حرب 1948م.. أي على (25%) إضافة للمساحة التي قورتها الجمعية العامة. ثم كان أن أكملت الصهيونية الاستيلاء على كل فلسطين عام 1967م.

وفي كل هذه المراحل.. وبعدها.. كان هدف المساحة الأكبر من الأرض متوازياً مع هدف العدد الأقل من العرب.

ونجحت إسرائيل في أن تحوز قوة عسكرية كهيبة، غير أن الدعاية كانت تسير خلاف الواقع في أحيان كثيرة..

وكانت الدعاية العربية تسير هي الأخرى خلاف الواقع.. عن قدرة فائقة وخصم ضعيف بحيث بدا لكثيرين من العامة في بلاد العرب.. أن هزيمة إسرائيل أو إلقائها في البحر لا تشكل هدفاً عميراً المنال.

ومضت عقود وانتصف قرن ثم طال.. وإسرائيل تمضي أكثر قوة، والأحلام العربية تمضي صوب البحر.

**تعامل غير عادي  
مع أخطار عادية**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



لا يمنع المرء نفسه من الذهول.. من ذلك التعامل العربي مع الصهيونية.. للصفة وحركة. ومن يتأمل تطور الوقائع وصناعة الأحداث في هذا الشأن لا يجد عناءً في إدراك مدى البساطة الذهنية والتواضع العقلي الذي كان عليه الجانب العربي وهو يرى نشأة عصاة، ثم تأسيس جيش، ثم إنشاء دولة.. تجرى أمام أعينه دون تقدير للتهديدات إلى أن صار التهديد خطراً وصار الخطر كارثة.

ويقتر الباحث العربي "معن بشور" أن العرب، على نحو عام، قد أخفقوا خلال القرن العشرين في كل شيء تقريباً في مواجهتهم للمشروع الصهيوني.

ولقد إنحسر نجاح العرب في أمر واحد هام.. هو صمود مجتمعاتهم في وجه المشروع الصهيوني، وفي مواجهة جميع الضغوط التي سعت إلى تحويله إلى جسم طبيعي في المنطقة، وهو الصمود الذي حشد نفسه لمقاومة ضارية لم تتوقف يوماً واحداً طوال القرن، مما يدل على نجاح العرب في الامتحان التاريخي برغم هزيمتهم في الامتحان العسكري.. أي أننا قد أصبحنا أمام "مقاومة مشروع صهيوني ناجح ميدانياً ومازوم تاريخياً.. وأمة عربية مازومة ميدانياً وصامدة تاريخياً".

• • •

والأغلب أن ما يراه "بشور" نجاحاً وحيداً.. يتعلق بأزمة الميدان وقوة التاريخ، ما كان ليمد نجاحاً لولا تهافت الفعل إلى ما وراء المعجز.. كانت المركبة تجرى على الأرض، وفيما كانت إسرائيل تعمل طبقاً لقواعد الميدان.. كان الجانب العربي يعمل من هامش التاريخ.. وهو ما يُجمله الكاتب اللبناني "كريم بقرادوني" بقوله: "كان كلام الأنظمة العربية أكبر من أفعالها، وكانت أفعال الصهيونية أكبر من أقوالها".

وعلى أي حال فقد جاء الفعل بإسرائيل، ولم يعد مجدياً معها القول ولا ممكناً إزاءها الفعل. وعلى أثر هزيمة الفعل والقول معاً.. صار الخطاب خارج الرغبة، وصار

## القتال خارج القدرة.

لقد دفعت هذه الحالة بعدد من المثقفين لإعادة النظر فيما كان، ويذهب "محمد السيد سعيد" - في ذلك - إلى القول بأن التصدى العربي للمشروع الصهيوني منذ البداية كان حافلاً بالأخطاء.. وفي مقدمتها.. ذلك الخلط بين الحق والواقع.. أو بين مبادئ الاستحقاق القانوني والسياسة العملية، وهنا.. كان من الخطأ إنكار الواقع والاستمرار في سياسة عدم الاعتراف، حيث كان ينبغي أن تقوم السياسة البديلة على تبادل الاعتراف مع موقف بعيد المدى ينهض على فكرة الاستيعاب والتفتيت للمجتمع الإسرائيلي تمهيداً لتغليب الهوية والثقافة على المدى الطويل، وبالتالي إلحاق الهزيمة بجوهر المشروع الصهيوني.. في هذا السياق، كان ينبغي المزج بين الحق والواقع..

"كانت هناك مبالغة في تقدير مكانة العنف في إطار إستراتيجية عربية للتحرير، وبهذا قمنا بتغليب عوامل القوة في مقابل عوامل الحضارة والثقافة، فكان تركيزنا على أضعف ما فينا.. في مقابل إهمال أقوى ما فينا".

• • •

الناتج من هذا القول أن الخطأ كان ماثلاً في اختيار صاحب للعنف دون قتال، واختيار غامض للقول دون نجاح.

وعلى الجانب الآخر.. كان القول والفعل يسيران بخطى واسعة.. ومتوازية، ولم يكن هناك مجال واسع للخلط أو الخطأ.. فقد كانت الأفكار الغربية وتطبيقاتها هي الإطار الحاكم لما يجري.

وطبقاً للباحث الفلسطيني "إبراهيم أبو لغد"، فإن المشروع الصهيوني قد نجح في تحقيق أهدافه الإستراتيجية - بغض النظر عن عدم مشروعيتها - لأن أنصاره كانوا ينتمون إلى النموذج الغربي المتقدم إذا ما قورن بالنموذج العربي.. "لقد طبقت إسرائيل قواعد الحداثة الغربية بحذافيرها في حين اكتفى المشروع العربي بالقشور".

• • •

وإذا كانت الحداثة هي خيار الداخل في إسرائيل، فإن الخارج لم يكن بعيداً عنها، كانت النغمية أساس علاقة إسرائيل بالقوى الدولية، وكانت رهانات الحركة الصهيونية على الحليف الدولي متوافقة مع حركة التاريخ.

ويحدد "لطفى الخولي" نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945م بداية للتفكير في رهانات المستقبل، حيث اقتجم جدول أعمال الحركة الصهيونية سؤال هام: هل تظل أوروبا هي الحليف الأساسي لإسرائيل أم بات من الضروري الانتقال إلى حلف جديد هو الولايات المتحدة الأمريكية؟

ولم تُحسم إجابة هذا السؤال إلا عام 1956م عندما أشعلت إسرائيل، بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا، العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم الأخيرة لقناة السويس. ورغم أن التحالف حقق انتصاراً عسكرياً.. باحتلال سيناء وإغلاق القناة، إلا أنه فشل سياسياً فلم يستطع الحليف الأوروبي أن يوظف الانتصار العسكري سياسياً، وألزمت الولايات المتحدة رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن جوريون بالجلء الفوري غير المشروط عن سيناء.. ومنذ ذلك أقل نجم بن جوريون، "وحُسمت مسألة انتقال الحليف الدولي الأساسي لإسرائيل إلى أمريكا".

ومع اختيار الولايات المتحدة حليفاً أساسياً لإسرائيل، اتجهت الأنظار صوب اليهود الأمريكيين الذين كان عليهم أن يبدأوا مسيرة ناجحة نحو التعاون ثم التحالف الذي يقارب الاندماج.

لقد وصل نجاح النموذج الإسرائيلي للممارسة السياسية.. من الحداثة في الداخل إلى التحالف مع الولايات المتحدة والتأثير عليها في الخارج.. إلى دعوة البعض للتأسي بهذا النموذج، حتى ليذهب "بهجت قرني" إلى التساؤل هل نحن بحاجة إلى صهيونية عربية؟!

ثم يمضي شارحاً: أعنى بذلك تعبئة كل الموارد وخاصة الموارد الخارجية في تحقيق الأهداف القومية، حيث لم تنجح الصهيونية إلا بالتخطيط والتنسيق مع المواطنين والمريدين خارج الحدود.. ولم تستطع خوض الحروب المتعاقبة إلا بهم، ليحسنوا صورتها ويضمنوا

النجاح لميستها.

ويمثل إسهام الجماعات الصينية الخارجية في تنمية وطنهم الأم في الصين نموذجاً مشابهاً، وهو نموذج قابل للتطبيق في الحالة العربية.. حيث يزيد عدد الأمريكيين العرب عن الاثنين ونصف المليون مواطن إضافة إلى نصف مليون آخر في كندا.

وعلى أي حال.. فقد نجحت الصهيونية اليهودية بالحدثة في الداخل والنفعية في الخارج، وكان التعامل العربي مع تطورات المشروع الصهيوني تعاملًا بون التاريخ.. وربما بون اللحظة.

وكان طبيعياً إزاء فشل الفعل وتهافت القول.. وتطور الخريطة السياسية الدولية على غير صالح العرب، أن تبدأ مسيرة أطول ومرحلة أصعب.. من تسوية لم تتم وسلام قد لا يجرى.

• • •

جاءت نكبة 1948م.. ثقيلة اليمه، وبعد أن كانت المشكلة الصهيونية لا تلقى الإهتمام الكافي، والشخصية اليهودية لا تنال الإكتراث اللازم.. استيقظ الوعي العربي على حقيقة دامية.. على بولة وجيش ونظام، وعلى قادة وجنود وسلاح. وأصبح العرب أمام عدو كامل النمو. واتسعت مساحة الإحباط وتفاقت هواجس القلق.. ومع الإحباط ضعفت الثقة ومع القلق بدأ الغضب.

وكانت ثورة 23 يوليو 1952 وما تلاها من موجات غضب واسعة تحولاً كبيراً في مسيرة العالم العربي منذ إنتصاف القرن. وكانت إسرائيل محور الحركة ورفيقة الطريق، حيث لم يخلو خطاب ولا سلوك من الإهتمام بها نقداً ونقشاً.. ووعيداً.

ومضت الأحداث لتكشف عن مفارقة باذغة.. ذلك الانشغال بها على مستوى الفكر وذلك الانشغال عنها في مستوى الواقع. وكانت النتيجة القاصمة لذلك الانشغال الزائف بإسرائيل.. ما جرى في عام 1967م من إنهيار لايزال غباره يلف الشرق الأوسط وهكذا أضيفت النكسة إلى النكبة لتتعمق الهزيمة في العقل العربي.

ولم يعد أمام الذين كانوا يتطلعون لإزالة آثار النكبة فإننا هم عاجزون عن استيعاب وقائع النكسة إلا أن يعيدوا النظر في أنفسهم وفي بلادهم وفي المستقبل الذي اختفى من العيون.

• • •

هنا بدأ التفكير في مشروعات للتسوية، وبدلاً من نصر حاسم توقف الأمل عند خسارة ثابتة لاتزيد. وبعمق الأزمة التي واجهها المصريون والعرب داخل بلدانهم وخارجها كانت مشاعر الخيلاء قد تمكنت من يهود العالم خارج إسرائيل بعد أن صارت الأرض الموعودة بالإمكان.

ويرصد المؤرخ اليهودي "بول برينز" في كتابه "يهود أشدء" الذي صدر عام 1990م.. ذلك التغير الهام الذي حدث بعد 1967م عند اليهودى الأمريكى، حيث كان اليهود الأمريكىون يصورون أنفسهم فى الأفلام والكتب والمجلات باعتبارهم يتصفون بالحكمة والإعتدال، ومولعين بالكتب وواسى الثقافة، غير أنه بعد 1967م تغير ذلك بشكل درامى.. فقد بدأ اليهود يصورون أنفسهم كقتلة وخارجين على القانون.

ويطلق "برينز" عليهم وصف "رامبوفيتز" أى رامبو اليهودى. وعلى الصعيد الثقافى أصبحت المؤسسات تروج لهذه القيم الإستعملائية، حيث يمكن العثور على كل أنواع كراهية العرب فى مجلات تحظى باحترام واسع مثل "نى نيو ريببليك" و"كومينترى" و"ميدستريم"، وحتى فى "تيكون" الليبرالية وهى مجلات يساهم فيها كتاب بارزون يحتلون موقع الصدارة فى الثقافة الأمريكية، وكلها تنشر أفكاراً لا تختلف كثيراً عن أفكار "مايير كاهانا".

• • •

وهكذا.. كان الضمور يمارس أثره فى النفس العربية وكان الإنتفاخ يوالى فعله فى النفس اليهودية، وما بين الضمور والإنتفاخ كان الطرفان يعيدان حساباتهما، طرف يفكر فى التراجع وآخر يسعى للمزيد.

وكان طبيعياً - والحال كذلك - أن يصبح خيار التسوية عند العرب أقرب للقبول

ولدى إسرائيل أقرب إلى الرفض، وبعد أن كان على إسرائيل بعد النكبة أن تبذل الكثير حتى يتحرك العرب صوب التسوية، كان على العرب بعد النكبة أن يبذلوا المستحيل حتى يتحرك إسرائيل في عملية السلام.

وبرغم الانتصار الكبير الذي تحقق عام 1973م، فإن تداعيات النكبة والنكسة لم تقطعها إنجازات الحرب وبريق الانتصار، فبعد قتال عظيم ونصر مجيد، جاءت النتائج السياسية لتضع الحرب في إطار أكثر ضعفاً وأظلماً بريقاً.. ولتصبح المعركة بكاملها دافعاً للحركة نحو التسوية.

• • •

جاءت التسوية بآراء عديدة وأفكار جديدة، وشاع الحديث عن صلة القربى بين العرب واليهود، وعن الوحدة الإبراهيمية بين الإسلام واليهودية، وعن المشكلة النفسية بين العرب واليهود، وكتب "هيربرت كيلمان" الأستاذ في جامعة هارفارد عن الحاجز النفسي، وعن أن الصراع على فلسطين لم يكن في الأساس صراعاً حقيقياً أو مادياً بل كان نتيجة سوء تفاهم نفسي يمكن تجاوزه.

والواقع.. أن فكر التسوية كان وليد النكسة، وأن نوعه وقبوله كان الأثر المباشر لها، والواقع أيضاً.. أن الرغبة في التسوية جاءت متزامنة ولأسباب مختلفة لدى الجانبين، فالنكسة بما أتت لإسرائيل جاءت فرصة ذهبية للتسوية في ظلال الانتصار، والنكسة بما أخذت من العرب جاءت عملية ضاغطة للتسوية في ظل الإنكار.

وكم هو مدهش ألا يلحظ المرء مشروعات تسوية ظاهرة قدمتها إسرائيل قبل عام 1967م، ثم يرى فيها منها تتابع في غير إنقطاع بعد ذلك العام.

• • •

يعرض "أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو" في كتابهما "الفكر السياسي الإسرائيلي" الصادر عام 1990م مشروعات التسوية الرئيسية التي طرحتها إسرائيل بعد النكسة. ويذكر المؤلفان أن "ديفيد بن جوريون" كان أول من طرح أفكاراً حول منح السكان

الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة حكماً ذاتياً يديرون شئون حياتهم فى إطاره، وذلك بعد أن وضعت حرب يونيو أوزارها بأسبوعين.. وقد وضع الشروع مدينة القدس فى حدود دولة إسرائيل وكذلك قطاع غزة، على أن يجرى توطين اللاجئين الفلسطينيين فى الضفة الغربية، وفيها يتم اختيار ممثلين للتفاوض معهم حول الحكم الذاتى.

• • •

ثم كان مشروع الجنرال "ايغال آلون" أحد أبرز شخصيات حزب العمل.. والذى انصب على ضرورة التخلص من المدن والمراكز الحضرية السكانية وإعادتها إلى الأردن، والتمسك ومواصلة السيطرة على الأراضى الواسعة الخصبة فى الأغوار وشمال الضفة الغربية ومناطق واسعة من ريف المدن الفلسطينية.

وطبقاً للمشروع.. فإن الحدود الأمنية لإسرائيل تمتد على طول نهر الأردن ومنتصف البحر الميت وصولاً إلى حدود الإنتداب التى تمر فى وادى عربة. وفيما يتعلق بالسكان الفلسطينيين، فقد دعا الشروع إلى تشجيع زعماء الضفة لإقامة إطار الحكم الذاتى إلى جانب التعاون الإقتصادى، إضافة إلى احتمال وجود معاهدة دفاع مشترك، وتعاون علمى وثقافى بين الطرفين. وفى عام 1970م عاد آلون وعدل الشروع وأخرج غزة من حدود إسرائيل.

• • •

وبعد "ايغال آلون" جاء "موشى دايان" وزير الدفاع ووزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق.. وهو أول من قال بتقاسم السيادة بين الأردن وإسرائيل عن طريق الأمر الواقع.. أى تعتبر الأرض جزءاً من إسرائيل وتحت سيادتها، فى حين يقترح للسكان المقيمين عليها التمتع بالجنسية الأردنية كرعايا ومواطنين أردنيين.. أى اقتسام السيادة. السيادة على الأرض تختص بها إسرائيل والسيادة على السكان تكون من نصيب الأردن باعتبارهم مواطنين أردنيين.

ومعنى ذلك أنه إذا كان مشروع "آلون" يريد أكبر قدر من الأرض بأقل قدر من السكان، فإن دايان أراد كل الأرض مع فصل كل السكان، باعتبارهم مواطنين أردنيين

يخضعون للأجهزة وللقوانين الأردنية.

• • •

بعد "دايان" جاء "شيمون بيريز"، وبالقدر الذي ينسب فيه "الحل الإقليمي" مع الأردن إلى ايجال آلون. و"الحل الوظيفي" أي تقسيم السيادة إلى موشي دايان.. فلأن حل "الإدارة الذاتية" ينتسب إلى شيمون بيريز، فقد انتهز بيريز زيارته لبلدة "بيت جالا" في الضفة الغربية في أكتوبر عام 1975م ليقول: "إن الظروف قد نضجت لمنح الضفة الغربية حكماً ذاتياً". واستهدف بيريز من ذلك خلق "إدارة ذاتية" تقبل أن تكون بديلاً لنظمة التحرير الفلسطينية وتقويض مشروعها لإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

• • •

في عام 1977م وصل الليكود إلى الحكم في إسرائيل، وتوقع الكثيرون أن يعلن "مناحم بيجن" ضم الضفة وغزة رسمياً وعندما سأله أحد الصحفيين: ما مصير الأراضي المحتلة؟ أجاب: "أراضٍ محتلة؟.. أية أراضٍ محتلة؟ لملك تقصد يهودا والسامرة لقد تم تحريرهما وعادتاً جزءاً من إسرائيل".

ولكن بيجن واجه مشكلة النمو السكاني للفلسطينيين.. فطرح مشروعاً للحكم الذاتي أمام الكنيست في 28 ديسمبر 1977م. واقترح الشروع بإلغاء الحكم العسكري في الضفة وغزة، وإقامة حكم ذاتي إداري للسكان العرب بواسطة المقيمين.

وينتخب السكان مجلساً إدارياً مدته أربع سنوات مقره في بيت لحم وله جميع المسائل الإدارية المتعلقة بالسكان العرب، ويُمنح السكان حق الاختيار بين الجنسية الإسرائيلية والأردنية، ويُعهد بشئون الأمن والنظام العام إلى السلطات الإسرائيلية.

ويرى بعض المحللين أن مشروع الحكم الذاتي للضفة وغزة الذي طُرح أثناء مفاوضات "كامب ديفيد" قد استند إلى مشروع مناخم بيجن.

• • •



ثم جاء "آرييل شارون" حيث وافقت الحكومة الإسرائيلية على مشروعه الداعي إلى إجراء حوارات مع الرموز الفلسطينية المعتدلة، وإيجاد قيادات بديلة عن منظمة التحرير، وإيجاد وطن بديل في الأردن أو لبنان.

وقد رفض "بسام الشكعة" رئيس بلدية نابلس، و"كريم خلف" رئيس بلدية رام الله، و"رشاد الشوا" رئيس بلدية غزة ذلك المشروع وأعلنوا وقوفهم خلف منظمة التحرير الفلسطينية وهدف الدولة المستقلة.

• • •

طيلة النصف الأول من الثمانينات لم تقدم مشروعات جديدة إلى أن اندلعت الإنتفاضة الفلسطينية في 9 ديسمبر 1987م، ولقيت نجاحاً في أحداثها وآثارها، وكان "يعقوبى" وزير الاتصالات الإسرائيلي وأحد زعماء حزب العمل أول من اعترف بالتأثير المتزايد للإنتفاضة على الإقتصاد الإسرائيلي، فقدم مشروعاً عام 1988م يتضمن التفاوض مع الفلسطينيين الذين يقبلون الشروط الأمريكية.

• • •

دعا يعقوبى إلى إتحاد كونغيدرالى أردنى - فلسطينى يكون منزوع السلاح وتحت سيطرة إسرائيل، على ألا تكون القدس موضوعاً للحوار. وفيما ستمتصر المستوطنات، فإن الجيش سيهتق منتشراً على طول نهر الأردن.. برغم القبول بفتح معابر وإقامة علاقات طبيعية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية.

وقريباً من ذلك قدم "بنيامين بن اليعازر" عضو الكنيست الإسرائيلى مشروعه عام 1989م.

وجاءت خطة "بيريز" فى نفس العام لتقول بحلّ على نمط بول البيلوكس.. أى إقامة ثلاثة كيانات مرتبطة بإتحاد فيدرالى أو كونفيدرالى، وتشترط الخطة وجود جيشين فقط.. إسرائيلى وأردنى لحماية الكيانات الثلاث وتجريد الضفة والقطاع من ذلك تماماً.

• • •

لم يمض عام حتى تفجرت الأوضاع فى منطقة الخليج العربى واندلعت الحرب فى  
يناير عام 1991م، وكان من بين ظروف الحرب وربما شروطها أن تتوجه الولايات المتحدة  
صوب فلسطين عازمة على تسوية تكون ختام التسويات.. أو سلام ينهى كل سلام.

مفاوضات سلام

تمضى من غير سلام

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

بدا المشهد الإفتتاحى لعملية التسوية.. فى خريف 1991م صاخباً ومشوقاً، فقد قام وزير الخارجية السورى "فاروق الشرع" بوضع صورة "اسحق شامير" حين كان إرهابياً ينتظم فى العصابات الصهيونية أمام عدسات التصوير العالمية.

وقد زادت دوافع التشويق بعد إنفصال الوفد الفلسطينى عن الوفد الأردنى الذى كان جزءاً منه، ثم ما كان متجدداً باستمرار من استقالات فى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية وفى وفد المفاوضين، ومن إعتراضات المنظمات الفلسطينية العخر على اتفاق "غزة - أريحا أولاً" وما تلاه من مراحل التسوية.

وجاء إعلان اتفاق أوسلو بعد مفاوضات سرية جرت بين الفلسطينيين والإسرائيليين برعاية من عرفات ومن حكومة إسرائيل.. مناسبة أخرى للجدل والإستقطاب وإحياء مفاهيم الخيانة والنضال بعد طول غياب.

لقد أسفر الإعلان فى أوسلو عن التوصل لاتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل عن غضب واسع.

وبالتوازي مع ما أعلنه "حيدر عبدالشافى" رئيس الوفد الفلسطينى المفاوض عن رفضه التوقيع على الاتفاق لأنه لا يعالج إحتلال إسرائيل للأراضى المحتلة، وهو نفس الموقف الذى اتخذه "فاروق قديمى" رئيس الدائرة السياسية فى المنظمة، أعلنت عشر منظمات فلسطينية معارضتها للاتفاق وكانت حركة حماس فى مقدمة المنظمات المشر.

رفضت حركة "حماس" الاتفاق على أساس أن الوفد الفلسطينى المفاوض (سراً وعلانية) لا يمثل إلا نفسه، وأن المقاومة المسلحة وكافة أشكال الكفاح ستبقى كما هى وربما تزيد، على إعتبار أن الحكم الذاتى لا يصلح حتى كبداية لنهاية الإحتلال الإسرائيلى لفلسطين.

ودعت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" بزعامة "جورج حبش" والتي تمثل

الفصيل الثاني ضمن فصائل منظمة التحرير إلى عقد مؤتمر شعبي في الأراضي المحتلة لإختيار قيادة جديدة لمنظمة التحرير بدلاً من عرفات.

وأما "الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" بزعامة "نايف حواتمة" والتي تمثل الفصيل الثالث في منظمة التحرير فقد عارضت الاتفاق ورات في الشرطة الفلسطينية المقترحة أداة للقمع داخل غزة وأريحا.

وعارضت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة" بزعامة "أحمد جبريل" والمنشقة على منظمة التحرير الاتفاق وهددت بإفتيال عرفات.

وهو الموقف ذاته الذي اتخذته "جبهة الإنقاذ الفلسطينية" بزعامة "خالد الفاهوم"، وهي جبهة فلسطينية مكونة من أربع منظمات متحدة، حيث رأت الجبهة أن الاتفاق يناقض حق تقرير المصير وإقامة الدولة، وأنه حتى لو امتد إلى نابلس وجنين وبيت لحم والخليل في الضفة الغربية لستكون بلديات وليس حكومة، وهذه المدن مفصولة بمستوطنات عن بعضها ومفصولة عن القدس.

إضافة إلى ذلك، فإن الاتفاق جعل ملايين الفلسطينيين في الشتات غير فلسطينيين وليس لهم حق العودة إلى وطنهم.

وقريباً من هذا التبرير قدمت "جبهة النضال" بزعامة "أبوفادي الشمال"، و"جماعة أبونضال"، و"الإتحاد الإسلامي للفلسطينيين" وهو إتحاد إسلامي يشمل الأمريكيين من أصل فلسطيني ومقره واشنطن، و"جبهة التحرير العربية" وهي منظمة فلسطينية موالية للعراق أثناء حكم صدام حسين وكانت تتخذ من بغداد مقراً لها - حيثيات رفضها الاتفاق.

وأما "حركة الجهاد الإسلامي - بيت المقدس" التي يتزعمها "أسعد التميمي" فقد أعلنت أن الاتفاق باطل شرعاً، وسحبت ممثلها من المؤسسات الفلسطينية المرتبطة بالمنظمة، وترى الحركة أن أرض فلسطين تمتد من النهر إلى البحر (نهر الأردن - البحر المتوسط).

وقد انشقت عنها في عام 1990م "حركة الجهاد الإسلامي - كتائب الأقصى"

بزعامه "عبدالله الأسود". والمنظمة الأخيرة ومعها "منظمة الحركة الإسلامية في فلسطين 1948م" بزعامه "الشيخ عبدالله نمر".. أهدتا الاتفاق.

• • •

كان هجوم هذه المنظمات العشر ومعها مفكرين وساسة عرب في كل مكان.. قاسياً وضارياً.. وعلى الرغم من إبهام الصورة التي كانت تحملها آلات التصوير، بلا إبطاء، عن القادة الفلسطينيين والإسرائيليين والرعاة الأمريكيين، فإن جانباً كبيراً ظل يكذب الصورة وينفى الخبر ويستبعد أن يعود عرفات إلى الأراضي المحتلة أو أن تنحأ سلطة فلسطينية تتفاوض على قيام الدولة.

كان البعض يفعل ذلك لرغبة نفسية في عدم التصديق بعد ربع قرن من تداعيات الهزيمة التي اشتملت معاركها في 1967م وبقيت آثارها تضغط على الوعي والفعل معاً، وكان آخرون يصدقون المشهد بمفرده ولديهم أحاسيس تقارب اليقين بأنه مشهد متفرد ومناسبة وحيدة واتفاق لن يتجاوز الاحتفال.

ظهر أن النخبة المثقفة كانت على رأي ثالث.. هو تصديق المشهد وتكذيب الرسالة، وكان تقدير هؤلاء أن عرفات يسرع في السقوط وأن الاتفاق هزيمة بغير حرب ونهاية بانسة لنضال عظيم. وفي مقدمة هؤلاء برز الفكر الفلسطيني "إيوارد سعيد" غاضباً.. راضياً.. ناقماً على المشهد ومن فيه.

• • •

بعد "إيوارد سعيد" الفكر الفلسطيني الأكثر شهرة وحضوراً في عصر التسوية، وقد ظهر بمثابة المعادل الثقافي لياسر عرفات، كان "عرفات" مضغوطاً بضيق البدائل وصعوبة الحركة وتقدم العمر.. وكان "سعيد" منفِعلاً بضعف البدائل ورعونة الحركة وإنكسار العمر. لقد جثم العمر على التاريخ، وبدا كلاهما أسير الإحساس الخاص بقرب الآخرة ونهاية التاريخ. وتعامل "عرفات" على إعتبار أنه الحل الأخير الذي لا يجوز معه تأخير

ولا تأجيل، وتعامل "سعيد" على أنه الخطأ الأخير الذي لا يجدى معه إصلاح ولا تعديل. وبينهما تعاقبت أفكار ومواقف بألوان الطيف تفاوتت في المدى وتتباين في الرؤية.

أجمل "إيوارد سعيد" - الذي تعلم في كلية فيكتوريا بالإسكندرية ودرس في جامعتي برنستون وهارفارد بالولايات المتحدة وعمل أستاذاً بجامعة كولومبيا - رؤيته الراضية لاتفاق غزة - أريحا في كتابه "غزة - أريحا.. سلام أمريكي" الذي قدمه "محمد حسنين هيكل" ونشرته دار المستقبل العربي في القاهرة عام 1994م.

يعتبر "إيوارد سعيد" يوم 13 سبتمبر 1993م - تاريخ توقيع الاتفاق يوم الحداد القومي الفلسطيني.. فقد فرطت منظمة التحرير في حق تقرير العير وفي القدس واللجئين، وتم تقسيم الشعب الفلسطيني إلى جزء داخل الأراضي المحتلة يتم التعامل معه في إطار عملية السلام، وآخرين يمثلون (55%) من الفلسطينيين تتجاهلهم عملية السلام.

لقد ذهب الجانب الفلسطيني للتفاوض على اتفاقية ملزمة بولياً بون أن يأخذ معه مستشارين أكفاء، وكانت حفنة المفاوضين السريين تنقصهم الدراية والحكمة ولم تكن لديهم خرائط تفصيلية ولا معرفة جادة بالأرقام والحقائق، ولا إلماً حقيقياً بطبيعة إسرائيل.

وقد عانت منظمة التحرير من انعدام الكفاءة الفنية بعد أن قبلت التفاوض باللغة الإنجليزية التي لا يعرفها عرفات ولا مبعوثه في أوسلو، ودون مستشار قانوني بعد أن استقال المفاوضان القانونيان الرئيسيان للمنظمة احتجاجاً على ما كان يجري. ولم يبق غير عرفات ومرفوسيه في مواجهة طاقم كامل من خبراء وزارة الخارجية الإسرائيلية.

ويصف "عاموس عوز" المحسوب على تيار السلام في إسرائيل الاتفاق بأنه "ثاني أكبر انتصار في تاريخ الصهيونية"، فيما يصفه "إيوارد سعيد" بأنه "فرساي فلسطينية"، بدأ فيها كلينتون وكأنه إمبراطور روماني يسوق ملكين تابعين نحو حظيرة الوفاق والخنوع. ويزيد "سعيد" في نقد عرفات - شخصاً وأداءً - ليخلص إلى أن الفلسطينيين كشعب



خسر المعركة.. والأليق له أن يعترف بالهزيمة وإعادة البناء بدلاً من المباهاة الفارغة.

يقول "إيوارد سعيد": لم يسبق لعرفات أن شاهد في حياته مستوطنة إسرائيلية، والآن توجد (200) مستوطنة أغلبها في القلالي والمناطق الإستراتيجية في غزة والقطاع، ومساحة الأرض الفعلية لهذه المستوطنات بالإضافة إلى المساحات المخصصة للمصادرة تزيد على (55%) من مساحة الأراضي المحتلة كلها:

وفي غزة تشكل الـ (3) مستوطنات في الشمال، (2) في الوسط، (12) في الجنوب.. على طول الخط الساحلي من الحدود المصرية مروراً بخان يونس (30%) من مساحة القطاع، وتمتد إسرائيل الأبار في الضفة وتستهلك (80%) منها. وللأسف.. فإن المعلومات المتعلقة بالمستوطنات والأراضي والحياة كلها بين يدي إسرائيل.

لقد صارت الضفة والقطاع بأكملهما مقسمتين إلى عشرة كانتونات أو أحد عشر كانتوناً، تعبرها ممرات تبدأ من القدس وتتجه إلى الخرق والجنوب لإقامة المستوطنات والطرق.. وكلها تسيطر عليها إسرائيل.

وينقل "إيوارد سعيد" عن الخبير الهولندي "يان دي يونج" فكرة إسرائيل في إحاطة القدس بحلقتين من المستوطنات متحدتي المركز.. الحلقة الأولى تضم مستوطنات (راموت ونيف ياكوف وتالبيوت وجيلو).. والحلقة الثانية تضم مستوطنات (رخس شوجات وهارحوماه) ويشكل ذلك من حيث المساحة معظم وسط الضفة الغربية من بيرزيت في الشمال حتى ضواحي الخليل في الجنوب، ولن تواجه إسرائيل أية تحديات تذكر في نطاق هذه المساحة الكبيرة.

ويقترح البعض في إسرائيل بناء مدينة جديدة تقع لما يقرب من (300) ألف نسمة تسمى "القدس" وراء نطاق الحلقتين المشار إليهما، ويقضى الاقتراح بإعطاء المدينة الجديدة للفلسطينيين بدلاً من القدس الحقيقية.. ويرى "دي يونج" رداً على ذلك أن يعتبر الفلسطينيون أنفسهم جزءاً من وحدة أكبر لا تكون القدس فيها محصورة في شارع صلاح

الدين والسلطان سليمان، وإنما تكون مدينة تمتد من "العازرية" إلى منطقة "بيت حنانيا - شعفاط" حيث يمكنهم أن يفكروا في إيجاد فرصة للتنمية هناك.

• • •

وإذا كان هذا هو الحال بشأن القدس والمستوطنات فإن الحال في شأن اللاجئين لا يقل بؤساً وخطراً.. حيث يقدر إدوارد سعيد أن (50%) من الفلسطينيين يقيمون بالخارج، (350) ألفاً يقيمون في لبنان، وضعفهم في سوريا، وكثيرون في دول أخرى.. وترفض لبنان كما ترفض بلدان أخرى منح اللاجئين الفلسطينيين الجنسية.

إن هؤلاء جميعاً لم يتم الاتفاق بشأنهم، ولا يمكن أن يخطر على بال أحد أن يرغب جميع اللاجئين الفلسطينيين منذ 1948م في العودة إلى رقعة صغيرة من الأرض كالتى يقترح أن تقام عليها الدولة الفلسطينية، ولكن ما لا يمكن قبوله أيضاً هو أن يطلب منهم أن يقبلوا بـ "إعادة توطينهم" في أماكن أخرى أو أن يتخلوا عن آمالهم بشأن عودتهم.

• • •

وفي حال الداخل.. تصف "سارة روى" في دراسة هامة عنوانها "تحليل مسمى لقطاع غزة" حالة البؤس التى عليها الناس والحياة.

و"سارة روى" هى يهودية أمريكية.. زارت غزة ولها أقارب في إسرائيل، على أنها سرعان ما اكتشفت حجم المأساة الفلسطينية فعمقت على فهمها والمساعدة فى حلها، وتطوع زوجها الطبيب للعمل فى المستشفى الأهلى.. أكبر مستشفيات غزة، وهى واحدة من أهم الباحثات فى أحوال قطاع غزة.

تذكر الباحثة أنه فى عام 1993م - حيث جرى الاتفاق - كانت نسبة البطالة فى غزة (50%)، وفى الضفة (35%)، وعندما أعلنت وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة عن حاجتها إلى (8) زبائين تقدم لشغل الوظيفة (11655) شخصاً. وفى حين لا

يرغب سكان الضفة في ربط مصالحهم بغزة فإن اللجان التي شكلتها السلطة الفلسطينية لحل المشكلات لا تفعل شيئاً، وأما المجلس الإقتصادي للتجارية والإعمار الذي أنشأته منظمة التحرير فلا يتمتع بالمصداقية لدى الجهات المانحة.

• • •

يوصل إيوارد سعيد: إن عرفات لم يفعل شيئاً من أجل ذلك.. لكنه دخل إلى غزة ومعه (6) أجهزة استخباراتية لابد أن لها صلة بالموساد والشين بيت تقدم تقارير إليهما، وبعض المواطنين لا قوا حتفهم من التعذيب، وتم إغلاق بعض الصحف، وتعرض معارضو عرفات لملاحقات أجهزة الأمن.

كما أن إختهار عرفات لرجاله قد مثل إهانة سافرة لكل الفلسطينيين.. فالمستول الأول عن الأمن والخابرات هو نفسه سفير المنظمة في تونس ومكاتبه ومقاره كانت مخترقة من قبل الموساد، والقائد العسكري لأريحا كانت المحكمة العسكرية قد قضت بادانته بتهم الجبن والهروب من الميدان عندما فرّ من جنوب لبنان إبان الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982م. هذا غير أنباء الفساد المالي وكثرة النعابين القادمين من كل مكان.

وينقل "إيوارد سعيد" عن "شفيق الحوت" الذي استقال مع "محمود درويش" من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أن عرفات أصبح أوتوقراطياً وإدارته المالية تحولت إلى كارثة، وهو ليس مسئولاً أمام أي أحد.. وهو وحفنة صغيرة من الأشخاص يتخذون قرارات تخص (6) مليون فلسطيني.

• • •

بالتوازي مع فقدان الثقة في عرفات، تتفاقم أزمة الثقة في الولايات المتحدة التي تعرض نفسها وسيطاً نزيهاً في الصراع. فقد أغدقت الحكومات الأمريكية خلال السنوات العشرين الأخيرة أكثر من (80) مليار دولار من أجل أمن إسرائيل. هذا الدعم هو الذي مكّن من غزو لبنان أكثر من مرة، ومكّنها من الاستمرار في إحتلالها للأراضي العربية، وأبطلت

لها مفعول (29) قرار تندد بإسرائيل.

ثم إن "مارتن إنديك" و"بينس روس" هما العقلمان المدبران وراء سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط خلال معظم مراحل التسوية.

و"إنديك" يهودى استرالى عمل في "معهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط" وهي مؤسسة أبحاث مرتبطة باللجنة الإسرائيلية - الأمريكية للشنون العامة "إيباك" وباللوبي الصهيونى ويحزب الليكود، وقد أعطى الجنسية الأمريكية أوائل عام 1993م قبل أيام من تعيينه في مجلس الأمن القومى وإدخاله إلى البيت الأبيض.

كما أن "بينس روس" يهودى هو الآخر وقد عمل أيضاً في نفس المعهد الوثيق الصلة بالليكود وفيما اختفى كل الخبراء أصحاب الآراء المضادة وحتى الدبلوماسيين المحترفين أمثال "ريتشارد ميرفى" و"هارون سوندرز"... فإن إنديك وروس يعملان بجهد من أجل إسرائيل.

• • •

يعرض "إوارد سعيد" ختام رأيه في الحرب والسلام فيقول: "لقد كنت عضواً في المجلس الوطنى الفلسطينى منذ 1977 إلى 1991، وقد أعطيت صوتى في دورة المجلس الفلسطينى التى انعقدت في الجزائر عام 1988 لصالح حل القضية الفلسطينة على أساس وجود بولتين.

إلا أننى، أبنت منذ 1991 الأسلوب الذى يتم به إهدار المكاسب التى حققتها الإنتفاضة، وقبول عرفات وحفنة من مستشاريه ما تملبه واشنطن، وقد أدت السياسات الخاطئة لمنظمة التحرير إبان أزمة الخليج والإدارة غير الرشيدة للأموال وللأصول الفلسطينة إلى هذا التحول.. لقد فرطت المنظمة في كل شيء".

"إن الصراع لا يمكن حله حلاً عسكرياً محضاً، فأنا أؤمن بتصالح الشعوب، لكنه لا يمكن أن يتم قسراً، كما أنه لا يتحقق أبداً بين مجتمعات وثقافات تتفاوت قوتها بشدة

ويسيطر بعضها على البعض الآخر بالقوة.. لقد نجحت إسرائيل في اقناع العرب والقيادة الفلسطينية بأن المساواة مع إسرائيل أمر مستحيل، ولا سلام إلا بشروط إسرائيل والولايات المتحدة، فاستسلمت النخب الحاكمة لأسطورة أمريكا والوهم الزائف عن أمريكا وليس حتى لأمريكا بوزنها الفعلي، وكثيراً ما تساورني الدهشة من جهل العالم العربي الرسمي بها، والافتراض القاصر الذي يحكم المعرفة العربية الرسمية بها.. وهو أنه يمكن كسب أمريكا لعف العالم العربي".

• • •

لقد جاءت أوسلو بعد مدريد بعامين.. وعلى الرغم من أن المسافة الممتدة من أكتوبر 1991م إلى سبتمبر 1993م كانت تحتل - بطبيعة الحال - أن يكون في الألق اتفاقاً أو إعلاناً أو آتياً من صيغ التفاهم، فإن الإعلان في أوسلو عن اتفاق إعلان المبادئ الفلسطيني - الإسرائيلي جاء مفاجئاً بل ومباغتاً للجميع.

وعلى قدر المفاجأة، راحت ربود الفعل تتوالى تقديمياً وتدنيماً، وتعظيماً وتخويناً، وراح المساة والمثقفون معاً - مأخونين باحتمالات نهاية الصراع - يغيبون في موجة من الاضطرابات الذهنية ما بين منظومة صياح تباع أي سلام، ومنظومة نواح تعارض كل سلام. ولاحت أمام الذهن خبرة الصهيونية نفسها، حين كانت المسياة تمضي فعلاً، والفكر يمضي قولاً، ثم كان نجاح الصهيونية لأن المسياة كانت أسبق من الفكر، وكان القادة أقدر من المفكرين، حتى لقد قامت إسرائيل.. وكان البعض لا يزال يناقش ويمحس.

وجاءت أوسلو لتطرح إشكالية مقاربة كانت كامب ديفيد قد أثارها في السبعينات.. هل تتاح الفرصة للسياسة لتعمل وتكسب، أم تظل طموحات الحق التاريخي تُبطل أي حركة خشية إضاعة القضية؟.. أي هل تعمل "السياسة" ولو كان أداؤها أقل من التاريخ.. أم تعمل "الثقافة" ولو كان فعلها من خارج الجغرافيا؟..

والإجابة التي تروق للكثيرين.. هي كون الصراع العربي - الإسرائيلي صراع أرض

ورمز، جغرافيا وتاريخ.. سياسة وثقافة.

وهي إجابة صحيحة.. دقيقة، غير أن.. السؤال يبقى على حاله.. ماذا لو كانت الوقائع والموازن لا تمكن من الإجابة الصحيحة.. هل يمكن تقديم إجابة ما، ثم تحسين النتائج لاحقاً، أم يكون التأجيل من أجل إتاحة فرصة - قد لا تجيء - هو الحل؟ .

• • •

لقد كان السؤال صعباً، وجاءت معه جميع الإجابات مفتوحة، فلا الذين قبلوا أو سلو كان بمقدورهم الجواب الشافي، ولا الذين عارضوها كان لديهم البديل الكافي.

وحسب "عزمى بخارة"، فإن اتفاق أو سلو حذد الأسئلة ولم يحدد الأجوبة، وإن تجربة الثمانى سنوات الإنتقالية التى كان من المقترض أن تبنى الثقة بين الطرفين قد أدت فى الواقع إلى العكس.

وقد نخرت صحيفة "يديموت أحرورنوت" بعد اكتمال السنوات الثمان قول البروفيسور "جلبر" .. "ليس صحيحاً أننا كنا قريبين من الحل، لقد أوهمنا أنفسنا بذلك بتخجيع من النخبة السياسية.. إنه صراع غير قابل للحل".

ويدنا من جديد أن السياسة التى كان عليها أن تفتح بالمفاوضات مالم تفعله قدرة السلاح ولا قوة الخطاب.. قد فشلت فى مسعاها، ولم يعد سؤال "السياسة" و"الثقافة" وجيهاً بعد مرور سنوات على أو سلو كما كان فى السابق، فقد رحل رابين وتعاقب من بعده بيريز وبتنياهو وباراك وشارون ومرّ على الطريق أولمرت وليفني.. وعادت الأمور إلى الوراء.. وربما أبعد.

• • •

قدمت إسرائيل نموذجاً لا مثيل له فى إدارة المفاوضات.. من اتفاق إلى عشرات الاتفاقات على هامش الاتفاق، ثم إلى اتفاقات أخرى لتنفيذ هوامش الاتفاقات، وتلاشت

حرارة المتابعة تحت وطأة الملل والإعياء الذي سببه المفاوضون الإسرائيليون، حتى صارت عملية التسوية من أبعد الموضوعات في تفاصيلها عن ذهن الرأي العام العربي الذي لم يعد مدركاً ما جرى من اتفاقات وانسحابات وإعادات انتشار واحتلال.. وغير ذلك من أعباء الفهم والتمييز.

وينقل "محمد حسنين هيكل" عن الرئيس الفرنسي الأسبق "فرانسوا ميتران"، شرح بهريز لسياسة إسرائيل التفاوضية فيقول: "نحتاج وقتاً طويلاً.. نأخذ فيه الفلسطينيين إلى مائدة المفاوضات ثم نعود بهم من قرب المائدة، ونطرح عليهم شيئاً قد تكون مفيدة في تعليمهم دون أن تكون بالضرورة مؤدية إلى اتفاق معهم. سوف نعرض عليهم وساطات ووسطاء يذهبون بأفكار ومقترحات ويجيئون بأفكار ومقترحات. نتركهم يذهبون إلى واشنطن ونيويورك، ويمعون من واشنطن ونيويورك، ثم يكون من هذا الجهد كله.. أن يؤقلم الطرف الفلسطيني نفسه تدريجياً على كيفية تخفيض سقف توقعاته".

ويعتق "هيكل": هم يريدون عملية "تدويخ" قبل الدخول في الكلام "الجد".. وهذا الأسلوب في إدارة الصراع مع العرب قد صممه بن جوريون، وكل ما فعله بهريز هو أنه استلهم تنويعه منه وطبقها في إدارته للمفاوضات مع الفلسطينيين.. "التدويخ" عن طريق الإستنزاف السياسي.. أي أن "القلميد"، بهريز، كان مجرد صدى لصوت "الأستاذ" بن جوريون.

والواقع أن مثل هذا القول ينطبق على مرحلة ما بعد أوصلو أكثر مما ينطبق عليها ذاتها، فقد جاءت أوصلو أسرع مما كان متوقفاً، وكان مدى "التدويخ" فيها محتملاً، غير أن ما بعدها، كانت المراحة فيها تزيد عن الطاقة وتغوق الاحتمال.

• • •

عاد عرفات إلى فلسطين في شبه ملحمة أقرب إلى طقوس الماضي البعيد، جاء كملك كنعاني عاد من رحلة صيد طويلة في البراري البعيدة، رجع من رحلته بقليل من الصيد

وكثير من الإجهاد، وكان الزمن الفاصل بين الخروج والعودة واضحاً على عينيهِ الحمراءوتين ويديه المرتعشتين وجبينه المتكسر بفعل السنين، كما كان الزمن واضحاً على خبرة انقون وتباطؤ الخطى.. والثبات الطافى فوق بركان لايزال يراكم حممه فى هدوء.

وصل عرفات إلى غزة عن طريق مصر، وبينما كانت احتفالات القاهرة بذكرى ثورة يوليو تجرى فى موعدها عام 1994م، كان ياسر عرفات يتوجه إلى فلسطين.

كانت الثورة المصرية هى صانعة القضية الفلسطينية فى الضمير العربى، وكان خيارها، الذى لم يكتب له النجاح، هو كسر إسرائيل بالحرب، وفى ذكراها تماماً اختار عرفات أن يمضى إلى بلاده بعد مفاوضات كانت تمثل فيما قبل خيانة لدى الثورتين المصرية والفلسطينية معاً.

• • •

وصل عرفات، وفى صحبته مائة عام من الحزن، وكان على السلطة الفلسطينية التى غامرت بالعودة أن تبنى وطناً جرى تجريفه عبر عقود طوال، وكانت وعود الغرب الطازجة بالدعم والمساعدة لاتزال حاضرة فى ذهن رجال منظمة التحرير الفلسطينية.

وتوالت أوقات عصيبة، بدا خلالها حجم الإنهيار فى الإقتصاد الفلسطينى فوق المستطاع، فقد بلغ المعجز التجارى مع إسرائيل عام 1996م نحو (91%)، كما أن الدول المانحة والبنك الدولى لم يفيا إلا بجزء من العون المالى الذى تعهدا به، مليار ونصف المليار دولار خلال أربع سنوات بنقص مليارين عما كان مخططاً.

على أن انتصارات السياسة كانت تغطى إخفاقات الإقتصاد.

ويذكر "جميل هلال" فى كتابه "النظام السياسى الفلسطينى بعد أولسو" الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.. أن المؤسسات الدستورية للسلطة الفلسطينية قد اكتملت فى يناير 1996م، حيث تم انتخاب عرفات رئيساً لهذه السلطة، وانتخاب المجلس التشريعى بأعضائه الـ (88)، وأصبح الفلسطينيون يمارسون السلطات التشريعية والتنفيذية



والتضائية، كما أصبح لكيانهم السياسى عدداً من الرموز السيادية للدولة من علم ونشيد وطوابع بريد وعملة (له الحق فى إصدارها) ومكاتب تمثيلية للدول الأجنبية.

أقام عرفات نظامه السياسى معتمداً على حركة "فتح" فأصبح رجالها يشغلون (77٪) من مقاعد المجلس التشريعى، ويسيطرون على هيئة الإذاعة والتلفزيون ودائرة الإحصاء، وغيرها من المؤسسات والوزارات.

وباتفاق أوسلو سيطر عرفات على (60٪) من قطاع غزة، وأعيد انتشار القوات الإسرائيلية فى الضفة.

• • •

جاء "بنيامين نتنياهو" عام 1996م إلى إسرائيل ليقطع مسيرة أوسلو، وليجعل من رابين "فقيداً عزيزاً" لدى معظم العوام العربىة.

لقد أعيد النظر إلى رابين - الذى جاء بين شامير ونتنياهو - بكثير من التقدير من جانب حركات السلام ومؤيدى التسوية، على إعتبار أنه كان الأكثر حسماً والأبعد مدى فى قطع أشواط فى التفاوض، ثم ساعدته نهايته الدرامية برصاص اليمين المتطرف فى أن يكون - عند الطرف العربى - العدو الأقل عداءاً أو أفضل الأعداء فى إسرائيل.

وجاء نتنياهو بعد فترة فاترة قضاها بهيريز خلفاً لرابين.. ليمكث ثلاث سنوات عمل خلالها على التخلص من اتفاقيات أوسلو وشرع ينفذ سياسات تهويد القدس وتوسيع الاستيطان ومصادرة الأراضى. وعلى الرغم من ارتباط نتنياهو فى مسيرة التسوية باتفاق الخليل واتفاق واى ريفر، فإنه لم ينفذ أيّاً من التزاماته، وتم تجميد مسارات التفاوض.

• • •

جاء عام 1999م يحمل رغبة فلسطينية جارفة فى إعلان الدولة ومواجهة أزمات الحاضر والقادم معاً.. وقد مثل إصدار الإتحاد الأوروبى بيان برلين فى مارس 1999م الذى أكد فيه حق الشعب الفلسطينى الدائم وغير المشروط فى تقرير مصيره وإقامة دولته، وتطلعه

إلى تحقيق ذلك في وقت مبكر.. مقدمة دافئة..

ومع اقتراب الرابع من مايو 1999م، الموعد المحدد لإنهاء المرحلة الإنتقالية للحكم الذاتي بون أن تبدأ مفاوضات الوضع الدائم، أعلن عرفات عزمه إعلان الدولة، وقام بجولة واسعة ليهبش بقدمها.

ويذكر "نايف حواتمه" في كتابه "أبعد من أوسلو.. فلسطين إلى أين" أن عرفات قد زار أكثر من (67) دولة في (60) يوماً متلاحقة، ليحضر لإعلان تجسيد سيادة فلسطين، ووجد استعداباً من أغلبية دول الإتحاد الأوروبي، خاصة فرنسا للاعتراف بسيادة فلسطين، كما وافقت روسيا والصين واليابان وكندا وألمانيا وكل الدول الآسيوية والأفريقية ومعظم دول أمريكا اللاتينية، وحدها أمريكا طالبت بتمديد عمر أوسلو إلى مايو 2000م.

• • •

في أبريل 1999م.. اتفقت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية على عقد بورة خاصة للمجلس المركزي الفلسطيني لأول مرة منذ ست سنوات حين تم الإعلان عن اتفاق أوسلو، وكانت "سيادة فلسطين وعاصمتها القدس" هي جدول الأعمال. وقد حضرت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وأعلنت حركة المقاومة الإسلامية "حماس" مشاركتها كمرقب، والتقت للمرة الأولى فصائل منظمة التحرير على مربع وطني بارز مشترك لتجاوز أوسلو والدعوة لعدم تمديد الحكم الذاتي والمرحلة الإنتقالية بأى شكل.

وحسب "يوسى بيلين" في كتابه "ملامسة السلام" الذي صدر في لندن عام 1999م.. فإن مفاوضات قد عقدت على مدى عامين بين شخصيات أكاديمية فلسطينية وإسرائيلية وتوصلت إلى مبادئ بشأن قضايا التسوية النهائية.

وهكذا.. وفي مساحة زمنية واحدة، كان نغنيها هو يواصل عمله لإنهاء عملية السلام، وكان المفاوضون الفلسطينيون يتحدثون سراً مع المفاوضين الإسرائيليين حول قضايا التسوية النهائية، وكان عرفات وسط إجماع القوى السياسية الفلسطينية يعد لإعلان الدولة.

وفي مساحة زمنية تالية.. خرج نقتياهو من الساحة، وفشلت المفاوضات السرية، وتاجل إعلان الدولة، وبدأت مرحلة أخرى من الإعياء والإنهاك، فقد جاء "إيهود باراك" وسط أجواء من التفاؤل تستعيد زمن رابين، ثم رحل وسط عواصف ورياح.. وحرب، عادت معها الأمور كلها إلى نقطة الصفر.

• • •

ولد "إيهود باراك" في كيبوتز زراعي بمنطقة الجليل عام 1942م، درس الرياضيات والفيزياء في الجامعة العبرية بالقدس، وتخرج فيها عام 1968م، ثم حصل على درجة الماجستير في الميكانيكا من جامعة ستانفورد الأمريكية، أمضى (35) عاماً في الخدمة العسكرية من عام (1959م إلى عام 1995م)، وعمل بنيامين نقتياهو تحت قيادته كملازم ثان، وكان جوناثان الأخ الأكبر لنقتياهو نائباً لباراك في قيادة الوحدة، كما عمل أخوه الأصغر في الوحدة نفسها.

تدرب باراك على العمل الخاص في فرنسا عام 1964م، وقاد كتيبة دبابات في حرب الإستنزاف على الحدود المصرية عام 1969م، ثم صار قائد المنطقة العسكرية الجنوبية بعد 1973م. وتولى قيادة وحدة العمليات الخاصة السرية المعروفة باسم "سيبريت ماطال" التي نفذت عملية إغتيال ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية في منازلهم في قلب بيروت في صيف عام 1973م فيما تعرف بعملية "شارع الفردان".

وهي نفس الوحدة التي قامت بتحرير الرهائن الإسرائيليين المختطفين في مطار عنقبي بأوغندا في صيف عام 1976م، وهي أيضاً الوحدة التي إغتالت القائد الفلسطيني خليل الوزير "أبوجهاد" في أعقاب إنتفاضة 1987م. وتشير تقارير إلى أنه أصدر أوامر قتل (2000) أسير مصري في حرب 1967م.

حصل باراك علي أكبر عدد من النياشين بين كل جنرالات إسرائيل، واختاره رابين ليصبح الرئيس الرابع عشر لقيادة أركان الجيش عام 1991م.

انضم باراك إلى حزب العمل عام 1995م، واختاره رابين وزيراً للداخلية، ثم اغتيل رابين فاختره بهريز وزيراً للخارجية. وفي 1997م تولى رئاسة حزب العمل بعد فوزه الساحق على يوسي بيلين وشلومو بن عامى وافرايم سنيه، ثم كان فوزه على نتنياهو ووصله إلى رئاسة الحكومة في إسرائيل عام 1999م.

• • •

جاء باراك على اتفاقيات لم توقع، وتوقعات لم تنفذ، وتسوية لم تتم، وكان أهم ما جاء عليه باراك هو اتفاق واى ريفر، الذى وقع مذكرة التفاهم الخاصة به فى أكتوبر 1998م كل من عرفات ونتنهاو فى حضور الرئيس الأمريكى بيل كلينتون.

ومذكرة تفاهم واى ريفر هى الاتفاق العاشر فى سلسلة اتفاقات أوصلو التى كان من أهمها بروتوكول باريس الإقتصادى فى أبريل 1994م، واتفاق الحكم الذاتى لقطاع غزة وأريحا فى 4 مايو 1994م، والاتفاق الإنتقالى فى سبتمبر 1995م، وبروتوكول الخليل فى يناير 1997م.

استغرق التوقيع على مذكرة واى ريفر عشرين شهراً من التفاوض منذ التوقيع على بروتوكول الخليل إلى أن استضاف منتجع واى بلانتيشن الأمريكى آخر فصوله.

قامت إستراتيجية باراك على تعديل اتفاق واى ريفر الذى أبرمه عرفات مع نتنهاو، وتعديل الخريطة الخاصة بإعادة الانتشار، ودمج المرحلة الثالثة من إعادة الإنتشار مع مرحلة التسوية النهائية.

وبعد مفاوضات شاقة، ثم توقيع اتفاق جديد فى شرم الشيخ فى 5 سبتمبر 1999م فيما يعرف باتفاق "واى ريفر - 2"، وتضمن الاتفاق الجديد خطة لتنفيذ المسائل الملقة من اتفاقات المرحلة الإنتقالية.

أى أنه كان اتفاقاً لتنفيذ اتفاق كان هو الآخر اتفاقاً لتنفيذ اتفاق.. وجرى الاتفاق على

أن تبدأ مفاوضات التسوية النهائية في سبتمبر 1999م على أن ينتهي الطرفان من وضع اتفاق إطارى للتسوية النهائية في فبراير 2000م، وقدمت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت ضمانات للطرفين لتنفيذ الاتفاق.

• • •

انقصف عام 2000م دون التوصل إلى شيء، وكان انعقاد قمة كامب ديفيد الثانية والمفاوضات المضنية التي رافقتها، هو أهم محطة تالية.

جاءت مفاوضات كامب ديفيد لتراكم مزيداً من الإحباط لدى الطرف الفلسطيني المفاوض، فقد بات واضحاً أن الفلسطينيين يفاوضون الولايات المتحدة التي صارت أكثر اندماجاً في الرؤية الإسرائيلية أكثر من أى وقت مضى، ولأسباب عديدة كانت واشنطن أكثر تمجلاً من الطرفين المتفاوضين للوصول إلى حل، وبدأت الإدارة الأمريكية أكثر انشغالاً بما يجرى في فلسطين على نحو غير مسبوق.

• • •

كان الرئيس كلينتون يقضى وقتاً مطولاً في المتابعة الشخصية لسير التفاوض، وكان ينادى المفاوضين الفلسطينيين بأسمائهم وبدرجة مستغربة من التدليل والتبسط.. غير أن الحقائق من وراء جاذبية البيت الأبيض كانت تقول بخلاف الظاهر، فقد كان الفلسطينيون يفاوضون مجموعتين من اليهود.. يهود إسرائيل، ويهود من الولايات المتحدة الأمريكية.

ويذكر "محمد حسنين هيكل" أن مؤتمر كامب ديفيد الذي حضره السادات مع جيمى كارتر لم يمثل الوفد الأمريكى فيه غير يهودى واحد هو صموئيل لويس السفير الأمريكى السابق فى إسرائيل، وكان بقية الأعضاء مسيحيين. وفى مفاوضات كامب ديفيد الثانية التى حضرها عرفات مع بيل كلينتون، كان الوفد الأمريكى كله من اليهود ماعدا مسيحي واحد هو بيل كلينتون نفسه.

وعلى الرغم مما يقال حول أن الرئيس كلينتون كان أكثر رئيس أمريكى فى تاريخ

الولايات المتحدة إهتماماً بأزمة الشرق الأوسط، وتكريماً للجهد لحلها، ومشاركة شخصية في تقديم مقترحات لفك عقدها.. فالحقيقة أن قائمة اليهود في القيادة العليا الأمريكية في عهد كلينتون لا بد لها أن تلفت النظر.

هناك عند المستوى الأعلى "مادلين أولبرايت" وزيرة الخارجية، و"روبرت روبين" وزير الخزانة، و"ويليام كوهين" وزير الدفاع، و"جورج تينيت" مدير المخابرات المركزية الأمريكية، و"صمويل بيرجر" مستشار الرئيس للأمن القومي، و"رهم ايمنويل" كبير مستشاري الرئيس، و"جون بودستا" رئيس أركان البيت الأبيض، و"آلان جرينسبان" رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي، و"ايفيلين ليبلمان" المشرفة على الإنذاعات الخارجية بما فيها صوت أمريكا، و"سوزان توماسيس" كبيرة مساعدي هيلاري كلينتون..

والقائمة تتسع لتشمل مئات من رؤساء الوكالات، ومساعدي الوزراء، ورؤساء الإدارات، ومديري الهيئات.. هذا غير السفراء في وزارة الخارجية، وطبقاً لأوراق الوزارة.. فإن سفراء الولايات المتحدة في ألمانيا، وفرنسا، وبولندا، والدانمارك، والمجر، ورومانيا، وبلجيكا، وبيلاروسيا، وجنوب أفريقيا، والهند، وتركيا، ونيوزيلندا، ومصر، وإسرائيل، والسويد، والمغرب، وسنغافورة، وزامبيا، والبرازيل، والمكسيك، وكندا، وكوبا، والنرويج، وسويسرا.. جميعاً من اليهود، وفوقهم السفير "بينيوس روس"، المسئول لأكثر من عشر سنوات عن إدارة عملية التسوية في الشرق الأوسط.

ويقضى "بينيوس روس" معظم إجازاته في إسرائيل، وأما "مارتن انديك" مساعد وزيرة الخارجية أولبرايت فهو يهودي استرالي الأصل.. وهو الرئيس الفعلي للإيباك. وتضم "الإيباك" (240) ألف شخص معظمهم من نوى الحثية. من ساسة سابقين ورجال قانون واطلام وموظفين حكوميين سابقين وحاليين.

وقد أجمل أحد المفاوضين الفلسطينيين القول: "نحن نحاور فريقين إسرائيليين، واحد يحمل العلم الإسرائيلي والآخر يرفع العلم الأمريكي". وبتعبير "عزى بشارة".. فقد فاوضت واشنطن في كامب ديفيد للمرة الأولى باسم إسرائيل.

• • •

انعدت مفاوضات كامب ديفيد في ولاية ميريلاند في يوليو 2000م بطلب من باراك، حيث قدم صفقة متكاملة غطت جميع قضايا الوضع النهائي، بما في ذلك اقتراح لتقسيم القدس الشرقية. عرضت إسرائيل الانسحاب من بعض أحياء القدس الشرقية مقابل إبقاء سيطرتها على معظم البلدة القديمة، كما عرضت إمكان استقبال عدد محدود من اللاجئين في إطار جمع الشمل العائلي، مع بعض التعويضات لبعض اللاجئين. وكان العرض الأساسي من قبل إسرائيل يفصل ملف القدس عن باقي الملفات ويرجىء البت فيه إلى جولة تالية بعد عامين.

• • •

كان رأى عرفات وكلينتون معاً أن ذلك لا يكون حلاً نهائياً، لأن آلية تسوية لا تشمل القدس هي غير نهائية. وحسب المعلق الإسرائيلي "آفي شلايم" .. فإن باراك عاد وقدم صفقة متكاملة بما في ذلك تقسيم القدس الشرقية، وهو ما دعا المتحدثين باسمه للقول بأن باراك فاق أى رئيس وزراء سبقه في تلبية المطالب الفلسطينية.

وكانت غلطة باراك الكبرى - حسب شلايم - في إصراره على أن يصدر عرفات بياناً صريحاً بشأن إنهاء الصراع، ذلك أنه حتى في حال توقيعه لمثل هذا الإعلان فإن الصراع لن ينتهى. كان عرفات يتعرض لضغوط شديدة من الداخل ومن مصر والسعودية لكى لا يوقع، فقد أكد له أن العالم الإسلامى قاطبة له نصيب فى القدس، وليس الفلسطينين وحدهم، وبعد أسبوعين من المباحثات.. كانت الخطوط الحمراء لدى باراك و عرفات أكثر قوة من المساحات الرمادية التى حاولت الإدارة الأمريكية توسيعها قدر المستطاع.

فى لحظة واحدة، كان على باراك أن يقول قولة نهائية، أو "نهائية" إلى أن تكون هناك "نهائية" أخرى.. فى صراع دام مائة عام.

وكان على عرفات أن يغير خلاياه.. وهو يغير نسيج الصراع المعقد من طور إلى طور، ومن حياة إلى حياة.

• • •

كان باراك أضعف من السلام، وكان عرفات أضعف من الصدام وكانت كامب ديفيد الثانية لقاء أطراف لا تجرؤ على أكثر من اللقاء، وحسب وصف عضو الوفد الأمريكي "روبرت مالي" كان باراك يريد للمفاوضات أن تنتهي بإظهار عرفات رافضاً لمفحة عرضتها إسرائيل، وكان عرفات ثابتاً على الرفض.. دون بديل.

لقد حاول "يوسي بيلين" حينها أن يطرح أفكاراً جديدة.. دون جدوى، رأى "بيلين" أنه من الممكن إيجاد "حلول رمزية" تمكن إسرائيل والفلسطينيين من التأكيد على أن القدس عاصمة لهما.. "فالقدس إشكالية أساسية نظراً لما تمثله من قيمة رمزية ومعنوية، لكنها ليست حقيقية مثل الأمن.

وإذا ما تمكنا من حل المشكلة الرمزية بحلول رمزية، آنذاك يمكن التوصل إلى حلول حقيقية للمشكلة الحقيقية.. إذا تلاقت الحاجات الخاصة لليهود ومسلمي ومسيحيي القدس فإن مسألة السيادة عليها تصبح نظرية، ولكن إذا ما بدأ المفاوضون بمحاولة معرفة من هو المالك ومن هو سيد هذه المدينة.. عندئذ ستنتهي المفاوضات بالفشل".

غير أن احتقان السياسة كان أعقد من النظرية وأبعد من البلاغة.

• • •

مضى باراك في طريقه دون جديد، فقد تساوى داخله المختطف والمفاوض.. الجنرال والسياسي، ومع التساوى بدأ باراك منقسم الذات مشقوق الصورة.

ويصوغ "عزمي بشارة" هذه الحالة قائلاً.. "لقد انتخب باراك لكي يجلب السلام فقرب المنطقة إلى حافة الحرب، وانتخب لكي يدفع بعلمنة المجتمع والدولة إلى الأمام فخرجت طرقه بين التحالف مع المتدينين ومعاداتهم في الإعلام وبين الإصرار على نقل مولد كهربائى في يوم السبت بشكل أغاظ المتدينين، وقبول إعفاء تلاميذ المدارس الدينية من الخدمة بشكل أغاظ العلمانيين".

لقد طبع باراك مرحلته بطبيعته المفتتة.. دعا إلى علمانية لم تتمكن وإلى سلام لم



يتحقق. جاء من الجيش إلى السياسة يحمل مدفعاً على كتفه وابتسامة على وجهه.. لينتزع بالمدفع مالا تأتي به حرارة المصافحة.

جاء محمولاً على القوة مدفوعاً إلى السيطرة.. راغباً في أن تأتي المفاوضات بما يوفر على القوة عناء الفعل، وبما يكفى القدرة عناء الحركة، فذهب يصول ويجول بثقة تفوق اليقين.. إلى أن وصلت الأمور إلى منتهاها، فانطفئت القوة وترسبت العزيمة.. ثم خرج باراك كما جاء.. وجهاً بلا ملامح، وزمناً بلا تاريخ.

• • •

لم يرغب الرئيس كلينتون في أن يخادر البيت الأبيض بون أن يزرع الفميلة الأخيرة، علماً تُعوض ما فات من جهد ووساطات. ففي أيامه الأخيرة، طرحت واشنطن مبادرة نشطة لرعاية اتفاق سلام نهائى، وحسب "آفى شلايم" فى كتابه "حقيقة نابليون الصغير" قاصداً باراك.. فإن هذه المبادرة قد تحولت خطة السلام فيها تحولاً كبيراً لمصلحة الفلسطينيين مما كان فى كامب ديفيد.. فى قضايا القدس، وحدود الدولة واللجئين، وبموجبها.. تتنازل إسرائيل عن معظم القدس الشرقية ما عدا الحى اليهودى فى المدينة القديمة وممر يؤدى إليه.

وفى المقابل يتنازل الفلسطينيون عن حق عودة (7,3) مليون لاجىء الذى تؤيده الأمم المتحدة، وعلى رأس ذلك كله يحصل الفلسطينيون على بولة لهم على (95%) من أرض الضفة الغربية وكل قطاع غزة. وافق باراك على خطة كلينتون أساساً للمفاوضات، ربما على افتراض أن يرفضها عرفات، فيحقق هو بذلك انتصاراً دعائياً، ولكن عرفات أربك حساباته بقبول الخطة الأمريكية على ما فيها من شروط على أن الإعتبارات الخاصة بالانتخابات دفعت باراك إلى تغيير اتجاهه، حيث كان شارون يتقدم.

• • •

جاء "شارون" - الذى ولد عام 1928م - إلى الحياة فى بيت يعج بالخرافات

اليهودية والرومانية، وجاء تكوينه بمثل نشأته، يحوى زحاما من الجريمة والخيال، وبشكل عام.. لم يكن شارون شخصاً طبيعياً في أى وقت، بل ظل طيلة عمره مشغولاً بإبداع جرائمه.

انضم آرييل شارون لعصابات الهجاناه التى ارتكبت أعمالاً مروعة ضد العرب فى فلسطين قبل عام 1948م، وشارك فى سلاح الميدان عام 1948م.. حيث صار ضابطاً فى سن العشرين بدون الحصول على دورات الضباط

التحق فيما بعد بقسم الدراسات الشرقية بالجامعة العبرية، وكان شغوفاً بتاريخ الجيش الصليبي وتخرج من الجامعة بعد أن درس تاريخ الشرق المعاصر.

خرج شارون مما تربى ومما درس.. مؤمناً بالقوة.. وغير مكترث بأفكار التعايش أو الحوار. ويعترف آرييل شارون فى مذكراته.. بأنه خلال الفترة من (1953 - 1956م) أشرف بنفسه على تنفيذ مذبحة "قبية" و"قليلية" ومذبحة "كفر قاسم" واللاتى كان حصيلة قتلها فى معظمها من الأطفال.

ومن قبل، شارك شارون فى مذبحة "بئر ياسين" ومذبحة "اللد" عام 1948م، ومن بعد، شارك فى مذبحة "صابرا وشاتيلا" التى أشرف عليها وقادها كوزير للدفاع عام 1982م.. ثم مذابح أخرى.. توالى ضد الإنتفاضة الثانية.. ظهرت فيها خبرة الجريمة وبلادة المجرم.

لقد عاد شارون من أعتاب القبر ليدخل مئات الفلسطينيين إليه، وجاء فوزه على باراك تعبيراً عن الداخل الذى يزداد توحشاً وتطرفاً باستمرار. ربح شارون لأن المجتمع الإسرائيلى بات غارقاً فى أفكار اليمين المتطرف، ومعقداً فى إمكانية إنهاء الإنتفاضة وارغام الفلسطينيين على القبول بالممكن والمتاح.

ويرى بعض علماء الاجتماع الإسرائيليين أن استمرار التحول التدريجى نحو اليمين فى المجتمع الإسرائيلى هو تعبير عن وضع سكاني، حيث تزداد نسبة المصوتين المتدينين

والشركيين من بين المواطنين نتيجة لارتفاع نسبة الولاية لديهم.

وهو تحليل لا يسلم "عزمى بشارة" بصحته، فالذى جرى هو برأيه تحول واسع فى المزاج السياسى الإسرائيلى نحو اليمين.. "بل إن فوز باراك عام 1999م لم يكن فوزاً لليسار، فقد انتصر باراك فى حينه على نتنياهو وليس على اليمين.. فطريقة الانتخابات فرضت نجوماً لم ينشأوا داخل جهاز الحزبين وقلصت من نفوذ جهاز الحزب برلمانياً.. كما أن سياسة حزب العمل الإقتصادية لم تعد تختلف عن الليكود، بعد أن زال المشروع الإقتصادى للمستدرتوت بالخصخصة، وأما رؤية السلام فلم تعد تختلف هى الأخرى".

وهو ما جعل البعض يصف معركة شارون وباراك عام 2000م بأنها "معركة اللا معركة"، لا فارق فيها بين قاتل محترف كان يقتل متخفياً فى أزياء النساء، وبين قاتل محترف يفعل ذلك فى كامل لباسه العسكري وتحت أضواء الكاميرات.

• • •

لم يكن على شارون - بعد أن أتى باراك ونتاجها هو على أنفسهما - إلا أن يتقدم ويون برنامج ويون حديث، إذ أحاط نفسه بعشرين خبيراً ومستشاراً يتلخص عملهم بالمحافظة على صمته، وحصد شارون (62%) من أصوات الناخبين ووقف باراك عند (37,4%)، وهى المرة الأولى التى يصل فيها الفارق بين الفائز والخاسر إلى هذا الحد.

ثم جاء الدور على شيمون بيريز ليكمل مع شارون.. تلهفياً وتجميلاً، وقد مكن بيريز لشارون فى أن يحكم دون أن تكون له معارضة إلى يساره داخل إسرائيل، وأوجد بذلك طرفاً لا سابق له على الإطلاق.

• • •

عاد شارون إلى قلب الأحداث بعد أن اعتقد الكثيرون أن مستقبله السياسى انتهى، حين أدانته لجنة كاهان الإسرائيلىة التى تولت التحقيق فى مذابح "صبرا وشاتيلا" نتيجة لضغوط دولية لم يسبق لإسرائيل أن تعرضت لها.

عاد فى مشهد درامى حين قام باقتحام المسجد الأقصى.. لتتجه الأمور بعدها إلى

هاوية أخرى، وعلى الرغم من أن مشهد الاقتحام الذي عاد به شارون كان ينبغى أن يقضى عليه في ظروف تجرى تحت مظلة عامة من التسوية، فإنه على العكس تماماً قذف به إلى صدارة الحكم، وتحولت معه صورة "المجرم الأول" إلى "الرجل الأول" في إسرائيل.

وشرع شارون يقضى على فاعلية الوجود الفلسطيني.. عبر تدمير البنية الأساسية والمنشآت التابعة للسلطة الوطنية واقتحام القرى والمدن وقصفها بالأسلحة الثقيلة. وكذلك عبر إغتيال الكوادر الأساسية في القوى السياسية الفلسطينية.. فتح وحماس والجهاد.

وصار واضحاً للجميع أن حكومة شارون لا تريد استئناف أية مفاوضات، ولا تريد عملية سلام أصلاً.. بل تريد أمراً مختلفاً نوعياً، هو الإستفادة من دروس العملية السابقة من أجل إكمال أية عملية قائمة.. صار الهدف هو تفكيك عملية السلام ناتما، والقضاء عليها تماماً.

وحين كان شارون يمارع إلى إنهاء الوجود الفلسطيني تماماً.. كان الفلسطينيون يخوضون معركة مجيدة للدفاع عن الوطن الذي أنهكه النزيف، وتوالت أحداث الإنتفاضة الثانية.. لتضيق إلى الإنتفاضة الأولى تماماً جديدة وحقائق متجددة.

• • •

لم تكن الإنتفاضة الثانية مجرد رد فعل على سلوك استفزازي متعمد لشارون في اقتحام المسجد الأقصى.. بل جاءت - حسبما يقرر "قيس عبدالكريم" في "عشية الإنتفاضة" - كفعل سياسي شديد التعمق كانت له مقدماته وإرهاصاته وتراكماته المسبقة، وهو فعل يتواصل مادامت الأسباب التي أدت إلى ولادته قائمة.. كالإحتلال والاستيطان ووضع اللاجئين.. وهي الملفات التي لاتزال من غير حل.

لم تجيء الإنتفاضة الثانية كمشهد يعاكس مشهداً غير مقبول، بل جاءت كرؤية تتجاوز المشهد ومراجعة تتجاوز الموقف.. بعد أن بلغ الإحباط مبلغه ولم تعد "أوسلو" قادرة على الحركة للأمام.

كانت المستوطنات الإسرائيلية لاتزال تتوالى في حركة نبوية، وكان اللاجئون يرون

في الأفق إغلاقاً لقضيتهم وإبقاءً لشتاتهم، وأما القدس فقد استمرت عمليات تخریبها وتهویدها.. حتى إذا حلت التسوية النهائية لم تكن الأمور على حالتها كما كانت حين بدأت التسوية.

• • •

تعود القدس في نشأتها إلى (5000) سنة قبل الميلاد، وقد هُدمت وأعيد بناؤها مرة، (18) وتبلغ مساحة القدس القديمة داخل السور أقل من كيلومتر مربع، وعموماً فلا يوجد تقدير واحد لمساحة القدس.. وقد اعتادت إسرائيل منذ احتلالها بقية القدس عام 1967م أن تتحدث عن القدس الموحدة والقدس الكبرى وطبقاً لقراراتها الإدارية عام 1990م فإن مساحة القدس الكبرى تصل إلى (123) كيلومتراً.

ويطالب الجانب الفلسطيني بالمهادنة على كل القدس الشرقية التي يسيطر الإسرائيليون على ثلاثة أرباعها، ويبلغ عدد سكانها نحو (567) ألفاً من بينهم (70٪) من اليهود. وتتركز الأغلبية الساحقة من يهود القدس الشرقية في المستوطنات الإسرائيلية المحيطة بالمدينة القديمة، في حين لا يزيد عدد اليهود الموجودين في داخل منطقة الأسوار بالقدس القديمة عن ثلاثة آلاف يهودي، فيما يصل عدد السكان الفلسطينيين في القدس الشرقية إلى (200) ألف نسمة.

وتبلغ مساحة القدس الشرقية (4,6) كيلومتر مربع، وتقع المنطقة الدينية التي تحوى الأماكن المقدسة في نطاق (1) كيلومتر مربع. ومنذ عام 1967م تحاول إسرائيل تهويد المدينة التي سقطت في خضم النكسة، فأقامت عليها (15) مستوطنة، (17) حياً استيطانياً، وتحولت إلى سور يعزل المدينة عن محيطها الفلسطيني في الضفة الغربية. وبعد أوصلو تم حصر المساحات المتاحة للبناء الفلسطيني بما لا يتجاوز (7٪) من مساحة القدس الشرقية، وتحويل (40٪) من هذه المساحات إلى مناطق خضراء يمنع عليها البناء للفلسطينيين.

هذا في الوقت الذي تقدم فيها كل التسهيلات للنشاطات الاستيطانية حيث تجاوز

حجم البناء الاستيطاني في الفترة من (1994 – 1999م) أكثر من (43) ألف وحدة سكنية تم تشييدها بالتعاون بين وزارة الإسكان وبلدية القدس الإحتلالية ومجلس المستوطنات وأصحاب رؤوس الأموال المتطرفين.

وعموماً.. فإنه منذ إبرام اتفاق أوسلو 1993م وحتى عام 2000م، ارتفع عدد سكان المستوطنات إلى (195) ألف مستوطن يهودي دون حساب الاستيطان في القدس وضواحيها، أي بزيادة (77%) في عددهم، وبلغ المعدل السنوي المتوسط لزيادة عدد المستوطنين (12) ألفاً بين عامي (1994 و2000)، وهو معدل يفوق المعدلات السابقة على هذا التاريخ، فقد كان (9,600) بين عامي (1986 و1996م).

كما بلغت مصادرات الأراضي حداً غير مسبوق، ونشطت حركة بناء المساكن في عهدى نتنياهو وباراك، وكذلك حركة تعبيد الطرق الالتفافية للربط بين هذه المستعمرات ونقاط التفتيش العسكرية المنتشرة فيها.

لقد نمت الخطط الاستيطانية بعد "أوسلو" سواء في مساحة مخططاتها الهيكلية ومجالها الحيوي أو في عدد السكان، وفي القدس كما في باقي محافظات الضفة. وارتفعت مساحة المخططات الهيكلية للمستوطنات في الضفة الغربية من (2%) في منتصف التسعينات إلى (15%) في نهاية التسعينات.

• • •

كان ملف المستوطنات يزداد تازماً بحكم اتساع المساحة وارتفاع العدد، وكان ملف اللاجئين لا يحمل جديداً في شأن آمال العودة أو نهاية الترحال.

ويقدر "أسعد عبدالرحمن" مسئول ملف اللاجئين في السلطة الوطنية الفلسطينية عددهم بنحو خمسة ملايين وربع المليون لاجيء فلسطيني.

ويعتبر "شلومو جازيت" في دراسته "مشكلة اللاجئين.. قضايا الحل الدائم" التي نشرها مركز جافي للدراسات في جامعة تل أبيب.. مشكلة اللاجئين بأنها "القضية الأكثر

تعميقاً في قضايا الصراع العربي - الإسرائيلي .. وأنه بدون وضع حل لهذه القضية لا يمكن إغلاق ملف هذا الصراع. وعلى الرغم من توالي حكومات العمل والليكود في حكم إسرائيل، فإن ملف اللاجئين ظل بلا حركة.

وحين جاء باراك أطلق لآهاته الشهيرة.. "لا عودة إلى حدود 1967م، لا تقسيم للقدس، لا تفكيك للمستوطنات، لا وجود لجيش أجنبي غرب نهر الأردن سوى إسرائيل" و"اللا" التي لم يقلها باراك.. هي "لا لعودة اللاجئين".

ثم كان انزلاق الرئيس كلينتون في مؤتمر صحفي مع الرئيس المصري السابق حسني مبارك حين سأله "عبدالمعز سعيد" حول مصير اللاجئين الفلسطينيين ربطاً بالموقف من اللاجئين الألبان في كوسوفو فقال "أمل أن يصبح الشعب الفلسطيني حراً، ويخبر بأنه حر في الجيش حيث يشاء".

وهو ما واجهه باراك بالرفض، طالباً من الإدارة الأمريكية تصحيح التصريح وإزالة ما أحدثه من سوء فهم والتباس، فسارع البيت الأبيض للتأكيد على أن موقف واشنطن من هذه القضية لم يتغير وأن حلها يبقى رهناً بما يتوصل إليه الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي من اتفاق في مفاوضات الوضع النهائي.

إن باراك الذي لم يقل لفظاً "لا لعودة اللاجئين" ضمن لآهاته الأربعة الشهيرة، لم يكن في حاجة للتقول.. فقد كان سلوك باراك الفعلي "لا" لكل شيء.

وهكذا.. فقد تفاقت أمور عديدة منذ اتفاق أوسلو وحتى نهاية عقد التسوية. وبيات الفلسطينيون يشعرون أن خطاب السلام لم يهيم، أجواء السلام، وأن "أوسلو" لم تكن أكثر من "شراب مرير" تم إغماض العينين لأجل تناوله.. فإذا هو صعب المرور عصى الابتلاع، ووجد الكثيرون أنفسهم مدفوعين إلى حالة "قىء" جماعية تقذف بنتائج أوسلو، مصحوبة بالدماء.

• • •

جاءت إنتفاضة عام 2000م مختلفة عن إنتفاضة الحجارة فى 1987م، فقد تم استخدام مدافع الهاون الفلسطينية، وبعضاً من القوات الفلسطينية التى لم تكن موجودة عام 1987م كانت طرفاً فى الاشتباكات التى حدثت ضد الإسرائيليين.

وحسب تقدير "لهمى هويدى" .. فإن ما جرى عام 2000م كان أكبر من الإنتفاضة وأقرب إلى الثورة المسلحة التى شارك فيها الشعب الفلسطينى بما فيه فلسطينيو 1948م الذين قُتل منهم (13) شخصاً فى العام الأول للإنتفاضة الثانية. ولم يعد فلسطينيو اليوم هم فلسطينيو (1948 و 1967).. بل إنهم واجهوا الجيش الإسرائيلى وأفشلوا احتلاله بعض المدن والقرى، وأعدت الإنتفاضة القضية الفلسطينية إلى الوجدان العربى من جديد.. من دعوات المقاطعة إلى مباركة الاستشهاد.

وقد نجحت أعمال الإنتفاضة فى قتل نحو (250) إسرائيلياً بنهاية عام 2001م، وبدأ الإسرائيليون يقولون أنهم لا يشعرون بالأمان إلا حين يغادرون إسرائيل، لم يعد هناك مقهى أو مطعماً أو محلاً تجارياً فى إسرائيل إلا وقد وضع تحت الحراسة على مدار الساعة.

وحسب مراسل هيئة الإنعاطة البريطانية "مارتن اسر" (16 مارس 2002)، فإن المقاهى والمطاعم قد خلت إلا من العاملين فيها، فكل إسرائيلى يخشى من أن يفقد حياته فى أى لحظة ليلحق اسمه بقائمة ضحايا إنتفاضة الأقصى.

وبعد أن كانت قوافل السياح تغمر إسرائيل، رغم المخاطر المتأصلة فى هذا البلد، لم يعد يجرؤ على العجنى سوى عدد قليل من الغامرين بحياتهم. وعقب الهجمات الاستشهادية التى نفذها الفلسطينيون، أصبحت أول نصيحة يتلقاها أجنبى يصل إلى إسرائيل هى " لا تقرب المقاهى أو المطاعم المزدحمة".

وفى القدس.. فإن الفندق الوحيد الممتلئ بالنزلاء هو الفندق الذى اعتاد الصحفيون الأجانب الإقامة فيه، وأما فنادق تل أبيب المطلة على البحر، فالمحظوظ منها تبلغ نسبة اشغال الغرف فيه خمسة وعشرين بالمائة.



وفي أكبر فنادق الخمسة نجوم في تل أبيب لا يوجد أحد، وصارت شوارع تل أبيب في المساء خاوية بعد أن كانت في الماضي تعج بالمارة.. وفي مطاعم الوجبات السريعة.. يوجد فريق حراسة مكلف بإممان مراقبة الزوار وهي مهمة يشارك فيها رواد المطعم أنفسهم. ويخشى الإسرائيليون في تلك المطاعم من الجلوس في الموائد وسط المطعم، بل يفضلون الاحتباء بأحد الأعمدة في ركن منزو. وإنا انفجر فجأة بالون يلهو به طفل.. ينتفض كل من في المطعم هلعاً، ليتذكر الجميع أنهم ليسوا في مطعم عادي، ولا في بلد عادي.

• • •

إن العام الدراسي الذي افتتح في سبتمبر 2001م بدأ في حراسة (7500) شرطياً وآلاف المتطوعين. وقد زاد عدد رافضي الخدمة العسكرية في الضفة والقطاع، كما زاد معدل الهروب من المستوطنات، وارتفع على نحو هائل معدل تعاطي المهدنات وأصيب الإقتصاد الإسرائيلي بخمائر فادحة.

وحسب صحيفة "لوموند" الفرنسية.. فإن معظم المستوطنين أصبحوا يخشون الخروج من المنازل بعد غروب الشمس، ولم يعودوا يستخدمون سياراتهم الخاصة بل يفضلون عليها خطوط الأتوبيس المصفحة.. وحتى طرق الأنفاق التي أقامتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي خصيصاً أسفل بيت لحم لتأمين سلامة وصول المستوطنين فهم أثناء توجههم من مستعمراتهم في الأراضي المحتلة إلى داخل إسرائيل.. لم تعد آمنة.

تقول "لوموند".. إن هذه الطرق الالتفافية التي صممت خصيصاً لإبعاد المستعمرين عن متناول هجمات المقاومة أصبحت أكثر الطرق خطورة.. حيث لقي فيها أربعة عشر مستعمراً مصرعهم خلال الإنتفاضة وهم يقودون سياراتهم.

وفي مستوطنة "نيفتسوف" شمال رام الله بالضفة قرّ عدد كبير من سكانها، وكذلك من مستعمرة "جوش اترزيون" جنوب رام الله. وانخفضت أسعار المنازل في المستعمرات.

وأصبح أصحاب شركات البناء يبحثون لها عن مشتريين من الخارج خاصة في الولايات المتحدة.

وطبقاً لوزارة الداخلية الإسرائيلية.. فقد انخفض معدل الزيادة في سكان المستعمرات الإسرائيلية من (7%) في النصف الأول من عام 2000م إلى (4,2%) في النصف الأول من عام 2001م. وتوالت عوامل النزاع.. ليمر في مجرياتها نجاح عملية إغتيال وزير السياحة "رحبعام زئيفي" رباً على اغتيال "أبوعلی مصطفی" أمين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

اختتم زئيفي حياته في الدور الثالث في فندق حياة ريجنسي بالقدس.. حيث لم يكن منخفاً باحتمالات الموت.

• • •

كان "زئيفي" علمانياً متمصباً، ولكنه كان ينظر غلاة المستوطنين المتدينين حاملاً رسالة دينية.. وهي رسالة "أرض إسرائيل" التي يعتبر استيطانها بنظرهم فريضة دينية.

ويذكر عزمي بشارة.. أن "زئيفي" قد اشتهر بسعة معلوماته عن الأرض وتاريخها، وحفظ كل تفصيل يتعلق بها، حتى عينه رئيس بلدية تل أبيب قبل دخوله الكنيسة مديراً "لمتحف أرض إسرائيل" ومن باب تعمد مناقب الفقيه.. تحول "زئيفي" بعد وفاته إلى مؤرخ وباحث ومثقف في شؤون تاريخ هذه البلاد.

والحقيقة - حسب بشارة - أنه لم يكن مثقفاً بل كان متمصباً، وكانت معلوماته بطبيعة الحال انتقائية وأسطورية، ولم يكن كاتباً ولا باحثاً ولا مفكراً، حتى بمقاييس اليمين المتواضعة، لقد تحولت الغظافة إلى تواضع، وتحولت الجلافة إلى استقامة، والتطرف إلى حب، والعنصرية إلى وطنية.. بعد أن مات.

وهكذا التقى مؤيدو "ترانسفير" زئيفي لعرب الأراضي المحتلة عام 1967م، بمغذی "ترانسفير" بن جوريون عام 1948م.. في مسيرة التشييع نفسها. وبرحيل زئيفي

قتيلاً على الرغم من عوامل التأمين القسوى المحيطة به، زاد القلق لدى الإسرائيليين الذين باتوا يشعرون أن لا أحد بمأمن من الإنتفاضة.

• • •

اعترف "بنيامين بن اليعازر" وزير الدفاع في حكومة آرييل شارون في حديث لـ *شيلون* بصحيفة "معاريف" (16 نوفمبر 2001) "أن الجمهور قلق، ولكنه وقف الحمد لا يعرف كل شيء.. الجمهور لا يعرف أننا نمنع (90 - 95%) من العمليات قبل وقوعها". ونرى الفزع والرعب في عناوين الصحف الإسرائيلية التي نهبت تؤكد.. أن الإنتفاضة الثانية هي أكبر تهديد وجوى في تاريخ إسرائيل.

كان شارون لا يزال في قراءاته الخاطئة، وعضاً عن اتجاهه نحو تسوية تعيد الأمن وتفتح الطريق لسلامة الجميع.. انطلق يمارس قناعاته وخيالاته.. قتلاً ونسفاً.. بلا توقف.

تم قصف المناطق السكنية بطائرات "إف 16"، و"إف 15".. وأقيمت قذائف بوزن طن على الأهداف الفلسطينية التي يمكن إصابتها بقذائف أخف وزناً بكثير.

وقبلها بدأت عملية منظمة لقتل الكوادر الفلسطينية الرئيسية، من "جمال منصور" مسؤول حركة حماس في الضفة وغزة إلى "أبو علي مصطفى" أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي تم إغتياله في مكتبه الذي يبعد (300) متر فقط من مقر ياسر عرفات. لم تكن العملية قوية على المستوى الفني بقدر ما كانت خطيرة للغاية على المستوى السياسي، فقد كان أبو علي مصطفى معروف الحركة والمكان ولم يكن يحتاج تحديد مكانه إلى عمل استخباراتي من نوع خاص.

وقد نشرت صحيفة "معاريف" في 28 يوليو 2001م صوراً لسبعة أشخاص مرشحين للإغتيال كان يتوسطهم ياسر عرفات، وحوله محمود عباس، وياسر عبدربه، وأحمد قريع، والشيخ أحمد ياسين.. وعبدالله الشامي مسؤول حركة الجهاد الإسلامي في الضفة وغزة، وقد وضعت علامة (x) على وجه أبو علي مصطفى.. بعد أن تم إغتياله، وبما

نائب وزير الأمن الداخلي "جدعون عزرا" للقضاء على أقارب الفدائيين وضرب جيرانهم. وتوازت عمليات الإغتيال الواسعة مع عمليات القصف والتدمير.. حتى تحولت فلسطين إلى أرض للموت.. فالشهيد يعقبه شهيد، والجريح يجاوره جريح.. وصار الشباب ينتظرون الموت بمثل ما ينتظرون الحياة.. وينسجون الكفن على حجم الوطن.

• • •

كانت المشاهد التي تنقلها الصحف والشاشات كافية للاختناق جراء ما يجري في فلسطين، فلم تعد الكوارث المتلاحقة تجري من غير نظام.. بل كانت تجري بخطة وحساب. وقد تساءل "يوسى ساريد" في مقال له نشرته "معاريف" (28 أغسطس 2001).. "من قال أن شارون لا توجد لديه خطة؟ سيرى الجميع فيما بعد خطة شارون لتبلور.. سيرون، وسوف تقشر أهدانهم".

ويعبر "نجيب محفوظ" عن فداحة الكارثة في أسى شديد.. "حمدت الله على ضعف بصري حتى لا أرى على شاشات التليفزيون المجازر التي يرتكبها الإسرائيليون بحق الفلسطينيين.. إن جيش الاحتلال البريطاني في مصر، لم يواجه أبداً المظاهرات بالدبابات والطائرات على مدى سبعين عاماً".

وكان حماد العام الأول للانتفاضة الثانية من (28 سبتمبر 2000 إلى 28 سبتمبر 2001م).. (700) شهيد، و(30) ألف جريح، وهدم (4000) منزل، وخسائر للإقتصاد الفلسطيني بلغت (4) مليارات دولار.

ثم توالى الخسائر.. ضمن قيادات تمت تصفيتا إلى قيادات تمت محاصرتها والنيل منها، ومن منع "أحمد قريع" رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني من الدخول إلى الضفة الغربية في نوفمبر 2001م، وعدم الاعتداد ببطاقات الشخصيات المهمة (VIP) التي يحملها.. إلى منع الرئيس ياسر عرفات من الحركة خارج رام الله ومحاصرته داخلها.. وفي كل ذلك كانت واشنطن بعيدة أكثر من أي وقت مضى.

• • •

جاء الرئيس جورج بوش الثانى البيت الأبيض.. يحمل رؤية بسيطة للسياسة الخارجية فى العالم، خلاصتها عدم الإكتراث بتلك المناطق التى لا يجدى معها تدخل، وإكبار الولايات المتحدة فى إهتماماتها فلا تعنى بغير قوى محددة فى مقدمتها الصين وروسيا.. ثم ترك إدارة معظم العالم فى أيدى صغار المنفذين بوزارة الخارجية وجهاز الاستخبارات.

إنها رؤية "كوندليزا رايس" التى ظهرت فى دراسة لها فى دورية "فورين أفيرز" الشهيرة فى يناير 2000م، وهى رؤية الكثيرين خارج دائرة القرار الرسمى كهنرى كيمنجر وتوماس فريدمان.

وهكذا جاء بوش غير مكترث بما يجرى فى الأراضى المحتلة، ومكتفياً بعبارة هنا وعبارة هناك كلما اضطره الصحفيون لذلك، وكانت عادة الرئيس بوش أن يخص أزمة الشرق الأوسط بدقيقة أو بعض دقيقة أثناء تواجده فى مزرعته الخاصة أو حين يكون غارقاً فى قيادة "عربة الجولف".

وبدوره.. قلل وزير الخارجية "كولين باول" من اتصالاته مع شارون وعرفات، مفضلاً ترك الأمر للسفير الأمريكى فى تل أبيب وقنصل الولايات المتحدة فى القدس.. حيث يتولى الاثنان إجراء الاتصالات والوساطة بين الرجلين.

وفى الواقع فإن الابتعاد الأمريكى الظاهر لم يكن إلا إنحيازاً واضحاً لتل أبيب، فهناك تعاطف خاص من كولين باول وكثيرين داخل الإدارة الأمريكية إزاء إسرائيل، ولم يحضر باول مؤتمر ديربان للتفرقة العنصرية الذى انعقد فى جنوب أفريقيا عام 2001م.. بينما كان يمضى عدة أيام فى منزل "رونالد لاوبر" الرئيس السابق لمجلس رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية.

وحسب صحيفة "هاآرتس" (30 أغسطس 2001م) فإن واشنطن راضية بالجملة عن سياسة شارون، ولن يأتى كولين باول إلى المنطقة، ولن يستجيب للاستغاثات الصادرة من بعض العواصم العربية إلا إذا اطمان إلى أن هناك فرصة حقيقية لإنجاز شىء على الأرض،

وهو مالم يحدث.. فإنه يفضل أن يحافظ على وقته وكرامته.

• • •

ثم كانت أحداث يوم القيامة في 11 سبتمبر 2001م في واشنطن ونيويورك، وارتبكت الولايات المتحدة كما لم يحدث من قبل.. وبدأ احتجاجها أساسياً للدعم العربي والإسلامي في تجاوز الكارثة وخوض قتال غير مسبوق ضد عدو غير معروف.

وأعلن بوش دعم قيامه دولة فلسطينية في مفاجأة للجميع.. فقد كانت هي المرة الأولى التي يؤيد فيها رئيس أمريكي ينتمي إلى الحزب الجمهوري قيام دولة فلسطينية.. وفيما شككت حماس والجهتين الشعبية والديمقراطية في مصداقية التصريح الرئاسي الأمريكي.. فإن عرفات استقبل القول بترحاب شديد.

أما آرييل شارون فقد زاد في الانفعال، وشن أعنف هجوم، داعياً الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة إلى عدم تكرار نفس الخطأ الذي أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، عندما ضحت الديمقراطيات الأوروبية بتشيكوسلوفاكيا من أجل الوصول إلى حل مؤقت مع هتلر.. وقال شارون "إن إسرائيل لن تكون تشيكوسلوفاكيا ثانية".

كان شارون يستشهد بأحداث ميونخ 1938م.. عندما سمحت الديمقراطيات الأوروبية لألمانيا النازية بالاستيلاء على إقليم "السوديت" بتشيكوسلوفاكيا إرضاءً لمطالب هتلر. وبعد ذلك بعام واحد اندلعت الحرب العالمية الثانية.

وخالف الانفعال حماس وأعلن شارون أن "إسرائيل لا تملك إلا أن تعتمد على نفسها.. وستعود لسياسة الإغتيالات، ولن تراعى ضبط النفس، وستواصل القضاء على "بن لادن الشرق الأوسط".. قاصداً عرفات.

وبدونها اكتراث رفض بوش تصريحات شارون.. فتراجع شارون بعد ساعات.. وعاد يؤكد على الصداقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، ودعم تل أبيب قرار واشنطن مكافحة الإرهاب.

• • •

لقد بذت أحداث 11 سبتمبر في أولها فرصة لصالح الفلسطينيين حيث أيد بوش إقامة الدولة، ثم انتهت في آخرها لصالح إسرائيل.. حيث انطلق شارون تماماً بغير حساب، وكان على العالم الإسلامي والعربي أن يدفع اتهامات متلاحقة بالإرهاب والتخريب فانقلبت الأجندة وتبدلت الأولويات.. من فلسطين والقدس.. إلى "بن لادن" والقاعدة.

وبدأت إسرائيل تضرب بقوة عاتية في الداخل، ثم تلفت الأنظار بعيداً.. إلى الخارج.. إلى العراق وإيران، وانشغلت الصحف الإسرائيلية بما يملك صدام حسين وبما تنوي طهران.

وبعد أيام من أحداث الولايات المتحدة تحدث وزير الدفاع "بنيامين بن اليعازر" (معاريف 18 سبتمبر 2001) متخيلاً هجوماً أمريكياً على العراق.. "إنا قرر الأمريكيون مهاجمة العراق في إطار الحرب ضد الإرهاب، وشعر صدام حسين أن هذه نهايته، فسوف يوجه كل ما لديه إلينا وهذا أمر نستعد له، ولا يستطيع أحد أن يقول أنهم لا يملكون أسلحة بيولوجية أو كيميائية.. أنا لست متأكداً بأن صدام يملك سلاحاً نووياً.. لكنني أتحسب للسلاح الكيميائي والبيولوجي، وإذا أطلق العراقيون النار فهل نتوقع أن نجلس صامتين؟ سوف ندافع بالطبع".. ثم اتجه صوب إيران.. "إن إيران تقود تحالفاً إرهابياً ولديها صواريخ بعيدة المدى تستطيع أن تصل إلى كل نقطة في إسرائيل تقريباً.. إنهم يسارعون لامتلاك رؤوس نووية بعد أن امتلكوا رؤوساً كيميائية وبيولوجية".

وهكذا.. كانت جرائم الحرب والسلام تجري في الأراضي المحتلة.. على يد الجيش الإسرائيلي، ليواجه الفلسطينيون المجردون من السلاح حرباً قاسية بالديابات والطائرات، وكان العالم منشغلاً بما يجري في واشنطن ونيويورك وبما يجري في أفغانستان.

وإذا كانت هذه جوانب في المشهد العام في فلسطين من حرب لم تنتصر ومن إنتفاضة لم تنكسر، ومن داخل صار يغلى من جراء القصف بغير حساب، ومن خارج كان مترفعاً عما

يجرى هنا ثم صار منشغلاً بما يجرى هناك.. فإن واحداً من جوانب المشهد كان يقدم جديداً.. بوجب الإهتمام.. فقد كان فلسطينيو عام 1948م يعيدون تقديم أنفسهم وسط ما يجرى من مقبيلات.

تعامل "عرب 1948- كإقلية قومية بأروع صورها، وظهروا أشد تماسكاً بانتمائهم القومي من أى وقت مضى، برهنوا أنهم جزء من الجسد الفلسطيني.. وأنهم يعيشون فى إسرائيل على خلفية قومية لم تات عليها السنين.

لقد ربطت الإنتفاضة "عرب إسرائيل" مرة أخرى بالعرب الفلسطينيين فى غزة والضفة.. مما أكد تداعى مقولة الانتماء القومي إلى إسرائيل الذى كانت تعتقد فيه الحكومات المتعاقبة فى تل أبيب، وحين أطلقت القوات الإسرائيلية النار على مظاهرات نظمها شبان عرب تاييداً للإنتفاضة فى أكتوبر 2000م، وقتلها (13 شاباً) عربياً فى إسرائيل بعملية وحشية.. انطلقت مشاعر الإحساس العربى لدى "عرب إسرائيل" الذين يشكلون (18%) من سكان إسرائيل.

وحسب تغطيات قامت بها هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، فإن الإنتفاضة أوصلت الشعور القومي العربى ما بين الأراضى المحتلة وإسرائيل. ونقلت عن فتاة عربية.. كنت أقول أنا إسرائيلية عندما كنت صغيرة، والآن أنا انتمى للشعب الفلسطينى وأعتنق قضيته.

• • •

يعود "مروان بخارة" فى كتابه الهام "فلسطين - إسرائيل سلام أم فصل عنصرى" الذى صدر بالفرنسية فى باريس عام 2001م - بأصول الشهد إلى عملية كاملة من الفصل العنصرى فى إسرائيل.

وتقوم الأطروحة المركزية فى كتاب "بخارة" على القول.. بأن نظام "الأبارتيد" الذى كانت إسرائيل تطبقه ضد الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة وحتى داخل إسرائيل نفسها تعمق منذ أواسل، وأنه فى الوقت الذى تخلصت فيه جنوب أفريقيا من نظام التمييز العنصرى فى مايو 1994م.. كان نفس النظام يقوى فى إسرائيل.



فمنذ أواسد إسرائيل تطبق تشريعين.. لليهود حرية التنقل والبناء والتنمية، بينما يتم حشر العرب في "بانتوستانات"، لليهود حرية الاستيلاء على الأرض والفلسطينيين ممنوعين منها.

لقد عمقت أواسد الفوارق الكبيرة في مختلف المجالات.. المعيشة والتعليم والصحة والشغل.. استفادت من الدعم الدولي واستثمارات السلام ورفع المقاطعة العربية من الدرجتين الثانية والثالثة، وتدهورت حالة الفلسطينيين الاقتصادية وعمقت تبعيتهم للقوة المحتلة، حيث تذهب (88%) من الصادرات الفلسطينية إلى إسرائيل، والأراضي المحتلة هي ثانی سوق بعد الولايات المتحدة ويقدر بـ (2,5) مليار دولار.

جرى النظر للعرب في إسرائيل كطابور خامس، منعت علاقاتهم بالأرض.. وهذه أبرز خصائص الأبارتيد، ولما تظاهروا مع إخوانهم في الأراضي المحتلة طوقت القوات الإسرائيلية المناطق التي تقطنها أغلبية عربية وطبقت عليها معالجة أمنية مثلها مثل الأراضي المحتلة عام 1967م، وانتهت مشادات أكتوبر 2000 بمقتل (13) شخصاً من عرب 1948.

إن شواطئ تل أبيب محرمة على العرب من مواطني إسرائيل ومخصصة لليهود دون سواهم، ومنذ أواسد وحتى نهاية عهد باراك تمت مصادرة (273) ألف هكتاراً من الأرض كان يملكها فلسطينيون.

ويتفق الأخوين بشارة "عزمي ومروان" على أن إسرائيل صارت تخطط منذ أكتوبر 2000 لعزل الشرعية السياسية عن القوى القومية لفلسطين 1948، وإعادة "رسم حدود الديمقراطية" بهدف الانتقام من فلسطين 1948 بسبب إنتفاضتهم إلى جانب أهلهم في الضفة والقطاع.. ذلك أن إسرائيل باتت في مأزق كبير.. بعد أن فشل مشروع حزب العمل في كامب ديفيد، وفشل مشروع الأمن عند شارون.

• • •

لقد بدت الصورة فى لقطة واحدة.. تحوى ثورة فلسطينية تواجه كارثة، ودولة  
يهودية تواجه كارثة.. فالانتفاضة لا يمكنها المضى فى مواكب النعوش حتى النهاية،  
وإسرائيل لا يمكنها الشموخ بالأمن ما بقيت عملية التسوية متعثرة.

• • •

وهكذا، تلاقت الأزمة فى جانبيها.. حرب بلا نصر فى جانب، ونصر بلا معنى فى  
الجانب الآخر!

وعلى حين لم يكن العالم العربى مستعداً للمراجعة والخروج من الهزيمة.. كان  
هناك فى إسرائيل من شرع فى المراجعة للخروج من الانتصار.. بالمزيد.

وعلى حجم الثقة التى أفرزتها انتصارات المعارك وصعود الإقتصاد.. ذهب المؤرخون  
الجدد يعملون أقلامهم.. ما بين النقد والنقض، وما بين الإعتراز والاعتذار.

**الفصل الثالث**

**ما بعد الصيام**

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

شيدت الصهيونية مرقدها في نشأتها.. خلقت أزمة في كل قفزة.. وانكساراً في كل انتصار، واحتاجت في بقائها إلى حشد دائم وتمبئة مستمرة، والهدف الذي جرى تسويقه حين بدأت الصهيونية سيرتها الأولى - والذي تمثل في إنهاء المعاناة والاستعداد للاسترخاء - لم يكن سوى ضرباً من أساطير الليل الشاردة، فقد صار الإستنفار وضماً دائماً، والقتال طريقة حياة.

مأزق الصهيونية.. التي انقطعت أنفاس الإسرائيليين معها، ولم يعودوا قادرين على الإيمان بها والبقاء.. في معارك مفتوحة وتمبئة دائمة.

وهو مأزق الصهاينة الذين وجدوا أنفسهم في دولة تنهشها الأصولية وتشقها المنصرية وتدور يومياتها بين الرصاص والحجارة.

ثم هو مأزق من ينشون التطبيع في الحياة، أي الميش في بلد طبيعي وظروف طبيعية وأحداث طبيعية.. حيث أضحى ظاهراً للجميع أن لا نهاية للظروف الإستثنائية ولا خاتمة للمعاناة والقلق.. بخير سلام يقبله الطرف الآخر.

وبدا للبعض أن السلام قد يلحق بإسرائيل من الأضرار ما لم يكن ممكناً بخير السلام.. فمثل هذا السلام إذا ما تحقق قد يدفع الصهيونية إلى منتهاها، ويكون على إسرائيل أن تحيا بخير غطاء.. وأن تمضي بخير طريق.

ولأن مثل هذه التجربة.. إسرائيل بلا صهيونية هي مخاطرة كبرى، فإن الإقدام على تهيئة الطريق لها من خلال تحقيق السلام لم تتوفر له قوة الدفع الكافية، إذ لم يمتلك بيريز ولا باراك، كما لم يمتلك نتنياهو ولا شارون تلك الجرأة اللازمة لتحقيق هذه القفزة التاريخية.

لم يجرؤ باراك على الحركة.. وجاء نتنياهو أكثر رغبة في قطع الطريق على أي مقامرة.. وزاد شارون، فبحث حلاً آخر.. هو "تبويب" الصهيونية بالشروع في عملية

التطهير العرقي الأخيرة، والتسوية بالتصفية.

في هذا السياق، كان طبيعياً أن يتخابه موقفاً الليكود والعمل والقوى السياسية الأخرى حين يتطلب الأمر قولاً فصلاً في السلام، وكلما كانت التسوية تقترب من الملفات الرئيسية والمشكلات النهائية، كان العمل أقرب إلى أن يكون نسخة باردة من الليكود، والليكود نسخة فاترة من الأحزاب الدينية.. وكان طبيعياً مع ذلك كله.. أن تبدأ التسوية ولا تنتهي وأن تفضي عملية السلام من غير سلام.

جاء المقابل لغياب السلام.. يحمل الكثير من القلق واليأس داخل إسرائيل، وعلى الرغم من القوة العسكرية والسياسية للدولة.. وتعاظم نفوذها في مساحات وآفاق عالمية لم تكن لها فيها موطئ قدم من قبل.. فإن الإسرائيليين لم يأنسوا بهذه القوة والمنعة.  
وصارت هناك معادلة واضحة بمرور الوقت.. قوة إسرائيل وضعف الإسرائيليين..  
أى قوة الجيش وهزال الشعب.

• • •

بمجرد المرء حين يتأمل قادة الحكومة وجنرالات الحرب ليجد معالم الإستعلاء والاستكبار.. ثم يتأمل حالة السكان ليجد معالم الفزع والاستضعاف.. ثم حين يراقب الخطاب السياسي فيجد جنوح الدولة وطموح الإمبراطورية.. ثم يراقب الواقع السياسي فيجد دولة "باهتة" وشعباً ممزقاً تبدو فيه علاقة الشعب بالأرض "علاقة عقارية" لا علاقة وطن ومصير.

الأمر الذي دعا المؤرخين الجدد للقول بفشل الحلم برغم نجاح القوة.

وهو ما عبرت عنه مجلة "ماريان" الفرنسية في تقرير لها (أكتوبر 2000م) حيث وصفت المجلة إسرائيل بأنها "دولة عاثمة" لا تتمتع بأهم مقومات الدولة التي تتمثل في اعتراف الوسط المحيط بها.. وحدود ثابتة معترف بها.. وبشخصية قومية ينصهر فيها شعبها.

كما يكشف المشهد السياسي عن تمزق خطير.. عن قبائل تكره بعضها بعضاً، وتسمى

للغناء بعضها على الآخر..

قبيلة الحاخامات أولى القبائل وتسيطر على طبقات كثيرة لايزالون يعيخون في العصور الحديثة، وأما رموز اليسار العلماني المعتدون بوجود الدولة، فقد تحولوا إلى فلاسفة في العولمة والإنترنت والمشروعات الاقتصادية.. وفي مقدمتهم شيمون بيريز.

ويصف "جبرائيل سمحون" أستاذ الأدب في جامعة تل أبيب في مسرحيته "الملك المغربي" الحالة برمته.. بأنها سقوط جملة الدولة والشمب.. وهي بالأخص نكبة لأولئك المهاجرين الذين جاؤوا لأجل الخلاص.. فكانت للنساء.

تصف المسرحية مجتمعاً يهودياً في القرب قيل له إن المسيح اليهودي المنتظر طبقاً لعقيدة اليهود.. قد بُعث بالفعل، وأنه جاء لكي يأخذهم في حمايته إلى القدس لتأسيس الملكة اليهودية على الأرض.

وبما أن الأسطورة اليهودية تقول أن اليهود ينتقلون على متن السحاب إلى القدس.. فقد سعد جميع أبناء الطائفة إلى أسطح المنازل قبل أن يقفزوا منها لامتناء صهوة السحاب.. وبالطبع فقد سقطوا جميعاً ولقوا مصرعهم. وترمز المسرحية إلى هجرة اليهود الشرقيين (السفاريديم) إلى إسرائيل.. التي كانت انتحاراً جماعياً.. نفسياً قبل أن يكون مادياً.

ويجمل حلة الإحباط التي عليها نصف إسرائيل ذلك القول بالماثور.. إذا أنت سألت طقلاً من أطقال اليهود السفاريديم.. ماذا تريد أن تكون عندما تكبر سيرد عليه قائلاً: أريد أن أكون أشكينازياً..

\*\*\*

ويعرض الروائي الإسرائيلي - العراقي الأصل - "سامي ميخائيل" الذي هاجر في طفولته من العراق.. تلك "المحرقة النفسية" لليهود السفاريديم.. على لسان بطل إحدى رواياته "داوود" يقول داوود ذو المئة عشر "بكي والدي.. وتساعد البناء للسماء، كنت لا أصدق.. أبي شافول يمكن أن يبكي، لحظات وهزته أمي وهي تقول له: كفى.. علينا ألا

نحزن على ما كان

لقد أقنموه بترك زوجته "العراق" لكي يدخل على عشيقته الجديدة "إسرائيل"، فدخل مسروراً وأغلق الباب وراءه ليجد مسخاً دميماً "أمي لم تفهم مشاعر والدي، إلا أنني فهمت.. فقد ماتت روح والدي منذ ترك العراق وجاء إلى هنا، كنا نعتقد بأننا عدنا إلى الوطن لكي نعيش.. يهوداً مع يهود، إلا أن كل ما تم هو تقسيم الشعب اليهودي إلى شعبين.. أحدهما فوق الآخر.

"لقد بعثوا بأبي إلى الجبهة المصرية في حرب 1967م" يقول أبي "داخل العربية المدرعة التي أركبها، كنت أفكر فيمن حولي من الجنود الأشكينايز.. فلا أرى ما يربطني بهم.. لا صداقة ولا أخوة، إنني شتلة غريبة بينهم حيث التضامن ظاهري فقط، وعندما تنتهي الحرب سنعود نحن اليهود العرب إلى حارات الفقر في إسرائيل، ويمودون هم الأشكينايز إلى بيوتهم البيضاء".

وهكذا.. فإن اليهود الذين لم يمانوا الاضطهاد ولا التمييز في بلدانهم.. وقصدوا إسرائيل بهدف "الاستجمام" الديني والرفاهية الاقتصادية.. لم يجدوا شيئاً مما بُشروا به، ودخلوا بأقدامهم ساحة معاناة واحتقار.. بدوا خلالها.. "خدم" لإخوانهم في الدين.

• • •

لم يكن اليهود الغربيون (الأشكينايز) في حالة رائعة، على رغم الإستعلاء والاستكبار.. فهو إستعلاء من غير أمن، واستكبار من غير ثقة.

وجاء الجيل الجديد أشكينايزاً وسفارديم ممن عاصروا الإنتفاضتين جامعاً لكل أسباب الخوف واليأس.

ولعل توصيف شاب إسرائيلي في الثامنة عشرة كتب رسالة وهو يستعد للتجنيد في الجيش لحالته - وحالة جيله - النفسية هو الأوضح في تبيان المآزق الكبير. كتب الشاب يقول: "إنني إذا ما قُتلت أثناء خدمتي العسكرية، فلن يكون ذلك من أجل شيء، لا من أجل



اليهود ولا من أجل إسرائيل، ليس من أجل السلام، ولا من أجل أسرتي وأصدقائي.. وأنا مت فإننى سأموت بسبب الفوضى والخراب.. بسبب الرغبة فى الانتقام. إن السلام لا يتطلب ضحايا، نحن الذين نطلب ضحايا، وأنا لن أكون ضحية سلام، سوف أكون ضحية للحماقة والغباء. إذا مت لن يكون هناك مضمون لموتى، لأننى لن أموت من أجل شيء.

إننى إذا توفيت أثناء خدمتى العسكرية لن يكون هذا فخراً لدولة إسرائيل

إن هذه المراجعات.. فى الرواية والمسرح، وفى الفكر والمياسة.. وعند جيل الآباء الذى ابتلع الخديعة وجيل الأبناء الذى يذهب إلى الموت من أجل أسطورة يقوم عليها جيش.. هى الفناء الخلفى لحركة ما بعد الصهيونية.. أو موجة "المؤرخون الجدد" فى إسرائيل.

• • •

قد يصعب وصف جملة الأفكار التى تعيد النظر فى الصهيونية بالحركة.. حركة ما بعد الصهيونية، فداخل هذه المراجعات ألوان طيف عديدة ومتمايزة، وبعض المراجعات إنما تهيم من لزيد من القوة والبعض.. بنقد الذات وكشف النواقص ولفت الانتباه إلى عشرات الطريق، وهى أفكار وإن كانت تقع فى إطار المظلة العامة لما بعد الصهيونية.. لا تعدو - فى واقع الحال - أن تكون إحياءاً وتجديداً.

إذا كان ذلك صحيحاً - وهو صحيح - فإن جانباً كبيراً من هذه المراجعات جاء يحمل درجة من الندم وهامشاً من الاعتذار.

فقد ظهر من إعادة قراءة التاريخ.. أن أخطاء جسيمة قد ارتكبت، وأن الدولة "الديمقراطية" قد مارست التطهير العرقى والتفرقة العنصرية، وأن الشعب الذى ملأ العالم صخباً بقصص الهولوكوست وعذاب الشتات قد مارس "محرقة" معاكلة.

وأن الدعاية الإسرائيلية حول الحداثة والتحضر والتقى لا يخبو صوتها على مدار الساعة.. ليست إلا غطاءً على سرقة الزمان والمكان.

وتعرض الكاتبة والمثلة الإسرائيلية "جاي دور" في مسرحيتها "زقاق الكراسي البيضاء" قصة بيت عربي في حيفا يعود إليه الفلسطينى "طاهر" من منفاه الأردنى لىبحث عن كنز كان مدفوناً أسفل البيت، حيث اضطرت عائلته للهرب، وبعد سعى طويل يعثر "طاهر" أخيراً على الكنز.. ولكنه لا يجد الذهب الذى يحويه، وإنما يجد "رخاماً" لدفن أطفاله.

• • •

ويذكر الكاتب "تشارلز جلاس" وهو يستعرض خمسة كتب تناولت الصراع العربى - الإسرائيلى فى دورية "لندن ريفيو أوف بوليتيكس" أن امرأة يهودية حدثته عن عودة أبيها من إسرائيل إلى فيينا التى كان قد غادرها عام 1938م. عاد إلى شقة التى تربى فيها من أجل تفقدتها وتفقد مكتبه، وقابل المرأة التى تشغل الشقة وسألها.. فقالت له بلا اكتراث أنها استأجرتها بعد الحرب وكانت فارغة تماماً.

ولغرابة التاريخ.. فقد تكررت القصة فى فلسطين المحتلة مع ابنة الرجل نفسه المثلة "جاي دور".. إنها تعيش فى حيفا منذ 1980م مع زوجها فى الطابق الثانى من بيت عربى قديم على الطراز العثمانى، وبعد الاتفاق الأردنى - الإسرائيلى زار فلسطينيون بيوتهم التى طردوا منها عام 1948م، ونات يوم طرقت باب شقتها امرأتان، أم وابنتها، راحت الأم تفتش البيت غرفة غرفة.. وفجأة قالت لجاي: أين كتب أبى؟.. إنه نفس السؤال الذى سأله أبوها فى فيينا.. بعد أن تحول الضحية إلى مغتصب.

**المؤرخون الجدد..  
معرفة تقارب الاعتذار**



تحظى قراءة التاريخ باهتمام الخاصة والعامة على السواء، فهو السيرة الذاتية الكاشفة لما سيكون.. هو القفزة والنكبة.. الوفرة والجفاف.. الأسطورة والتراث.. وهو حكايا السهر وأحاديث السمر.

ولم يكن كل التاريخ.. يوجد أكثر من تاريخ، فهناك تاريخ الأباطرة، وتاريخ الإمبراطوريات.. أو تاريخ الملوك وتاريخ الممالك.. ويتفاوت بينهما التاريخ من كونه صناعة فرد واحد أو حفنة من الأفراد إلى كونه صناعة جموع أكبر وطبقات أعرض.

وعلى الرغم من النفوذ الحاسم الذي يتمتع به التاريخ السياسي في حقل التاريخ، فإن جوانب التاريخ الأخرى باتت أقدر على النيل من هذا النفوذ.. من التاريخ الإقتصادي إلى تاريخ الدين وتاريخ العلم وتاريخ الآداب والفنون.

وتكمن مشكلة التاريخ في ذاته.. أي في كون التاريخ تاريخاً، انقضت أحداثه وغاب أبطاله، وغابر جمهوره، ولم يعد بالإمكان كشف جوانبه الخافية أو الملتبسة.

• • •

تتبدى مشكلة التاريخ القديم والوسيط إلى التاريخ الحديث بالنظر إلى حالة "التاريخ المعاصر" أي محاولة تأريخ الأحداث الجارية.. التي يعايشها المؤرخ، ويتابعها الجميع عبر الفاعلين الأساسيين والمتحدثين الرسميين وعبر المظاهرات والانتخابات وعبر البرلمانات والفضائيات.. ثم لا يكون هناك اتفاق حول فهم ما حدث ولا وصف ما جرى، فتخرج المطابع بروايات ومعلومات.. كلها متعارضة وكلها موثقة.

لم يعد هناك معنى لذلك السؤال الشهير "من يكتب التاريخ؟" فقد صار الجميع يكتبون التاريخ، من الساسة إلى السعاة، ومن أساتذة التاريخ إلى مذكرات الفوانس.

النتصرون والمهزومون يكتبون التاريخ، القائمون على السلطة والمعارضون لها والخارجون عليها، الأشخاص الملاصقون للزعامات وأولئك الذين قادم الحظ ذات مرة إلى

تصنيف شعر الزعيم أو إعداد قهوة الصباح.

ولا يحتاج المرء في إدراك ذلك سوى محاولة الاطلاع على قوائم الكتب التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية عن قيادات البيت الأبيض ورموز النخبة الحاكمة.

وربما تكون مشكلة التاريخ المعاصر أسوأ حالاً من مشكلات التاريخ القديم، فوفرة المعلومات في التاريخ المعاصر أكثر ارباكاً من ندرة المعلومات في التاريخ القديم، كما أن مساحات الرأي وحدود الهوى تقل كثيراً في التاريخ القديم وتزيد إلى حد العبث في التاريخ الحديث.

والأغلب أن محنة التاريخ لن تكون لها كاشفة، وإن مأساة التاريخ للعالم القادم ستمضى بلا نهاية.

• • •

إذا كانت هذه هي محنة التاريخ على وجه العموم.. فما يكون الحال في إسرائيل، حيث التاريخ المرتبك منذ البداية وإلى المقتضى، وحيث تطل الأساطير والخرافات.. فلا تكاد تترك مساحة لعمل العقل وإعمال الموضوعية.

ولربما تكون الولايات المتحدة الأمريكية قد أحسنت التفكير إذ لم تحفل كثيراً بعلم التاريخ، كما أنها لم تول كلمة "التاريخ" الإهتمام ولا الاحترام الكافيين، ذلك أن غياب التاريخ يقود بطبيعة الحال إلى ازبائه.. فلا معنى للحفاوة بغير ما تملك ولا الزهو بما لا نحوز.

غير أن إسرائيل تمثل حالة أخرى، فلا هي تفتقد التاريخ على نحو الولايات المتحدة وغيرها، وهي لا تمتلك التاريخ على نحو ما تمتلك الأمم والحضارات.

إنها تملك تجربة ممزقة.. لم تكن التجربة في حينها موضع تقدير، ولم تكن بعدها موضع إهتمام. ولما جاءت الصهيونية.. جاءت معها رؤية جاهزة للتاريخ. وعلى ضوء التاريخ المصطنع، أقدم تاريخ آخر، وقدمت إسرائيل نفسها ضحية للتاريخ والجغرافيا. وبعبارة عن العالم

العربي، راج التاريخ الذي كتبه إسرائيل، وغاب التاريخ الذي كتبه العرب.

ومع رواج التاريخ كما كتبه إسرائيل، ناعت رؤيتها بأن التاريخ الذي يكتبه العرب لا يمثل التاريخ، وأن الأعداء العرب الذين يملكون أكثر من عشرين دولة أخرى لا يرغبون في قبول دولة جديدة بينهم.

وبقنوم المؤرخين الجدد.. ضاقت الفجوة بين التاريخ هنا وهناك، فقد اقتربوا كثيراً من حقائق الصراع المرير، وكشفوا من المذابح والتهجير والتصفية ما جعل التاريخ المكتوب سابقاً ليس إلا لغواً.

• • •

ينظر الكثيرون إلى دراسة "بينى موريس" حول "مشكلة اللاجئين" التي أصدرها عام 1988م على اعتبار أنها البداية الفعلية لتيار المؤرخين الجدد.

فقد أثارت الدراسة التي تناولت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين عامي (1947 و 1948م).. ضجيجاً واحتجاجاً في المؤسسات الأكاديمية والسياسية، وذلك بسبب اعتراضه على الرواية الرسمية لمشكلة اللاجئين، ولتأكيد مساهمة المؤسسة العسكرية في طرد أعداد ضخمة من الفلسطينيين بالقوة حتى عام 1950م.

وهي الأفكار التي قام "بينى موريس" بتأصيلها في كتابه الثاني "تصحيح خطأ اليهود والعرب في إسرائيل 1936 - 1956"، والذي يبحث موضوع "الترانسفير" في فكر بن جوريون وآخرين لدى قيام إسرائيل. ويخلص إلى أن فكرة "الترانسفير" لم تولد في سياق أحداث عام 1948م، بل هي ذات جذور عميقة في الصهيونية منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى.

عمل المؤرخون الجدد على تفكيك الأسطورة الصهيونية، واعتمدوا في ذلك على الأرشيف السري الإسرائيلي والبريطاني بالأساس، حيث درسوا مراسلات الحكومة الإسرائيلية، ومضابط الجلسات والتقارير الأمنية والأوراق والذكرات الشخصية الخاصة وحسب تعبير أحدهم فإن "تاريخ إسرائيل مكتوب بقلم "مخبرين" لا "مؤرخين" .. الأمر

الذى استدعى ضرورة المراجعة والتصحيح.

• • •

يبرز من بين تهار المؤرخون الجدد أو تهار ما بعد الصهيونية إسرائيل شاحاك، ميرون بنفسى، عاموس إيلون، عازر سكويد، آفى شلايم، إيلان باهى، غيرشون شافير، سمحا فلابان، يوسى اميتاي، ميخائيل كوهين، يورى ميلستايين، نورمان فنكلشتين، ايمان لوستيك، نعمان بن يهودا، ميخائيل فارشوفسكى، ديفيد جروسمان، دانى وبفستايين، أميراهاس، أورى رام كنوع، بنيامين بيت هالحمى.

ومن بين أعمال كثيرة أنتجتها مراجعات ما بعد الصهيونية يمكن الإشارة إلى دراسات "الصهيونية والكولونالية" لغيرشون شافير، "صدام عبر الأرن" لآفى شلايم، "بريطانيا والصراع العربى - الإسرائيلى" لإيلان باهى، "مولد إسرائيل.. خرافات وحقائق" لسمحا فلابان، "الهواء الأصفر" لديفيد جروسمان، "أسطورة المسادا" لنعمان بن يهودا، "الموقف من الكولونالية فى علم الاجتماع الإسرائيلى" لأورى رام كنوع، "دعاوى إسرائيل الليبرالية" لزئيف ستر نهيل، "المهاجرين الأوائل" و "أمركة إسرائيل" لتوم سيجيف، "المكان المقدس.. التاريخ الطموح للأرض المقدسة" لميرون بنفسى.

• • •

يكتب المؤرخون الجدد بالإنجليزية، أو يكتبون بالعبرية ولكنهم يحرصون على ترجمة دراساتهم للإنجليزية.. ويقول "ببنى موريس": "إن معظم المؤرخين الجدد ولدوا حوالى عام 1948، ونضجوا فى جو مفتوح.. كثر فيه الشك والنقد الذاتى أكثر مما كان عند مؤرخى إسرائيل قبل عامى 1967 و1973، وحرب لبنان عام 1982.

وعلى عكس المؤرخين الإسرائيليين الذين سبقوهم، يعكف المؤرخون الجدد على نقد المقولة الأساسية التى قامت عليها إسرائيل "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

• • •

يحتاج الفكر العربى إلى حركة فكرية موازية.. حركة متوازنة وذات خطاب إنسانى عالمى، تكون مهمتها نقد الصهيونية، على أن تكون أقل انفعالاً مما كان يجرى فى العالم



العربي سابقاً، وأكثر وضوحاً وتبيانياً مما يجرى لدى المؤرخين الجدد حالياً.

وتحتاج هذه الحركة الفكرية بدورها إلى أن تكون بالإنجليزية أو تترجم إليها..  
نفس الميكانيزم الذي يتخذ إطار ما بعد الصهيونية..

وكم سيكون مفيداً لو تجاوزت مؤلفات نقد الصهيونية، العربية والإسرائيلية، معاً  
في المكتبات الغربية، وسيكون الأمر أكثر إفادة لو جرى نقل وتطوير الكثير من المعلومات  
والتحليلات الإسرائيلية نفسها.. في هذه الكتابات.

والأمر لا يستهدف فقط توريث الفكر الإسرائيلي في دعم الهدف العربي، بالتأكيد  
على أوجه التطابق والتشابه والتقارب.. بما يجعل الخطاب العربي في الغرب أكثر نكلاً  
وحضوراً، ولكنه يتجاوز ذلك إلى تأسيس مكانة جديدة للفكر السياسي العربي الذي طالما  
خسر معاركه مع الفكر السياسي الإسرائيلي..

ومن الممكن أن يكون التقليد الشهير في المؤلفات العربية.. "الخرح على التون" هو  
الخطوة الأولى إلى غايات الفكر السياسي العربي، أي أن تنشأ موجة تأليف عربية باللغة  
الإنجليزية، هدفها شرح وتفسير وتحليل مؤلفات مؤرخي ما بعد الصهيونية.. أي إعادة  
تقديم الرؤية الإسرائيلية في نقد الصهيونية. ثم تكون الخطوة الثانية في التحول من "إعادة  
التقديم" إلى "إعادة الإنتاج" أي إدخال الرؤية العربية إلى حوار الرؤية الإسرائيلية في  
عمليات التأليف.. وصولاً إلى تغليب الرؤية العربية حتى لا تكون مراجعات "ما بعد  
الصهيونية" إلا هوامش على المتن العربي الجديد.

• • •

قد تبدو مثل هذه التصورات نوعاً من "الهندسة الفراغية".. تلك الرسوم والخطوط  
التي تعمل ما بين العقل والفراغ، غير أن الصهيونية ناتجة لم تكن غير ذلك، ثم كان تجسيد  
الخيال وتطهير الفراغ.. وإقامة بولة من الناكرة.

كان "ناحوم جولدمان" أحد أبرز زعماء المنظمة الصهيونية العالمية في نهاية  
السمعينات في مقدمة الداعين إلى التخلي عن الصهيونية كحل للمشكلة الإسرائيلية.

ومنذ نهاية السبعينات إلى نهاية التسعينات تزايدت الآراء والأفكار الداعية إلى تجاوز الصهيونية إلى ما بعدها.

وفي مؤتمر بازل الذي انعقد في سويسرا عام 1997م في مناسبة مرور مائة عام على مؤتمر بازل 1897م.. دعا "ابراهيم بورج" رئيس المنظمة الصهيونية العالمية كل الصهاينة في العالم إلى منع إسرائيل من اضطهاد الغير، واعترف بأن الكثير من الأخطاء قد ارتكبت في حق الفلسطينيين.

والأمر يتعدى بعضاً من قادة المنظمة الصهيونية العالمية إلى عدداً أوفر من المفكرين الإنسانيين والمؤرخين الإسرائيليين.

ويذكر "روجيه جاروي" و"جاك فيرجيس" في كتابهما "محاكمة الحرية" أن الصهيونية تبدو اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، حركة قومية عدوانية واستعمارية.

ويستشهد جاروي في معرض دفاعه عن وجهات نظره خلال محاكمته التي جرت في فرنسا عام 1998م بسبب نشر كتابه "الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل" .. بما جاء في كتاب "انحلال اليهودية" للهاخام "موشي مونيهين" الذي لم "يقبل شيئاً مخالفاً لما أقول به".

وحسب "مونيهين" فإن الصهيونية هي التعبير الأكثر وضوحاً لانحلال اليهودية، ثم يوجه الهاخام نداءه إلى الإسرائيليين: "أود أن أقول لكم عوبوا إلى إله آبائنا، إلى اليهودية التي جاء بها الأنبياء، ارفضوا ديانة النابالم، عوبوا إلى الحدود التي أصطيمت إياها عام 1947 من قبل الأمم المتحدة رغماً عن العرب الفقراء، وعيشوا حياة بناء لا هدم".

• • •

وفي كتابه "اليهودية ضد الصهيونية" الصادر عام 1969م كتب الهاخام "ايمانويل ليفين" يقول "إن الصهيونية تقودنا إلى كارثة" .. وباسم اليهودية ضد الصهيونية، رفض "بيار ماندليس وناحوم جولدمان" الغزو الإسرائيلي للبنان 1982م.

ويذهب المؤرخ البريطاني "أريك هوبسبوم" في حديث له أمام الجمعية التاريخية

البريطانية إلى نقد أوسع للصهيونية وللدولة التي أنتجتها.. يقول هوبسبوم: "لست في حاجة للقول بأن مفهوم الصهيونية الذي يتمثل بالذات في إقامة دولة قومية علمانية على أرض محددة، لن جرى تعريفهم بالشعب اليهودي، إن هذا المفهوم قد ذهب في اتجاه مضاد كلياً للتاريخ اليهودي منذ ألفى سنة.. بل هو مضاد للتاريخ اليهودي بأكمله"..

"إن مملكتي يهودا واسرائيل كما عرفنا في التوراة لا تشبهان في شيء الدولة القومية التي كانت في ذهن تيودور هرتزل في القرن التاسع عشر"..

"ولا توجد على الإطلاق استمرارية تاريخية بين فلسطين ما قبل تدمير الهيكل الثاني وبين فلسطين ما بعد وعد بلفور"..

"وأما اللغة العبرية المتعارف عليها اليوم، فلم يتحدث بها أحد في عصر الهيكل، حيث كانوا يتكلمون اللغة الآرامية، كما أن أحداً لم يتحدث بالعبرية في المرحلة المبكرة للصهيونية، حيث كانوا يتكلمون "اليديش" لغة يهود شرق أوروبا".

• • •

ينتقل المؤرخ البريطاني "دافيد ايرفينج" إلى الأحداث اللاحقة لينصح أكثر عن حجم الخداع الذي مارسه الصهيونية، ذلك الخداع الذي يمتد من تزييف الماضي البعيد إلى تزييف الماضي المعاصر.

يقطع ايرفينج بأن المحرقة نظرية مفبركة، وأن غرف الغاز النازية لم يكن لها وجود، وأن الجيل الجديد في أوروبا ينظر إلى اليهود وقضية التعميمات باعتبارهم مبتزين. وبالمقابل فإن هناك انبعاث للحركات المعادية لليهود بين الشباب الأوروبي، الذين يقومون بتدنيس المقابر اليهودية أو رسم إشارة للصليب المعكوف على جدران المعابد.

ويعود المؤرخ اليهودي الأمريكي "دانيال جولد هاجن" بهذه الشاعر إلى وقت سابق، فعندما قام هتلر بضم النمسا إلى ألمانيا، كان النازيون النمساويون يبولون على النساء اليهوديات اللواتي كن يعملن في تنظيف شوارع المدينة وهن جاثيات على ركبهن وأيديهن

ولم يكن هذا التصرف - في رأي جولد هاجن - تنفيذاً لتعليمات رسمية لكنه كان تصرفاً عفواً من الناس أنفسهم.

• • •

لكن إنكار "إيرفينج" للمحرقة ونفيه التام لوجود غرف الغاز جاء بعيداً عن معظم الإجتهاادات الغربية بل وفيه الغربية التي تجادل في الحدود لا في الوجود.. أي في حدود المحرقة لا وجودها.

• • •

قريباً من آراء ناحوم جولدمان وإبراهام بورج وبيار مانديس، ومن أفكار روجيه جارودي، وجاك فيرجيس، وموشى مونهين، وإيمانويل ليفين، وأريك هوبسبوم، ودافيد إيرفينج.. دارت دراسات ومؤلفات مؤرخي ما بعد الصهيونية في إسرائيل.

جاءت هذه الدراسات من بعد إحساس عام بأن المشروع الصهيوني قد وصل منتهاه، وأنه قد حقق أغراضه التي قام من أجلها.. أصاب في ذلك أم أخطأ، وأنه قد حان وقت التحول.

إن انهيار الإتحاد السوفيتي، وهجرة اليهود الروس.. بما قد يجعل معظم يهود العالم في إسرائيل.. قد دفعا إلى هذا التحول.

وأنا ما أضيف لذلك الأثر الواسع لعملية التسوية برغم أزماتها على المستوى السياسي، ثم لاتجاهات ما بعد الحداثة الأمريكية التي غزت المجتمع الإسرائيلي على المستوى الثقافي والمعيشي.. تبدو عملية التحول حينئذ أكثر من ضرورة.

• • •

يصل "عازر سكويد" في مقال له حول "أهداف الصهيونية اليوم" نشرها في ذكرى مرور نصف قرن على قيام إسرائيل.. إلى أن أهداف الصهيونية - في نظر تيار واسع - قد تحققت، وينبغي الآن السعي لتحقيق الأهداف العادية التي تسعى لها الأمم المستقرة بأمان في دولها، مثل رفع مستوى المعيشة، وترقية مستوى الوجود الاجتماعي والثقافي.

ويعتبر أحدهم.. فإذا كانت الصهيونية هي بواء معين، فيجب تخفيف الجرعة من هذا الدواء، لأجل استكمال بناء المجتمع والدولة في إسرائيل. وعلى ذلك فإن الهدف الرئيسي للصهيونية اليوم.. ينبغي أن يتحول، لتكون إسرائيل هي المركز الروحي لليهود العالم. وهو الهدف الذي عبرت عنه أفكار الفيلسوف اليهودي "آحاهام عام" الذي كان داعياً للصهيونية الروحية ومعارضاً للصهيونية السياسية.

ولا يبتعد كثيراً الهدف الذي يضم "عازر سكويد" للصهيونية اليوم عن ذلك الذي وضعه الصحفي الإسرائيلي "عاموس إيلون" في مقال طويل نشرته صحيفة "نيويورك ريفيو" في 19 ديسمبر 1996م. بعنوان "إسرائيل ونهاية الصهيونية".

يقول إيلون في شأن حرب 1967.. إن صورة الصهيونية كحركة تحررية علمانية في التقاليد الليبرالية الأوروبية تغيرت بعدها، بسبب ما أحدثته من صحوة قومية دينية أصولية في إسرائيل.

فقد خلق النصر في هذه الحرب لدى الإسرائيليين شعوراً بالذاتية وساهم في انفلاق العقلية السياسية، بعد أن أعطتهم الحرب لأول مرة ما اعتقدوا أنه حدوداً آمنة.

وعلى ذلك، لم تعد "الباراة الصفرية" قائمة بين إسرائيل ومنظمة التحرير، وأمكن بالتالي السعي لمقاومة الأرض بالسلام.

ويرى إيلون أن الصهيونية كأيدولوجيا قد حققت بذلك أهدافها، وأن المجتمع الآن في ظل التركيبة الاثنوية الحساسة، أي وجود مليون عربي يمثلون خمس عدد السكان، في حاجة إلى مبادئ أقرب للتوجه الغربي التعددي، وأكثر مرونة وأقل أيديولوجية وهو ما يستدعي كذلك إعادة النظر في عدد من القوانين وعلى رأسها قوانين العودة.

• • •

هنا يبرز التحذير الذي أطلقه وزير الهجرة الإسرائيلي عام 1995م من أنه إذا لم يعاد النظر في القانون، فإن ما بين (8 إلى 10) مليون يهودي يحق لهم "العودة" واكتساب

المواطنة.. فى الوقت الذى تعاني فيه الدولة من الازدحام والاختناق!

ويلفت الانتباه فى رؤية "عاموس إيلون" .. إرجاعه أفكار ما بعد الصهيونية إلى آراء بن جوريون عام 1951م.. عندما ذكر أنه لم يعد هناك حاجة للصهيونية بعد الاستقلال وبناء الدولة على أساس الأغلبية اليهودية.

• • •

بعد (30) عاماً أكد الفيلسوف "يرنكر" أن المسألة ليست أن الدولة قد تأسست.. بل إن معظم أهداف الصهيونية قد تحققت وعلى هذا فقد استنفذت الصهيونية أهدافها، وأن إسرائيل فى طريقها لعصر ما بعد الصهيونية.

ويختتم إيلون إلى أن فكرة عودة يهود العالم، ينظر إليها الآن من جانب المفكرين اليهود ككارثة. وتكفى الصهيونية ما بذلته فى بناء الديمقراطية واستخدام اللغة القديمة على نطاق واسع، و"منح حياة جديدة للخائفين والمضطهدين" ثم النجاح الإقتصادى، والتصالح مع مصر والأردن والفلسطينيين بعد عقود من القتال بين العرب واليهود.

وإنا كانت فكرة الدولة الواحدة ثنائية القومية التى يدعو إليها عزمى بشارة وآخرون الآن هى - برأى إيلون - فكرة بن جوريون قبل ثلاثة أرباع القرن، فإن عملية التسوية التى شرعت فى مدريد عام 1990م قد قامت على أساس السعى نحو دولتين طبقاً لحدود 4 يونيو 1967م. وهنا يخطو "آلان بابيه" إلى الاقتراح وسيط ما بين الدولتين والدولة الواحدة.

• • •

"بابيه" هو أحد أبرز المؤرخين الجدد.. يعمل أستاذاً للتاريخ والعلوم السياسية فى جامعة حيفا، وقد شارك كجندي فى حرب أكتوبر على هضبة الجولان، ثم قضى ثلاثة أعوام يدرس بالجامعة العبرية بالقدس لعرب إسرائيليين وإسرائيليين يهود، ثم التحق بجامعة أكسفورد، وصاحق مؤرخين عرباً ومستشرقين منهم ألبير حوراني، والبريطانى روجر أوين، وهو ليس شيوعياً ولكنه عضو فى حزب حاداش (الحزب الشيوعى السابق) من منطلق أنه الحزب المفتوح لكل طوائف إسرائيل دون تمييز.

وقد ألف كتاباً عن عائلة الحسيني الفلسطينية العريقة، لدحض أسطورة أن فلسطين كانت قبل هجرة اليهود إليها أرضاً بلا شعب.

يقترح "آلان بابيه" في كتابه الذي صدرته السلطات الإسرائيلية فور صدوره "حرب 1948 في فلسطين.. أصول النزاع العربي - الإسرائيلي" .. بناء عملية السلام على أساس 1948 وليس 1967.. فالتقضية ليست إزالة آثار عدوان 1967، ولا مستقبل غزة والضفة، وإنما مشروعية وجود إسرائيل كدولة في نظر الشعوب الأصلية بالمنطقة.

يقول بابيه: "إن إسرائيل تتحمل القسط الأعظم من المسؤولية في المأساة التي وقعت وقتذاك، وخلقّت جداراً من الكراهية المتبادلة، وكذلك القادة الفلسطينيون والإدارة البريطانية، والرئيس ترومان الذي كان أكثر إهتماماً بإعادة انتخابه أكثر من إهتمامه بما كان يجري في معسكرات اللاجئين".

إن بابيه لا يقدم طرح الدولة الواحدة ثنائية القومية، ولا الدولتين القائميتين على موازين عام 1967م، وإنما يقدم اقتراحاً ثالثاً يقوم على دولتين طبقاً لموازين عام 1948م.

وهكذا فإذا كانت فكرة الدولة الديمقراطية الواحدة يعود بها عاموس إيلون إلى طرح بن جوريون عام 1924م، وفكرة الدولتين في إطار عملية مدريد تعود إلى الطرح العربي وإلى قرارات الأمم المتحدة بعد 1967م، فإن فكرة "آلان بابيه" تعود إلى الطرح الإسرائيلي وإلى قرارات الأمم المتحدة بعد عام 1948م.

ويعلق "محمد سيد أحمد" على اقتراح "آلان بابيه" قائلاً.. لقد ثبت أن هناك مشكلات لا حل لها في إطار التسوية الراهنة، قضية اللاجئين مثلاً، وليس متاحاً للدولة الفلسطينية المتآكلة إذا قامت أن تستوطنهم جميعاً، ومعنى ذلك تعليق مشكلتهم مبدئياً للحل.. وهو طرح سبق أن تقدمت به أطراف عربية وفلسطينية ولم يسبق أن تقدمت به أطراف إسرائيلية.

ثم يمضي "محمد سيد أحمد" مثنئاً هذا الطرح.. "إن آلان بابيه ينهض نموذجاً للإسرائيلي الذي ينبغي أن نمد إليه أيدينا.. ذلك أن نصرة آرائه نصرة للإنصاف والحق

والعدل.. وانصاف للسلام".

...

البادى من هذا العرض.. تلك المفارقات التى لا تهدأ فى التعبير عن نفسها فيما جرى من وقائع الصدام وهواجس السلام. ففيما يبدو طرح الدولة الديمقراطية العلمانية الواحدة فى فلسطين حلماً مثالياً فى الوقت الراهن، تشير دراسات المؤرخين الجدد أنه كان اقتراح بن جوريون عام 1924م، وفيما يبدو طرح الدولتين على أساس حدود 1948 حلماً بعيداً، يقول البعض أنه كان مقبولاً من إسرائيل عام 1948م.

ثم تاتى المفارقة الماثلة فى ذلك السعى العربى الدؤوب نحو تسوية على أساس حدود 1967 ثم صعوبة ذلك وشدة تكاليفه.. شهيداً وراء شهيد وقمة وراء قمة.

إن الأمور على ذلك تبدو فى غير صالح الجانب العربى.. الذى رفض النولة الواحدة 1924، ورفض الدولتين 1948، ثم رفض الدولتين 1967 فيما كانت إسرائيل على الجانب الآخر تبادر وتواجه الرفض.

...

الواقع.. إن جانب من ذلك يمثل الحقيقة، على أن الجوانب برمتها تمثل المأساة، فالجانب العربى كان يرى أن الدولة الواحدة والدولتين هو أمر خارج التاريخ وخارج الأخلاق.

فليس من مبادئ الحياة ولا منطق الأشياء أن يأتى الغاصبون فيمكنوا لأنفسهم، ثم يبدأون عروضاً بالتنازل عن بعض المغتصبات نظير قبول الأغلب منها، ثم توالى الأقدار أفعالها فيكون رفض المستضعفين لمنطق الإغتصاب مقدمة لمزيد من السطو فى جانب والضعف فى جانب، حتى تبدو العروض الأولى للمغتصبين فرساً عظيماً فانتت لضيق الرؤية وتهافت الرأى.

وعلى ذلك.. فما قدمه بن جوريون عام 1924م هو طرح بائس وظالم وكان من الطبيعى رفضه فى الحال. وربما يرى البعض أن ذات الظروف قد تكررت فى الطرحين التاليين 1948 و 1967.



على أن مثل هذا الرأي لا يمكن قبوله على اعتبار التماثل بين التواريخ الثلاث. كان عام 1924م ظروفه وملابساته، وقد حدث أن انتضت سنوات بعده ثم ظهر أن الرفض الأخلاقي هو رفض لا طائل منه، وأن الإستعلاء الخطابي هو ضرب من الوهم، وأنه إذا كان القبول بنتائج جريمة تجرى أمامنا هو قبول مشين، فإن التقاعس عن تغيير ما يجرى هو العار الأكبر الذي سيلحق الجباه والنفوس.

• • •

هنا يقتضى منطق الأشياء.. من جديد، أن يكون قبول الظلم الأصغر هو الخيار الأفضل في حالة المجز عن التصحيح.

كان رفض "الظلم الأصغر" مهبطاً لمجىء "الظلم الأكبر" .. وهنا "أعظم الأخطاء" التي ارتكبتها الجانب العربي في القرن الأول من الصراع.

جاء الرفض من جانب الكثيرين يفتقد الحكمة.. ويفتقد الإخلاص معاً، حيث خطى الخطأ إلى الخطيئة، فقد انتبه الذين يفتقدون الحكمة إلى خطأ الطريق، ثم رأوا أن مصالحهم تكمن في إعادة إنتاج الخطأ من أجل البقاء والاستمرار.

وجرت مراسم سب إسرائيل ليل نهار، وجرى التأكيد على أن حدود 1948 خيانة، وحدود 1967 خيانة، وكل الخيارات خيانة.

ولم يزد هؤلاء عن زينة القول وخشونة الصوت.. إلى أن جاءت سنوات أشد ظلاماً وضلاماً.. فراح الذين كان يسبونهم بالأمس.. يقولون: أتى تعود هذه المبادرات بعد موتها، وراح الزاعقون الصاخبون الذين رفضوا (1948) وهم أحياء يرزقون، ثم رفضوا (1967) وهم نوى سلطة وقدرة، يتسابقون على قبول "الظلم الأكبر"، بعد أن صار هو ذاته مستحيلاً.

وهكذا: توافق الرفض العربي للظلم الأصغر مع العرض الإسرائيلي بقبوله.. اتفقا العرض والرفض معاً على التمهيد للظلم الأكبر الذي جاء بجهود الطرفين دون تعصير.

• • •

واصل المؤرخون الجدد عملياتهم لإعادة النظر فيما كان، وذرعوها في سبيلهم تلك العقود البائسة جيئة ونهاب.. ما بين النكبة والنكسة وما حولهما. وتوالت رؤى وآراء تبحث في "الظلم الأكبر" وتبدي بعض الندم وبعض الاعتذار..

\*\*\*

يقدر "إسرائيل شاحك" أن حقيقة أوضاع القرى العربية التي كانت موجودة قبل 1948 مكان الأرض المقامة عليها إسرائيل الآن، هي من أشد الأسرار صوتاً في الحياة الإسرائيلية، فقد قرأنا في كتب المدارس عن أرض بلا شعب، بينما هناك (385) قرية عربية دمرتها وأبادتها إسرائيل من أصل (475) قرية كانت موجودة قبل 1948، وتم إرغام (750) ألف فلسطيني على الرحيل، وتم حفر مقابر جماعية للقتلى منهم في نهر ياسين وناصر الدين وبيت داراس.

ويسلم "ميرون بنفستي" في كتابه "المكان المقدس.. التاريخ الطموح للأرض المقدسة منذ 1948- الذي أصدرته جامعة كاليفورنيا عام 2000م بأن طرد الفلسطينيين بعد 1948 كان تطهيراً عرقياً وتتحمل دولة إسرائيل المسؤولية عنه، وإن كانت عمليات "تدمير القرى وطرد السكان" قبل 1948 لا تمثل - في رأيه - تطهيراً عرقياً.. وإنما هي عوارض حرب، يعرض بنفستي - الذي ولد لأب كان معلماً وصهيونياً عتيداً صار نائباً لرئيس بلدية القدس - في كتابه.. تلك الحوادث التي تبين أن تدمير فلسطين بناسها وعمرانها وتاريخها كان شرطاً أساسياً في الخطة الصهيونية لإنشاء إسرائيل.

ويصف كيف تكونت لجنة أشرف عليها بن جوريون في مطلع إنشاء إسرائيل، لكي تكون مهمتها إزالة كافة الأسماء العربية والإسلامية من الخرائط واختراع أسماء عبرية لها. ويصل "إسرائيل شاحك" إجمالاً إلى اتهام إسرائيل بالتطهير العرقي، وإلى وصفها بالمنصرية الكاملة.

"إسرائيل شاحك" أحد أبرز المؤرخين الجدد وأكثرهم احتراماً.. كان صهيونياً شديداً

الانبهار بديفيد بن جوريون، على أنه سرعان ما أعاد النظر بعد أن أصدر بن جوريون كتابه "مملكة إسرائيل الثالثة" التي بسط فيها نظريته العدوانية، ثم بعد متابعته لأحداث 1956 و1967 ومجزرة كفر قاسم.

ويرى الإسرائيليون في شاحك واحداً من "كارهي أنفسهم" والخارجين عن دينهم والناقمين على هويتهم من أجل رضا الآخرين.. وقد تم تهديده بالقتل عدة مرات، قبل أن يغادر الحياة في يوليو عام 2001م.

...

ينهب "أوري رام كنوع" قريباً من شاحك ومتوازياً معه.. من نقد العنصرية إلى نقد الاستعمار. ويمثل "رام كنوع" ما يمكن تسميتهم بعلماء الاجتماع الجدد.. أولئك الذين يعيدون النظر من منظور علم الاجتماع بالإفادة من علم التاريخ.

ينهب الباحث في دراسته "الموقف من الكولونيالية في علم الاجتماع الإسرائيلي" إلى أن الفكر العربي ينظر إلى المجتمع الإسرائيلي باعتباره مجتمعاً استعمارياً، وقد انتقلت هذه الرؤية العربية إلى الدوائر الراديكالية الغربية في أوائل السبعينات، فالمشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" ينظر إلى إسرائيل باعتبارها دولة استعمار استيطاني.. وهو واحد من هذه الموجة.

ويرصد "رام كنوع" تزايد الدراسات الإسرائيلية التي تعيد توصيف الصهيونية وتضعها في قائمة الحركات الاستعمارية التي استوطنت الأرض وطردت السكان الأصليين.. وهي دراسات يستلهمها التيار الجديد في علم الاجتماع الإسرائيلي، والذي يستخدم المنظور الاستعماري للتعرف على طبيعة المشروع الصهيوني في فلسطين.

والنتيجة التالية لذلك.. هي اعتقاد علماء الاجتماع الجدد في أن الجولة الثانية من الاستعمار والتي بدأت عام 1967م واعتبقتها زيادة حركة المستعمرات في الضفة وغزة هي خطر يهدد المجتمع الإسرائيلي نفسه، وأن تقسيم الأرض المتنازع عليها هو طرح لا بديل

عنه. ويذهب "ديفيد جروسمان" إلى نفس التقدير الذي يرى في حرب 1967 تأكيداً لأزمة لا خروج منها.

• • •

يعرض "جروسمان" في كتابه "الهواء الأصفر" مفارقة النجاح والفشل في صعود وهبوط دولة إسرائيل، فعلى الرغم من كل النجاحات التي حققتها إسرائيل بفكرها الصهيوني على مدى خمسين عاماً.. أبرزها اندماج مجتمع المهاجرين وتحقيق إنجازات في حقل العلوم والتكنولوجيا، فضلاً عن مجالي الزراعة والصناعة، فإن مجتمعها لا يزال يعيش وسط شعور بالضييق والقلق.. الأمر الذي وضع المجتمع الإسرائيلي في أزمة تتصاعد أبعادها منذ ثلاثة عقود.

فقد أدت حرب 1967 إلى وقوع المجتمع اليهودي أسير تصور غير حقيقي حول قدرة إسرائيل التي لا تقهر، وانطلق الفكر التوراتي الجامع يمدو بعيداً بعيداً.

إلى أن جاء زلزال أكتوبر عام 1973م لينكشف الزيف والضعف.. وهو الزلزال الذي يراه "جروسمان" سبباً في تفجير ينبوع جديدة للفكر اليهودي تعتمد على فكرة السلام كحل لمشكلات إسرائيل الخارجية والداخلية، وتبلور فكرة "السلام الآن" في شكل حركة عقب مبادرة السلام التي قام بها الرئيس السادات عام 1977م.

ومع الغزو الإسرائيلي الفاشل للبنان عام 1982م ازداد تأثير هذه التغييرات الفكرية عمقاً ووضوحاً خاصة بعد وقوع مذبحه صابرا وشاتيلا.. الأمر الذي أدى إلى تعرية مساوئ الفكر الصهيوني وبالتالي تنامي حركات السلام، وقد كشفت الإنتفاضة الفلسطينية الأولى في سبتمبر 1987 والتي قام بها جيل من الصبية ممن ولدوا بعد يونيو 1967 في كشف واقع إسرائيل.

ويصل "جروسمان" إلى أن التصاعد الديني الحاد منذ 1993، جعل ثلث الإسرائيليين يعتقدون بأن الخلاف الديني العلماني سيؤدي إلى حرب أهلية، وجعل

العلمانيين يطالبون بتقسيم فلسطين إلى ثلاث دول، الأولى للمتطرفين الأصوليين، والثانية للعلمانيين، والثالثة للفلسطينيين.

• • •

يجمل "بنيامين هالحمى" القول بأن إسرائيل تعيش منذ عام 1973م "أزمة إيمان". وهالحمى هو أستاذ علم نفس الدين في جامعة حيفا، ومثله مثل جروسمان يقعان فكراً ضمن تيار ما بعد الصهيونية.

يكشف هالحمى عن إحساس جمعى بالتفكك والانحلال، وتناقص فى السيطرة، بعد أن خيم الإحساس بالمعجز على الجميع.

ولا تمثل هذه الحالة وعكة صحية، بل هى أزمة حادة.. أزمة فقدان الحلم المساعد على الأمل والعيش.

إن أسباب ذلك الشعور الحاد بتفكك المجتمع تعود إلى الزلزال الذى ضرب إسرائيل فى حرب 1973، وكان بداية الإنتكاسات والتراجعات الدبلوماسية والإقتصادية. وقد بدأ المزاج الإسرائيلى منذ 1973، وأكثر منذ حرب لبنان 1982، وأكثر وأكثر منذ الإنتفاضة الفلسطينية 1987 متعباً ومحبطاً.

فى عام 1973م تحطم الحلم، ولم تفعل الرؤية الصهيونية التى وعدت بإنهاء التاريخ المأساوى لليهود، لم تفعل شيئاً من ذلك، وأصبحت إسرائيل فصلاً جديداً فى التاريخ العاثر لليهود.

ويخلص "هالحمى" مقالاً.. إلى أن الإنتفاضة الأولى كانت صدمة كبيرة للشعب الإسرائيلى كله، بل إنها ربما كانت أقوى من حرب 1973، لأنها أعادت الحركة الصهيونية برمتها إلى نقطة الصفر تقريباً، بعد أن أنفتحت عين المجتمع الإسرائيلى على وجوده الاستعمارى فى مواجهة السكان الأصليين.

• • •

ما يقوله "هالحمى" بالغ القيمة في كشف محنة ما وراء إسرائيل، تلك النفوس المتكسرة والقلوب المحبطة.. تلك الهزيمة أمام الذات والخسارة أمام الآخر

ذلك الغليان الذي يمضي بغير سحب.. والنوبان الذي يجري بغير قاع. إنها محنة الذات التي لم ترفعها السياسة ولم تدفعها الوفرة، وبينما كانت وسائل الإعلام تنقل أنباء القوة والسيطرة، كان الإسرائيليون في واقع آخر.. شعور آخر، لا ينفصم توسع، ولا تنفيذهم قوة.

• • •

تنقل المؤرخون الجدد في دراساتهم بيسر واضح بين نقد الوقائع ونقد الأساطير، إذ لم تكن المسافة واضحة بين الواقع والأسطورة.. فضلاً عن جملة الأساطير الكبرى التي بنيت عليها الصهيونية، كانت هناك الأساطير الأصغر التي ساهمت في التنفيذ، أي كانت هذه الأساطير الأصغر بمثابة اللاتحة التنفيذية للأساطير الكبرى.

وقد اختتم "نحمان بن يهودا" في دراسته "أسطورة المسادا" التي يمكن اعتبارها كبرى الأساطير الصغرى.. بإهتمام وفير. وتزعم الأدبيات الصهيونية الحديثة أن "المسادا" هي قصة نهاية بطولية حزينة للثورة اليهودية الكبرى ضد الرومان.. حيث فضلت جماعة من "الفاضلين اليهود" الفارين من القدس.. الانتحار في قلعتهم على أن يستسلموا للرومان ويصبحوا عبيداً لهم أو يموتوا ميتة فظيعة على أيديهم.

على أن البحث التاريخي في المصادر القديمة والحديثة يفضي - حسب بن يهودا - إلى اكتشاف أن من يُعدون في عرف اليهود أبطالاً كانوا مجرد عصابة من القتل تدعى "السيفاري"، وقد عُرفت بلجونها للإغتيال السياسي، وكانت تقوم بذلك ضد اليهود والرومان على حد سواء، وقد طُرد هؤلاء على يد اليهود لا الرومان، وهلكوا في أعالي المسادا.

• • •

كان "موشي دايان" رئيس الأركان الإسرائيلي يستلهم المسادا في حرب 1967،

وكان ينادى جنوده "قاتلوا ولا تستسلموا". وينقل "بن يهودا" عن موسى بايان أن "السادا أصبحت في نظر الشعب اليهودي رمزاً للبطولة والحرية". ويفعل ذلك، كان الجنود الإسرائيليون ينطلقون تدميراً وترويعاً بلا هوادة، ومع زحمة الأساطير، لم يكن القاتلون يشعرون بفداحة ما يفعلون، بعد أن ساد الجميع قناعة واضحة: المزيد من القتل ينهي المشكلة إلى الأبد.

• • •

تزامنت دراسات جيل المؤرخين الجدد التي تعيد النظر في الواقع والأسطورة، وحملت دراساتهم هامشاً مقبولاً من الاعتذار. وعلى نحو خاص فإن ما يمثله "إسرائيل شاحاك" يمثل الكثير من الاعتراف والرغبة في التصحيح.. ويمده تفاوت الجهود والنوايا. وتجدر الإشارة هنا إلى رؤية بعض المتأملين في خيارات ما بعد الصهيونية، وفيهم من يطلقون على أنفسهم "تيار البديل التقدمي للصهيونية"، والذي يتصدره "ميخائيل فارشوفسكي" مدير مركز المعلومات البديلة بالقدس.

• • •

يلخص "فارشوفسكي" الفلسفة الصهيونية في جدل العلاقة بين مفهومى الأقلية والأغلبية.. فمعاداة السامية مفهوم قديم ارتبط باليهود طالما كانوا يعيشون في وسط غير يهودي، وفي حالة تحولهم إلى أغلبية في أى مكان.. يحاولون التخلص من عقدة الأقلية التي تخنقهم. ولذلك أصبحت هجرة اليهود إلى إسرائيل الطريق المباشر لإنهاء وضعهم كأقلية بحيث تكون الهجرة محاولة لمنع أغلبية.

ولذلك، لم يكن قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين 1947 مقبولاً من بن جوريون والقيادة الصهيونية لأنه يعنى أن الدولة اليهودية ستضم (45%) من سكانها عرباً، وهكذا كان طرد الفلسطينيين من أراضيهم جزءاً من خطة وليس مجرد حادث في إطار الحرب العربية - الإسرائيلية.

ويحدد فارشوفسكي الدور الأساسى للتقدميين في إسرائيل في تذكير الإسرائيليين

دائماً أن المكان الذي نعيش فيه هو مكان العرب.. مكان نو تاريخ عربي وحضارة عربية وأمة عربية كبيرة، ولذا يجب أن نقصر كإقليمية.. وأن نحترم حقيقة أننا كذلك في عالم عربي، وأن نبدي استعدادنا لأن نكون جزءاً من المنطقة وتطلعاتها للوحدة والإستقلال والتنمية والحرية.

وهذا هو البديل التقدمي.. أما مخروع بهريز حول الشرق الأوسط الجديد فهو استمرار للفكر الصهيوني القديم، ويجب على المنظمات التقدمية العربية أن تعاون وأن تناضل مجتمعة لإعادة بناء الوحدة العربية ضد الإمبريالية.

وهكذا.. يتجاوز فارشوفسكى الصهيونية إلى الوقوف تماماً في صفوف اليسار العربي.. وينفس المفردات من الوحدة والإستقلال إلى مجابهة الإمبريالية.

وقد أمت آراء إسرائيل شاحاك، وآلان بابيه، وفارشوفسكى ممن كانوا أكثر موضوعية في جملة المؤرخين الجدد إلى إطلاق موجة نقد عنيفة ضد التيار بكامله.

• • •

لقد جرى وصف تيار ما بعد الصهيونية بالمطحية والجهل المعرفي والخيانة للمشروع الصهيوني وخيانة بولة إسرائيل.

ويذكر الباحث اليهودي الأمريكي "ايان لوستيك" أن حدة الجدل حول ما يقوم به المؤرخون الجدد تصل إلى اتهام الظاهرة كلها بالتحريف والخيانة والرغبة في تدمير إسرائيل، وذلك لكون المؤرخين الجدد لا تمنح دراساتهم التجربة التاريخية لليهود والأيدولوجيا والممارسة الصهيونية مكان الصدارة في السرد.

وفي كتابه "فبركة التاريخ الإسرائيلي.. المؤرخون الجدد" الصادر عام 2000م عن دار "فرانك كاس" في لندن.. يشن أستاذ الدراسات المتوسطة في جامعة لندن "افرايم كارش" هجوماً شديداً على المؤرخين الجدد.

يربط "كارش" في كتابه بين تطور أفكار المؤرخين الجدد وتيار "ما بعد



الصهيونية" .. والمراجعات التي تدور حول ضرورة انتقال إسرائيل إلى "مرحلة النضج" بعد الإنتهاء من مرحلة التأسيس، ونبذ الكثير من مكونات الفكرة الصهيونية التقليدية مثل تفرد القومية اليهودية ونقاء الشعب اليهودي.. بعد أن بلغت الدولة مرحلة الثقة بالنفس وتقبل ترف اخضاع المقولات الأساسية للبحث.

انطلق "كارش" في كتابه هذا، ثم في فصلية "ميدل إيست كوارترلي" .. وفي الملحق الأدبي لصحيفة "التايمز" البريطانية ليشن هجوماً واسعاً على الفكرة والفكرين.. مختصاً منهم إيلان بابيه وآفي شلايم، ثم متوسعاً ليشمل الآخرين.

يرى "كارش" أن تيار ما بعد الصهيونية قد قام بمراجعات ساذجة لا علاقة لها بالعمل الأكاديمي، فالمؤرخون الجدد غير مؤهلين أكاديمياً وأساليبهم البحثية غير موضوعية واختيارهم للوثائق إنقاضي، وهم غير مطلعين بشكل كاف، ولا يحسنون التفسير ولا التحليل، ويمتصدون اقتباسات مجتزأة من سياقاتهم، ولا يعملون البراهين فيما يبحثون، ثم يصلون إلى نتائج خاطئة ومشوهة.. نتيجة الجهل وسوء النية معاً.

وبدوره، فقد قام "بينى موريس" بالرد على هجوم "فرايم كارش" متهماً إياه بالجهل.. وبأنه غير مؤهل أكاديمياً، وماضيه كله كان في جهاز الإستخبارات العسكرية الإسرائيلية، وإنجازاته الأكاديمية لا تتعدى بضعة دراسات في الإستراتيجيات العسكرية مصدرها الأساسي هو قصاصات الصحف، وذلك لا يؤهل "كارش" للدخول إلى ميدان التاريخ الذي هو أرقى من أن يصل إليه.. |

• • •

بقي الجدل على حالته بين المؤرخين الجدد وبين معارضيهم بغير حسم طيلة التسعينات، كان المؤرخون الجدد يزدادون انتشاراً وتكتسب كتاباتهم إهتماماً، وكان الآخرون ينظرون في غير تقدير ولا احترام.

ولما جاءت الإنتفاضة الثانية.. ودخلت إسرائيل أكبر مآزقها منذ نشأتها، تغيرت

الكثير من المواقف وتبدلت الكثير من الرؤى.. وتحرك الجميع نحو اليمين، واختفى هامش الاعتذار وكان شيئاً لم يكن.

وفي تصريحه إلى وكالة رويترز للأنباء في 27 يناير 2002م قال "بينى موريس" "سوف ننتصر في النهاية" وقال توم سيجيف "إن الفلسطينيين يدفعوننا ثانية للعودة إلى التوجه القبلي، والإرتقاء في أحضان الصهيونية.. وفي هذه الأعماق تصعب رؤية أفكار جديدة.. قبل الإنتفاضة الثانية كان الإسرائيليون أكثر انفتاحاً أمام الآراء الجديدة، ولكن الإنتفاضة عادت بنا إلى مناخ تمنيت أن نكون قد خرجنا منه". ونقلت "رويترز" عن عدد من المؤرخين الجدد قولهم "إن القدرة على التعاطف مع الفلسطينيين الذين يعمشون تحت الإحتلال قد انهارت تماماً".. وكانت الإعلانات تملأ الشوارع "سوف تفتصر الصهيونية".

كان هناك في الغناء البعيد نفر قليل مختلف.. كانوا يطلقون لافتات عليها "كفى للإحتلال.. كفى للصمت.. من يسمت فهو شريك.. من لا يرفع صوته يتحمل مسؤولية الدمار المتبادل.. "حكومة شارون تقوم بأعمال شريرة ينتصب فوقها علم أسود" ولكن جريمة إسرائيل كانت أكبر من تلك الإيماءات، وكانت نكسة المؤرخين الجدد غطاء لما يجري..

• • •

لقد اختفى المؤرخون الجدد في أكثر الأوقات احتياجاً إليهم، وبدت آراؤهم ومؤلفاتهم أوهن من الحركة بعيداً عن رفوف المكتبات وقاعات البحث، وكأنه ينبغي الإنتظار نصف قرن من جريمة التطهير العرقي التي تجرى حتى تنكشف الوثائق ويتم النظر فيما إذا كان هناك ما يبرر الاعتذار!

بنا المؤرخون الجدد.. وكانهم، فيما مضى من نقد واعتراف، كانوا يمارسون رياضة ذهنية وتمارين أكاديمية بغية دعم سيرتهم الذاتية.

• • •

أضاع المؤرخون الجدد فرصة ثمينة لنضال حقيقي من أجل السلام، فلا قيمة لخطاب

السلام فى زمن السلام.. بل القيمة لخطاب السلام فى زمن الحرب.. وللتنبيه فى زمن الغفلة.. ولفناء التسمية فى زمن الصدام.

تنافس المؤرخون الجدد على تسويق السلام حين كانت المفاوضات تتوالى جولاتها، وحين كان الإعلام متوجهاً إلى أنصار السلام، وكان المولون فى كل مكان يخذقون على الدعوة والدعاة.. وحين انحسرت الشاشات وضائق التدفقات.. لم يكن فى إسرائيل من يواصل ما كان قبل شهور.

ومرة أخرى.. عجزت الثقافة عن مواجهة السياسة، وفشلت الكتب فى ايقاف الرصاص.. وكان المؤرخون الجدد يهتفون: سوف ننتصر.. سوف ننتصر.



**تجديد الصهيونية..  
الشرق الأوسط الجديد**



يروى الإسرائيليون فيما بينهم هذه النكتة.. "عاد جبريل إلى السماء بعد مهمة استطلاعية إلى الأرض.. سأل الرب جبريل: ماذا رأيت هناك؟ قال جبريل: في أفريقيا الوضع سيّ جداً.. الناس يموتون جوعاً.. وفي أوروبا.. مع أن الناس يعيشون جيداً، فإنهم غير سعداء، والسبب في ذلك هو أنه يجب عليهم أن يدفعوا أسعاراً غالية.

وفي إسرائيل فإن الوضع محير.. التضخم المالي مرتفع جداً، والضرائب مرتفعة جداً، ومع ذلك فالجميع يعيشون جيداً. الناس سعداء جداً.. ثم سأل جبريل الرب: وماذا إنن؟ فقال الرب: من الواضح أنهم يعتمدون على لأخلصهم مرة أخرى".

ويشرح "لورانس ماير" في كتابه "إسرائيل الآن" الذي ترجمه "مصطفى الرز" عام 1997م.. ما وراء النكتة من مفارقات الإقتصاد السياسي في إسرائيل. ففيما تحاول تل أبيب أن تكون أكثر اكتفاءً ذاتياً من الناحية العسكرية، فإنها أكثر اعتماداً من الناحية الإقتصادية على المساعدات الخارجية.. فقد أصبح إقتصاد إسرائيل مدمناً للمساعدات.

• • •

في عام 1975م كتب "أمنون روبنشتاين"، الأستاذ في جامعة تل أبيب في كتابه "حتى نكون شعباً حراً" يقول.. إن عدد العمال المنهمكين في المهن الإنتاجية من صناعة وزراعة وبناء انخفض إلى (23٪)، وهو تغيير يعنى التحول من مجتمع منتج إلى مجتمع يعتمد على غيره. وخلال عقد السبعينات استهلكت إسرائيل أكثر مما أنتجت.

في أثناء حملة انتخابات الكنيست عام 1977م حذر "ايغال يادين" زعيم الحركة الديمقراطية من أجل التغيير من أنه "ليس هناك خطر أعظم يتهدد مستقبلنا الروحي واستقلالنا أكثر من المساعدات التي نحصل عليها من إخواننا وأصدقائنا".

وكان عضو الكنيست "ماثير آميت" الذي عمل رئيساً لشركة صناعات "كور" التابعة لاتحاد النقابات العمالية يقول: "ثلث العجز المالي الوطني في إسرائيل يقوم الأمريكيون

بتغطيته، وقد أصبحنا أكثر اعتماداً على الولايات المتحدة، الأمر الذي يمرضنا إلى ضغوط إقتصادية قوية، وهي ضغوط ربما تكون مصحوبة بمقوبات إقتصادية قوية".

• • •

يجمل "لورانس ماير" القول بأن التطور الإقتصادي في إسرائيل يعدّ من معجزات ما بعد الحرب العالمية الثانية، فليس هناك بلد آخر يمكنه أن يزعم أنه قام في وقت واحد ببناء مجتمع حديث وجيش حديث، ومجمعات صناعية حديثة، وزيادة حجم الصادرات في غضون ثلاثين عاماً.

لكن إسرائيل في الوقت نفسه تعاني من تضخم مالي مرتفع، ولم يحدث أبداً أن باعت إسرائيل إلى السوق العالمي أكثر مما اشترت منه، وقد ارتفعت ديونها الخارجية على نحو دراماتيكي، ويعيش الإسرائيليون في ظل مستوى من الحياة لن يمكنهم مواصلة العيش في ظلّه بدون المساعدات الخارجية.

ويصف "ماير" الحالة المعيشية في إسرائيل على نحو دقيق وجذاب.. مؤكداً ما جاء في البداية.. عن إقتصادات متعثرة، وحياة ميسورة. في إسرائيل.. يمهش الأشخاص من خلال السحب على المكشوف من الحساب الجاري، ومعظم الإسرائيليين يعيشون في ظل أرصدة سلبية دائمة في حساباتهم، حتى إن رواتبهم لا تفعل أكثر من تسديد جزء من ديونهم، وهنا ما يجعلهم يقترضون من البنك بمعدلات فائدة تزيد على معدل التضخم المالي، ويعيشون شهراً آخر.

والإسرائيليون الفقراء يعيشون عند حد الكفاف، وهم قلما يأكلون اللحوم، ولا يملكون السيارات، ويعيشون في شقق صغيرة ومزدحمة، ويركبون الأتوبيسات المدعومة من الحكومة.

• • •

يذكر التقرير السنوي عن حالة الفقر في إسرائيل أنه في عام 1999م عاش (20%) من الإسرائيليين تحت خط الفقر، وأن (25%) من أطفال إسرائيل فقراء، وأن القدس، وبنى باراك، وأشدود هي أكثر المدن فقراً.. وهؤلاء الـ (20%) قد انخفض



دخلهم بنسبة (26%) عن خط الفقر.

وفي عام 2012م كان الفقر لا يزال عند مستواه.. (20%) من المجتمع الإسرائيلي، وقال شيمون بيريز في سبتمبر 2012: "إن الفقر ربما يكون أكثر خطراً على إسرائيل من الحالة الأمنية، ويجب علينا أن نوقف فوراً حالة (توريث الفقر) في إسرائيل".

ويعرض كتاب "إسرائيل الآن" نماذجاً للاحتياجات المعيشية في إسرائيل والتي تفصح عن مشكلة حقيقية وأزمة قادمة فيما لو زالت المساعدات الخارجية.. فأسعار البيض والجبين والحليب مساوية لما يمكن أن يدفع المرء في الولايات المتحدة، أسعار اللحوم والدجاج أعلى من مثيلاتها في أمريكا.. وأما أسعار الشقق فمرتفعة للغاية.

والعادة أن الشباب المتزوج يذهب إلى الآباء في طلب المساعدة، والكثير من الآباء يأخذون ما أمكنهم توفيره من نقود قليلة ويشتررون شققاً، ثم يقومون بتأجيرها في إنتظار ذلك اليوم الذي يحتاج فيه الأبناء إليها، وفي حالات عديدة يضطر الزوج الشاب إلى العيش مع الآباء والنوم الجماعي في غرفة واحدة.

إن إسرائيل تعاني نقصاً حاداً في الأماكن السكنية، والجزء الأكبر من المباني أقيم بصورة متسربة، فيما بات الكثير منها في حاجة إلى تجديد. وتكاليف تأثيث شقة أو بيت مرتفعة جداً، فالثلاجة العادية تزيد تكلفتها عن الألف دولار وتزيد الفسالة عن الثمانمائة دولار، وأما الأثاث فمرتفع.. لأن الخشب والمسامير والأشياء اللازمة للصنع يتم استيرادها من الخارج.

وتبلغ تكلفة الماكينات والأجهزة بصورة عامة في إسرائيل ضعف تكلفتها في الولايات المتحدة الأمريكية.

كيف يعيش الإسرائيليون والحال كذلك؟.. هناك جواب واحد عند "ماير" هو الصعوبة، فهم يلعبون لعبة الكراسي الموسيقية المالية مع دخلهم الشهري.

ولا يرى الإسرائيليون رواتبهم في العادة، فهم باستمرار مدينون للبقالة والجزارة وللبنك وبائع الفاكهة والخضروات.. وهم يوزعون دخلهم بطريقة قلماً تؤدي إلى تسديد أى دين.. إذ يبقى الدين متجدداً طيلة الحياة.

• • •

وهكذا.. فيما تعيش إسرائيل في إقتصاد كلى يبدو قوياً وناجحاً، فإن الوضع المعيشى للإسرائيليين لا يعكس تلك الأرقام التى ينطق بها الإقتصاد الإسرائيلى.

وإذا ما كان ممكناً أن نعلم مع دراسات عديدة مثل تلك التى أشرنا إليها عند ماير، ومثل دراسة "أحمد السيد النجار" التى أصدرها مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام عام 1998م بعنوان "بناء دولة.. دور المساعدات الخارجية لإسرائيل" فضلاً عن دراسات "رمزى زكى" وآخرين ممن أجادوا فى دراسة الإقتصاد الإسرائيلى.. إذا كان ذلك التسليم ممكناً - وهو ممكن - فإن النتيجة التالية.. هو الشعور الإسرائيلى بالقلق فيما لو انتهى الصراع وساد السلام، واختفى دور المساعدات الخارجية، وتُركت إسرائيل لتواجه مصيرها فى الإقتصاد والسياسة معاً.

والأغلب أن مثل هذا الطرح كان ماثلاً فى ذهن شيمون بيريز وغيره ممن أقلقهم بقدر ما أغواهم أن ينتهى الصراع عند نقطة ما وأن يحل الإقتصاد محل السياسة.

• • •

الفكرة الحاكمة لكل مشروع الشرق الأوسط الجديد هى هذه بالضبط. أن يحل الإقتصاد محل السياسة.. وأن يحل الاشباع محل التاريخ.. كما تحل الوفرة محل الثقافة. ذلك أنه إذا كان التاريخ والدين سوف يغذيان الصراع باستمرار، فليس غير الإقتصاد يمنع الصدام ويؤكد الوفاق.. بل ويخلق ضرورات التعاون والانفتاح.. وقتها يصبح التطبيع مصلحة لا رؤية، وضرورة لا فضلاً، وحتمية لا اختياراً.

فنداء الإقتصاد يفترق عن السياسة فى أنه يعمل بحساب، ويتجه بحساب، ويبقى ما بقى الحساب، وحين تدور عجلة الإنتاج والتسويق وتظهر إلى السطح تلال من أوراق البنكوت ما كان لها أن تأتى فى ظروف المقاطعة والرفض والجهاد.. سوف تجد هذه التلال من يحميها على الجانبين.

• • •

جاء "شيمون بيريز" داعياً إلى ذلك الشرق الأوسط .. مدفوعاً بالخوف من نهاية عصر المساعدات، ومتشوقاً إلى فتح جديد من فتوحات إسرائيل.. يليق بغزوات العصر وطموحاته.. كما جاء مدفوعاً بنجوميته الخاصة في سلام تحميها الكاميرات، ووقفة فاخرة في أوصلو لنيل جائزة نوبل للسلام.. إلى إحساس بنجاح إسرائيل.

في تلك الأثناء عام 1995م.. كان الناتج المحلي الإجمالي في إسرائيل يصل إلى (91) مليار دولار، ووصل متوسط نصيب الفرد إلى (16) ألف دولار، وبلغ معدل النمو بحسب تقديرات البنك الدولي إلى (4,6%) طيلة النصف الأول من التسعينات.

وهكذا.. بدأ للحاكمين في تل أبيب.. أن الفرصة مواتية للحركة.. وأن مرحلة جديدة تبدأ.. وطريقاً جديداً يجري تمهيداً في هدوء، وكان العالم في الخارج يخطو هو الآخر صوب عملية تاريخية أكبر عنوانها العام.. نهاية السياسة وبداية الإقتصاد.

• • •

قضى السياسي الإسرائيلي "شيمون بيريز" نصف قرن من العمل المتواصل في الشأن العام، تعاقبت عليه خلال هذه السنوات أحداث الشرق الأوسط بكاملها.. سبعة حروب وانتفاضتين وثورة دائمة ضد إسرائيل.

ولد "بيريز" في بولندا عام 1923م، وهاجر إلى فلسطين عام 1934م حين كان عمره أحد عشر عاماً، وهناك عمل مع أسرته خبيراً لإحدى المزارع الجماعية اليهودية ذات التوجه اليساري. وصار بيريز يسارياً إشتراكياً بالقتال، وعندما تأسس الإتحاد العام لنقابات العمال (المستدروت) صار أصغر الأعضاء المنضمين إليه.

التحق بيريز بالدراسة الجامعية في جامعة تل أبيب، ولكنه انصرف عنها مفضلاً العمل اليدوي الذي كان يمارسه ليلاً للإنفاق على تعليمه.. ولم يحقق بالطبع نجاحاً يذكر في مضمار العمل اليدوي، ولولا انضمامه إلى المستدروت وشغفه بالعمل السياسي لبقى بيريز عاملاً متوسط القيمة متواضع المعيشة.. غير أنه حاز نجاحاً هائلاً ومفاجئاً حين بدأ يتوجه للعمل العام

وشئون السياسة، حتى إنه عُين مديراً عاماً لوزارة الدفاع وعمره (29) عاماً.

انضم بيريز إلى حزب "الاباي" الذي أسسه بن جوريون بعد أن ثبت أقدامه في المهستدروت، وحين وقعت انشقاقات "الاباي"، انشق بيريز هو الآخر إلى أن صار في أبريل 1977 رئيساً لحزب العمل، ورئيساً مناوباً للحكومة مع اسحق شامير.

وعلى الرغم من وضعيته النافذة في النظام السياسي الإسرائيلي، ومما يملك من لباقة وذكاء ودرجة واضحة من البلاغة وقوة التعبير، فإن بيريز لم ينجح قط في أية انتخابات دخلها.. إذ لقي بيريز ست هزائم قاسية.. حتى لقب "بالرجل الذي ولد ليخسر"!

كان بيريز من بين المؤيدين لخوض الإعتداء على مصر عام 1956م، ومن الذين حرضوا على حرب 1967 على الرغم من تردد العديد من القادة العسكريين والدينيين حسب اعترافات موسى دايان.

ويذكر "اسحق رابين" في مذكراته أن "بيريز كان يؤيد سياسة الاستيطان أينما يريد المستوطنون"، وكان رابين وقتها يعتقد أن بيريز يقود بتطرفه الإسرائيليين صوب اليمين ويزيد من قوة الأصوليين اليهود الذين قادوا حملة الاستيطان الأولى.

وفي شرحه لعلاقة رابين ببيريز يقرر "افرايم انبار" في كتابه "رابين" أن "وزير الدفاع شيمون بيريز كان وراء التصعيد العسكري في لبنان أواسط السبعينات، وكان على اسحق رابين لجمه في كل مرة، وكان عليه محاولة التوصل إلى حلول سلمية للأزمات مع لبنان وسوريا من دون الاقتراب من المواجهة العسكرية التي طالما أيدها بيريز".

ويذهب "مروان بشار" في قراءته لشيمون بيريز (الحياة 27 أبريل 2000م) إلى أنه لم يوافق على دعم المفاوضات مع العرب إلا بعد أن أصبحت التسوية جزءاً من الإستراتيجية الأمريكية بعد حرب الخليج، وبعد أن انتقل بيريز أيديولوجياً وسياسياً من كونه "رجل أوروبا في حزب العمل إلى كونه رجل الولايات المتحدة فيه"، وتوج بيريز ذلك التوجه الجديد باتمام خصخصة الإقتصاد الإسرائيلي التي كان الليكود قد بدأها في نهاية

السبعينات، على الطريقة الأمريكية.

وهكذا.. كان طريق شيمون بيريز من شهادة جامعية لم يتحصلها إلى صورة إنسانية لا يستحقها، ومن الإيمان الكامل بالحرب إلى الحديث المفرط عن السلام.

• • •

يعود إلى شيمون بيريز الطرح النظري القوي لشرع الشرق الأوسط الجديد، فعلى الرغم من أن أفكار الشرق أوسطية كإطار تعاوني بديل عن الإطار الصراعى بين العرب وإسرائيل يعود إلى جهود ذهنية متناثرة بدت أكثر وضوحاً بعد حرب 1967.

وعلى الرغم أيضاً من دعوة وزير الخارجية الإسرائيلي "آبا ايبان" فى خطابه بالجمعية العامة للأمم المتحدة فى 18 مايو 1967م إلى سلام كامل وإلى وسائل اتصال بين حيفا وبهروت ودمشق وعمان والقاهرة، وبين وادى النيل والهلال الخصيب عبر جنوب النقب.. وكذا اتصالات سلكية ولاسلكية، وتعاون علمى واقتصادى بين بلدان الشرق الأوسط. فإن بلورة جملة هذه الإشارات إلى طرح متكامل.. كان محفوظاً بأن وجد أطراً عديدة للاختبار والتطبيق تعود إلى بيريز ومشروعه حول الشرق الأوسط الجديد.

وضع شيمون بيريز كتاباً بنفس العنوان.. حاز درجة عالية من الشهرة، ثم راح يؤكد على نفس الأفكار فى كتابه التالى "الكفاح من أجل السلام".

يقول بهريز فى "الشرق الأوسط الجديد".." خلال السنة الأولى من حكومة العمل التى شكلها اسحق رابين عام 1992م توليت وزارة الخارجية، وأرادت أوروبا دوراً لها، فكان أن رسمتُ معهم برنامجاً خاصاً بشرق أوسط جديد يقوم على التعاون الإقتصادى، ثم يتلوه تفهم سياسى متواصل، إلى حين تحقق الاستقرار. وقد حفزت هذه الفكرة تحليلات العديد من حلفاء إسرائيل وبينهم فرانسوا ميتران وهيلموت كول "

"ويعود للمستشار الألمانى كول الفضل فى زرع الاحتمالات العظمى للشكل الإقليمى الجديد لكل من أوروبا والشرق الأوسط.

وبدأت الشركات الأوروبية الرئيسية فى تطوير خطط لتوسيع النشاط التجارى فى الشرق الأوسط، وبدأ البنك الدولى نشاطه، حيث وضع أسس أنشطة مختلفة، وعرض اليابانيون تولى أمر القطاع السياحى، وتولى الفرنسيون والألمان قطاعى النقل والمواصلات، والإيطاليون المشروع المحتمل لقناة البحرين الميت والأحمر، والنمساويون قطاع الكهرباء والمياه، والدانمركيون الزراعة، والكنديون اللاجئين، والبريطانيون التجارة الحرة، والأمريكيون الموارد البشرية.

ويذكر بيريز أن "أبو العلاء" رجل منظمة التحرير الفلسطينية فى محادثات أوسلو كانت له خطة تنمية إقتصادية للشرق الأوسط لقيت إهتماماً فى قراءتها والاطلاع عليها.

• • •

حدّد كتاب "الشرق الأوسط الجديد" هدف المشروع فى إنشاء مجموعة إقليمية لها سوق مشتركة وهيئات مركزية منتخبة وفق نموذج المجموعة الأوروبية، والهدف من ذلك هو التحول من إقتصاد الحرب إلى إقتصاد السلام. فقد أنفقت الدول العربية وإيران (180) مليار دولار على شراء السلاح فى الفترة من (1973 - 1991).

ويعرض بيريز بعض أسعار الأسلحة.. فيشير إلى أن الطائرة المقاتلة "إف 15"، أو "ميراج 2000" تتكلف (60) مليون دولار، وأن صاروخ "اباتشى" يتكلف عشرين مليوناً، ويصل صاروخ "سكود - دى" إلى خمسة ملايين، كما يصل سعر الدبابة الشرقية الصنع إلى مليون دولار، والغربية الصنع إلى خمسة ملايين من الدولارات.

ثم يخصص بيريز فصلاً أخرى من كتابه.. عارضاً مصادر الاستثمار والتمويل، والحزام الأخضر، والمياه، والنقل، والسياحة.

• • •

كان بيريز أوفر حظاً من منظريين عديدين حول العالم.. حيث لقى تصوره حول الشرق الأوسط الجديد إهتماماً وتطبيقاً، فكان مسار المفاوضات متعددة الأطراف، والمؤتمرات الإقليمية للتعاون الإقتصادى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وبدا الشروع فى تأسيس بنك لتنمية الشرق الأوسط، ومشروع للتعاون الثلاثى بين إسرائيل والأردن وفلسطين لاستغلال منطقة البحر الميت.

ولم يدم الحال طويلاً.. فقد وصل الليكود إلى الحكم فى إسرائيل عام 1996م، وتجاهل نغنيهاو الفكرة برمتها، وحين عاد العمل إلى السلطة عام 1999م، لم يشر برنامج إيهود باراك إلى الشرق أوسطية.. لا مفهوماً ولا تطبيقاً..

وباستثناء مسمى الوزارة التى تولاها بيريز فى حكومة باراك "وزارة التعاون الإقليمي" ومستوى التعاون بينها وبين مركز بيريز للسلام الذى تأسس عام 1998م.. فإنه لم يكن هناك ثمة جديد فى عهد باراك إلى أن جاء بيريز وزيراً للخارجية فى عهد شارون.

• • •

إذا كان الوجه الأول لشمون بيريز هو الإيمان بالحرب، والوجه الثانى هو الحديث عن السلام.. فإن الوجه الثالث هو خلاصة الوجهين معاً

وكثيراً ما أعلن بيريز قبوله إقامة بولة فلسطينية، ثم نفى ذلك قبل نهاية اليوم.. ولم تعد مثل هذه التفاصيل فى الوجه الثالث لبيريز تدعوه للقلق أو بالرغبة فى ضبط الصورة على نحو أفضل.. وكثيراً ما تعاقبت على لسانه عبارات من نوع "نحن لسنا فى حاجة إلى شهادة حسن سير وسلوك من القاهرة".. "إننا نؤمن بعدالة ما نفعله ولا يعنيننا كثيراً ما يقوله غيرنا مادامنا نرى أن أفعالنا تتوافق مع مصالحنا".. "إن الجميع يعرف أن أى طرف لا تقف معه الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يواجه مشكلة العيش فى هذا العالم.. وأمريكا معنا".

وقد دفع هذا الشكل الإستعلائى من الخطاب السياسى النائب العربى فى الكنيست "محمد بركة" إلى توجيه رسالة إلى لجنة جائزة نوبل فى استكهولم يطالب فيها بسحب الجائزة من بيريز لأنه "يبنى إلى سمعة الجائزة".

وفى عام 2007م طالب العضو العربى فى الكنيست "جمال زحالقة" بسحب نوبل من بيريز. وفى عام 2009م أطلق نشطاء عريضة توقيع لأجل سحب جائزة نوبل من بيريز.

• • •

مرة تحدث بهريز في المنتدى الإقتصادي العالمي في دافوس فقال: "إننا لا نريد لإسرائيل أن تكون جزيرة من الثراء في بحر من البؤس، أو جزيرة من النظافة وسط بحر من التلوث وأنا أقول لهم لا تكونوا حمقى أيها السادة.. من يريد السيطرة على فقركم؟ هل جننتم؟ إننا بالكاد نسيطر على ما لدينا من فقر.. هل تعتقدون أننا نريد الذهاب إلى مصر للسيطرة على فقرها؟ وما الدافع لذلك؟.. ليست لديكم إقتصادات وطنية.. بل فقر وطني ~ ثم يذهب بهريز إلى حيث يقصد.. " لا خيار أمامنا إلا أن يصبح العالم قديماً مثل الشرق الأوسط، أو أن يصبح الشرق الأوسط جديداً مثل العالم".

• • •

الواقع.. أن بعض هواجس بهريز كانت في موضعها، فهاجس ما بعد العونات.. كافٍ لقلق عظيم. فالتوقع إذا ما نجحت أي تسوية، أن تصبح إسرائيل للمرة الأولى مع نفسها وجهاً لوجه، وأن يفيق الإسرائيليون على حقائق الإقتصاد الذي يمثل نصف عالية على الغرب، وبالتوازي فإن تعثر التسوية من شأنه أيضاً أن يطلق الثورة الفلسطينية وأن يرهق الإقتصاد العالة.

لقد جاءت الإنتفاضة الثانية، فحسب مكتب الإحصاء المركزي في إسرائيل، فإن إجمالي الناتج المحلي قد انكمش بنسبة (7,4%) سنوياً، وهو أسوأ أداء للإقتصاد الإسرائيلي منذ 1953، وبدوره فإن شارون لم يدخر جهداً لتحقيق هذا الأمر.

ويرى المعنيون بآرييل شارون أنه مسرف بلا حساب، وعندما كان وزيراً للزراعة في حكومة بيجين الأولى حوّل الأموال إلى المستوطنات وأهمّل الزراعة. وفي سبتمبر 1984، تولى وزارة الصناعة وانتهى عهده إلى تدهور الصناعة وإرضاء رجالها.

وفي يوليو 1985، صوّت شارون ضد البرنامج الإقتصادي الذي نجح في إنقاذ الإقتصاد الإسرائيلي من التضخم، وفي عام 1990م تولى وزارة الاسكان، وهو على صلة شخصية حميمة بالمقاولين.. فتضامنت الدولة في بيع الشقق التي بنيت في مواقع غير مناسبة حسب مشروع شارون بإعادة رسم خريطة إسرائيل، ولم يرغب المهاجرون في



الذهاب إلى مناطق لا تتوفر فيها أماكن عمل ومستقبل.. وظلت الأحياء السكنية خاوية وخسرت الدولة الكثير.

واقترح "اسحق موداعي" وزير المالية محاكمة شارون بسبب انحراف ضخم بأربعة مليارات شيكل، ثم جاءت نكبة الإقتصاد الإسرائيلي في ظل حكمه الذي جاء مهاناً بفعل الإنتفاضة التي لم تحفظ ماء وجهه.

• • •

جاءت الإنتفاضة الثانية في وقت كان الإقتصاد الإسرائيلي يحقق فيه نهوضاً قوياً، بلغ معدل النمو خلاله (6%) عام 2000م حسب بيانات صندوق النقد الدولي في مايو 2001، فانخفض معدل النمو، وتراجع الشيكل في مقابل الدولار، وتدهورت مؤشرات البورصة الإسرائيلية، وتراجعت الاستثمارات الأجنبية المباشرة بعد أن كانت (9,1) مليار دولار عام 1998م، وهو رقم يتجاوز قيمة الاستثمارات الأجنبية المباشرة لأى دولة عربية مغربة في ذلك العام.. كما زادت البطالة وتدهور مستوى المعيشة، وخسرت إسرائيل في أول عامين للإنتفاضة نحو (12) مليار دولار.

• • •

على جانب آخر.. كان الفلسطينيون الذين اقتنع عدد منهم بمفاهيم الشرق الأوسط الجديد.. ويأملون نهاية لعذاب طويل ومرير.. وبداية لإقتصاد قد يقدم مالم تقدمه السياسة.. كانوا ينتظرون، وطال الإنتظار.

ويذكر "قيس عبد الكريم" .. أن الحلم الوردى الذى جرى الترويج له عند إبرام أوصلو بشأن تحويل غزة إلى "سنغافورة البحر المتوسط" لم يلبث أن تحول سريعاً إلى كابوس.. فقد تم تكريس الهيمنة الإقتصادية الإسرائيلية عبر اتفاق باريس، وتوالت الآثار المدمرة لإجراءات الإغلاق والحصار، وجاء اتفاق باريس "الملحق الإقتصادى لاتفاق أوصلو" تكريساً لواقع الإلحاق الإقتصادى الإسرائيلى، وترسيماً لحالة الاندماج بالإقتصاد الإسرائيلى المتفوق.. من موقع التبعية.

وعلى ذلك.. فقد انكمش الإقتصاد الفلسطينى، وتراجع الناتج المحلى الإجمالى بنسبة (16٪) خلال السنوات الثلاث التى أعقبت البدء بتطبيق أوسلو، وتقدر نسبة التراجع فى الناتج القومى بحوالى (25٪) خلال الفترة من (1995 - 1997)، وفيما كان متوسط دخل الفرد قبل أوسلو (1800) دولاراً عام 1992م، بلغ (1500) دولاراً عام 1997م.

كما تراجعت حصة الاستثمارات الخاصة من (21٪) من إجمالى الناتج المحلى الإجمالى عام 1993م إلى (10٪) عام 1997م، وتفاقم العجز فى الميزان التجارى حيث وصل إلى (50٪) حسب تقديرات البنك الدولى، وهى نسبة لا يمكن احتمالها طويلاً. ووصلت البطالة إلى (35٪) عام 1996م، فيما وصل عدد الفلسطينيين تحت خط الفقر إلى عشرين بالمائة، ما الذى يمكن استخلاصه إنن مما يجرى؟

\*\*\*

لقد باتت مشكلة المياه واحدة من أبرز المعضلات التى مرّت عليها الأفكار الشرق أوسطية.. إن أزمة المياه تتفاقم يوماً بعد يوم.. فى دمشق وعمّان.. تتراكم الصنابير القاحلة، وتغييب بنصف الشهر أو يزيد تدفقات المياه إلى المنازل.

وفى فلسطين تزيد الأزمة، وفى إسرائيل تبلغ غايتها برغم الممرقات والإعتداءات واسعة النطاق على مصادر المياه العربية. ومرة تنشر الصحف أخباراً عن حلول تركية وأخرى مصرية، تارة بأفكار عن بالونات عملاقة تمضى فوق البحر إلى موانئ المنطقة، وتارة بأفكار عن توصيل مياه نهر النيل عبر سيناء إلى النقب لتكمل "الترع" المسيرة لاحقاً.

ويذهب "محمد سيد أحمد" فى كتابه "سلام أم سراب" الذى نشره عام 1995م بعد عشرين عاماً من كتابه الشهير "بعد أن تسكت المدافع" إلى أنه بالإمكان قيام عمل عربى - إسرائيلى مشترك، يصاحب عملية السلام، ويسهم بدور ملموس فى تصحيح الموازين، ويمكن استثماره فى معالجة مشكلة يدرك العالم أنها بسبيلها للتفاقم، وهى مشكلة شح المياه العذبة فى الكوكب التى ستصل إلى حد خطير فى الشرق الأوسط مما يحتاج "مبادرات ثورية" لاقتراح مصادر مياه عذبة جديدة، مثل بذل جهد إقليمى خارق لتحلية كميات

هائلة من البحر المتوسط والأحمر، وتخصيص هذه المياه لمناخ الصحراء وتعمير الصحراء.

وهو ما يقتضى إشراك الأطراف العربية فى ذلك، بحيث تسقط صورة إسرائيل كواحة فى قلب منطقة عربية جليها من الصحراء الجرداء.

وقد غير "محمد سيد أحمد" فكرته لاحقاً بعد أن وصل نقيهاو إلى الملطة عام 1996م، وعاد ليقتراح - أن تنسق مصر مع دولة ذات خبرة متطورة فى تحلية المياه كفرنسا، ثم تسهم مصر فى صندوق عربى بأموال فوائض البترول على نمط المشروع الذى أصبح فيما بعد نواة الإتحاد الأوروبى (مشروع الملب والفحم) من أجل تمويل أبحاث فى موضوع تحلية مياه البحر، وخفض سعر التحلية حتى يصبح إقتصادياً، عندها سوف تسمى إسرائيل - يقيناً - إلى المشاركة فى المشروع، ووقتها سنشترط عليها تسوية شاملة لكل ملفات الصراع.

• • •

والواقع أن ذلك الإقتراح هو ما أخذت به إسرائيل لا الدول العربية، فقد بدأت بالفعل فى تنفيذ المشروع، وخصصت له عدة مليارات من الدولارات، بدعم من الولايات المتحدة ومن الإتحاد الأوروبى واليابان.

وسوف يشمل المشروع عدة محطات للتحلية بتكنولوجيا مبتكرة غير نووية، وهو ما سيجعل لإسرائيل اليد العليا فى السيطرة على مصادر المياه العذبة، وسيكون بوسعها تحميل الدول العربية الجزء الأكبر من تكلفة المشروع مع احتفاظها بالأسرار التكنولوجية للتحلية.

ويستكمل "محمد سيد أحمد" - فى موقع ثالث - رؤيته، واجداً فى العام 2020م بداية مرحلة ثالثة فى العلاقة بين العرب وإسرائيل. فى المرحلة الأولى كانت العلاقة تحكمها "القومية" .. العروبة فى مواجهة الصهيونية، وفى المرحلة الثانية كان "الدين" يحكم العلاقة .. الإسلام فى مواجهة اليهودية. وفى المرحلة الثالثة.. ستكون "البيئة" هى

الحاكمة للعلاقة.. حيث سيجد الخصوم أنفسهم أمام كارثة النقص المتزايد للمياه.

• • •

إن جانباً من معضلة الصراع في مراحله الثلاث يكمن في عدم إيمان معظم الإسرائيليين بعملية السلام ومشاريع التعاون الإقليمي.

في كتابه "مسيرة التردد نحو الاعتدال: مواقف الرأي العام اليهودي في إسرائيل من عملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية" الذي صدر عن مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام عام 2002م، قام الباحث الفلسطيني "خليل الشقاي" بدراسة (43) إحصائية أجريت في الفترة من عام 1996 إلى عام 2001م، ومن بين أرقام ونسب عديدة، يمكن المرور على عدد من معالم الدراسة.

كانت نسبة تأييد الرأي العام الإسرائيلي لحق العودة عام 1999م (13%)، وهي القضية التي - برأى المؤلف - عصفت بباراك وأقصته عن السلطة بعد أن أظهر بعض المرونة في خطته التي قدمها في كامب ديفيد الثانية يوليو 2000.

ووصلت نسبة تأييد الرأي العام الإسرائيلي لعمليات الإغتيال السياسي ضد القادة الفلسطينيين عام 2001م إلى (90%).. وأيد (70%) من الرأي العام استخدام الدبابات في الحرب ضد المدن والقرى الفلسطينية.

وانخفض تأييد الرأي العام الإسرائيلي لاتفاقية أوسلو إلى أدنى مستوى له منذ عام 1994م، إذ وصل إلى (33%) بعد مرور سنة على إنطلاق الإنتفاضة، وارتفعت نسبة معارضة الاتفاقية إلى (67%) من الرأي العام.

وعلى الرغم من أن دراسة "الشقاي" قدمت أرقاماً أخرى إيجابية بشأن التحول نحو الاعتدال، فإن اتجاهات الرأي حسب الإحصاءات اللاحقة.. كانت تتجه من احتمالات الاعتدال إلى يقين التطرف.

• • •

إن حركات السلام في إسرائيل، سواء تلك التي تنادى بدولة واحدة تجمع الفلسطينيين واليهود مثل "بريت شالوم" و"ريحوت" و"هاشومير" و"هاتمهير"، أو تلك التي تنادى بالتعايش بين دولتين مثل "ماكي" و"حركة السلام الآن" و"كتلة ميريتس" وغيرها لم تفعل شيئاً في التسمينات ولا بعدها، بعد أن كان دورهم واضحاً في الثمانينات.. وكان من بين دورهم تنظيم مظاهرة احتجاج على غزو لبنان عام 1982م ضمت مائتي ألف شخص، ثم إنهم دعموا باستمرار السلام الدائم مع مصر والأردن.. لكنهم غابوا تماماً في الإنتفاضة الثانية.

قليلون الذين بقوا على مواقفهم.. يؤكدون خطاب السلام في زمن الحرب، خلافاً للأغلبية الساحقة من اليسار الذين ينتجون خطاب السلام إذا ما حل السلام، ويبررون خطاب الحرب إذا ما بدأ القتال.

استمر "يوري الفيري" على موقفه الذي ينهض على عدم الثقة في اليسار الإسرائيلي قائلاً: " أنه لا يمكن اتهام الثور -شارون- الذي حطم محل الفخار، ولكن من فتح له باب الدكان -باراك وبن عامي- وزاد "يوسي ساريد" -أبعدوا كل الهانسين.. إن روضة أطفال أقدس في نظري من حائط المبكى".

ورأى الكاتب اليساري "يواف بيلد".. أن رد فعل إسرائيل القاتل على الإنتفاضة هو رد فعل طبيعي لقوة استعمارية مهزومة، وكما كان الحال بالنسبة للبريطانيين في أيرلندا، والفرنسيين في الجزائر، والأمريكيين في فيتنام، والروس في أفغانستان.. هناك خيبة أمل كبرى إزاء حتمية الاعتراف بحدود قوة إسرائيل.

• • •

لقد أعادت الأحداث إلى التفكير إيهود باراك بما لم يكن حاضراً على هذا النحو من قبل. وكان السؤال الجامع لاستحضار باراك هو: هل أخطأ الفلسطينيون أم أصابوا؟ وهل كان باراك الذي مهد لشارون مخلصاً للسلام أم كان ممثلاً هزلياً جمع أوانس الفخار في طريق الثور الهائج عن قصد وترتيب!

• • •

كان الرأي الغالب في الإعلام العالمي أن باراك وصل في طرحه للسلام إلى آخر المدى،

وأن الفلسطينيين أضاعوا فرصة لن تتكرر، وجاءت أحداث 2002 لتزيد من قوة هذا الرأي وتكثر من مؤيديه.

لكن الفلسطينيين رأوا أنهم أخطأوا في تقدير استعداد الشعب الإسرائيلي للسلام، فالذين أبرموا اتفاق أوسلو كانوا على اتفاق بأن الذي سيتم تطبيقه من أوسلو هو اتفاقيات المرحلة الإنتقالية، وأن الفلسطينيين لن يكون أمامهم سوى التنازل عن القضايا الهامة التي تأجلت للمرحلة النهائية.

رفض عرفات إسقاط المرحلة النهائية وقبول عرض ظالم من باراك.. واصطف الإسرائيليون خلف شارون بأغلبية تزيد عن (70%) حيث التقى اليسار واليمين معاً من أجل القضاء على السلطة الفلسطينية.

ويروي "سليم الزعنون" رئيس المجلس الوطني الفلسطيني.. وقائع محاولة إسقاط المرحلة النهائية في مفاوضات كامب ديفيد.. مقابل "فقات" يسمّى بالمرحلة النهائية.. يقول:

"في آخر جلسة من جلسات كامب ديفيد.. وجه الرئيس كلينتون للرئيس عرفات تحذيراً واضحاً: إنكم إذا لم تقبلوا المقترحات المطروحة كحزمة واحدة، فإنكم ستعرضون لمواقف صعبة جداً.. أولها أن الفلسطينيين سيعوبون على قوائم الإرهاب، ولن يستقبلهم الرئيس القادم سواء كان بوش أم آل جور. كما أن السفارة الأمريكية في إسرائيل ستنتقل إلى القدس. هذا قرار الكونجرس وأنا أعطله ولا تضمنون من سيأتي بعدى.

إن المساعدات الأمريكية التي تقررتم لكم عام 1993م من الدول المانحة ستتوقف، وهذا قرار كونجرس أيضاً. وأنا عاد رئيس الوزراء الإسرائيلي - باراك - متسلحاً برفض فلسطين لهذه المقترحات، وقامت إسرائيل بحرب ضد مناطق السلطة الفلسطينية، فإن الولايات المتحدة ستقف بجانب إسرائيل، طبقاً لمعاهدة التحالف الإستراتيجي بين البلدين".

وحسب "سليم الزعنون"، فإن كلينتون توقع وقتها بأن تقوم إسرائيل بتشكيل حكومة وحدة وطنية، سيكون شارون هو "البلدوزر" الذي يدفع بنصف مليون فلسطيني

جديد على الحدود.

وسيربك هذا الوضع الجديد الفلسطينيين بحيث ينسبهم قضية لاجئى 1948 ونازحى 1967. وأما رئيس الإستخبارات الأمريكية -جورج تينيت- الذى كان حاضراً الجلسة، فقد وجه تهديداً مباشراً للرئيس عرفات قائلاً: "يبدو أن الرئيس الفلسطينى قد نسى أنه يعيش فى منطقة من السهل فيها أن تتغير الحدود والشعوب.. فمن الممكن اقتحام سوريا، والقيام باحتلال جديد، وإجبارها على الموافقة على حدود سايكس بيكو 1923، بدلاً من الرابع من يونيو 1967 التى تطالب بها، ولن تكون هناك دولة فلسطينية بل حكم ذاتى محدود لبعض الأماكن!"

• • •

ولرب من رأى الفلسطينى، ذهب عدد قليل من المحللين اليساريين والمؤرخين الجدد فى إسرائيل.. وكان -نانى ريهنوفيتش- الكاتب اليسارى الإسرائيلى حسبما جاء فى كتاب -هادى أوفير-.. ثلاثون من أبرز الكتاب والمفكرين الإسرائيليين يحللون.. فى مقدمة الكاشفين لسياسة باراك.

يذكر -راهينوفيتش- أن فى الأسابيع الأولى للإنتفاضة قاد باراك حملة إعلامية لم يسبق لها مثيل، قال: "عرضتُ على الفلسطينيين عرضاً لا سابق له فى سخائه، عرضاً كاملاً تقريباً، لا يمكن لغيرى أن يعرضه ذات يوم. ولكن فى هذه اللحظة بالذبط وعندما وجد الفلسطينيون أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من تجسيد حلمهم القومى، قررت قياداتهم ركل الهدى الممتدة إليهم، وأن تحرق فرصة حقيقية لسلام مشرف".

ويعلق الكاتب.. بأن هذا الخطاب الإعلامى يعور الفلسطينيين كأن عروسة بسبب تجمع فى -طرحة الفرع- قامت فجأة وألفت حفل الزفاف وجلبت على نفسها الدمار، وبقي ضحاياها باراك وكلينتون - وهدما يواجهان الضيوف والخجل.

• • •

إن الخطة في كامب ديفيد لم تنشر، لكنه - حسب رابينوفيتش - لم يكن سهلاً على الفلسطينيين أن يوافقوا على الإكتفاء بمساحة قدرها (22%) من أرض فلسطين، فالضفة وغزة يمثلان الأراضي المحتلة وهي التي ينوي الفلسطينيون إنشاء دولتهم عليها، وعندما دخلوا في مسيرة أولو، دخلوا على أمل أن تسلم لهم في نهاية المطاف هذه الأرض بكاملها خالية من المستوطنات، ثم اكتشفوا فجأة أن خريطة التسوية التي قدمها إيهود باراك تُظهر مدينة القدس في حدودها البلدية الممتدة من رام الله وحتى مشارف بيت لحم، كجزء لا يتجزأ من إسرائيل.

فهم الفلسطينيون أن إسرائيل لا تنوي أن تتضمن هذه المنطقة الهائلة في المفاوضات. أيضاً.. كانت الخريطة تشمل ضم إسرائيل (20%) من مساحة الضفة مغروسة كالإسفين في قلب دولتهم.. ويشقها إلى قسمين: قسم في الشمال وآخر في الجنوب بصورة تجعلهما منفصلين بشكل نهائي تقريباً عن بعضهما.

كما أن كل قسم منهما متصل بمحور حركي معقد يمر كله في منطقة إسرائيلية وتحت رحمتهم إلى الجزء الثالث في قطاع غزة. زد على ذلك، الكتل الاستيطانية التي تترك إسرائيل بسيادتها عليها، ومنشآت عسكرية ومناطق فاصلة وطرق التفافية. إنها دولة فلسطينية مقطعة الأوصال، دولة بالاسم فقط، مجزأة وضعيفة وبلا جيش.. هذا ما وصفه باراك "نهاية النزاع"!

• • •

يمضي "رابينوفيتش" إلى ما جرى لاحقاً.. من انطلاق إنتفاضة الأقصى.. ليراهنا نموذجاً لغضب شعبي متراكم منذ نصف قرن.. ولكن الإنتفاضة مثلها كأية تمردات شعبية تعاني عدم السيطرة الكاملة عليها، ومن صلة متقطعة بين الإستراتيجية العامة وبين أحداث كثيرة ومتنوعة تبادر إليها جهات كثيرة في المناطق.

ويظل المنطق العام للإنتفاضة.. هو خلق وضع شبيه بوضع كوسوفو، حيث يقوم شعب



إسرائيل بدور يوغوسلافيا والفلسطينيون بدور البان كوسوفو، وحيث أن القيادة الإسرائيلية غير قادرة على التنازل، فلا بد من ضغط دولي على غرار ما مارس الناتو على الصرب، مما أفضى في النهاية إلى إخلاء الجيش اليوغوسلافي من كوسوفو وحلول قوات الأمم المتحدة.

هكذا.. تتوافق شهادتان.. على أن باراك لم يقدم فرصة تاريخية لتسوية الصراع، بل كانت مجرد فرصة لإبقاء الحال على ما هو عليه!  
• • •

الصفاني من تلك الرؤى.. أن مشروع الخرق الأوسط الجديد.. كطريق لتجديد الصهيونية.. قد واجه انتكاسة كبرى بما آلت إليه التطورات، فقد أتى العمكرون الإسرائيليون على كل ما كان من خطب الرخاء ومواظب التنمية، كما أن اليسار الإسرائيلي لم يكن قادراً على الفعل ولا رغباً فيه.. وأما الإسرائيليون فقد انزاحوا يميناً واصطفوا من خلف شارون.. في ظل أجواء جديدة لم يعد فيها مكان لحديث السلام.. وأصبحت الحرب هي الحل.

ويذهب "لورانس ماير" في كتابه "إسرائيل الآن" إلى أن حدة الولوج بالحرب لدى الإسرائيليين قد هدأت بعد حرب 1973.. فقبل ذلك التاريخ لم يكن ممكناً في نظر أي إسرائيلي أن يفكر في المفاوضات أو الحلول الوسط مع العرب.. ولكن الأمور تغيرت بعد عام 1973م.

أحد المحاربين قال لماير: "لماذا أصبحنا نزيد السلام.. لأن أحداً لم يُترك سليماً بسبب الحروب.. هناك (1%) من الإسرائيليين قُتلوا في حرب 1948، وقُتل (700) إسرائيلي في حرب 1967، وقُتل (700) آخرين في حرب الاستنزاف مع مصر من (1968 - 1970م)، وقُتل (2550) إسرائيلياً في حرب 1973. إن كل إسرائيلي له قريب أو صديق قُتل في حرباً، والمقابر في إسرائيل تمتلئ كل عام، والذين أصيبوا بجروح يزدون عن القتلى ويملاؤون كل مكان.. رجال ونساء مشوهين مدى الحياة"

ويستطرد "لورانس ماير" .. "إن الثمن الذي يدفعه الإسرائيليون ليس إقتصادياً فقط

إن امرأة مطلقة لا تعرف كيف تعثر على رجل غير متزوج كي تضرب معه موعداً. قالت امرأة إسرائيلية "ليس هناك واحداً منهم" .. "لدينا نقص في عدد الرجال ممن هم في سنى.. إنهم قُتلوا في الحروب. وقالت أرملة مات زوجها عام 1967م - الشئ المخيف هو أننا كنا على استعداد لتقديم تضحيات، لتقديم حياتنا حين الضرورة، من أجل جعل الأشياء سليمة لأطفالنا.. وسوف يذهب ولدى إلى الجيش في العام القادم، ويبدو أن أطفالنا سوف يقدمون التضحيات نفسها.. وليست هناك نهاية لهذا كله".

وقال ضابط في سلاح الدفعية عن جنوده الذين يعمل على تدريبهم: "إنهم أنكباء.. ويمكنك أن تتصور مدى ذلك التبديد الهائل للقدرات حين تقوم بتدريب شباب كهؤلاء على كيفية حشو ماسورة مدفع بالقنائف وإطلاقها من النقطة "أ" إلى النقطة "ب" على بعد خمسة أميال أو عشرة من أجل قتل أفراد لا يعرفون عنهم شيئاً"

• • •

جاء عصر شارون وقد توخّشت النفس الإسرائيلية، وبدت دروس الماضي من الماضي، وتحولت إسرائيل إلى دار الحرب. إن هذه التحولات بذاتها قد أربكت إسرائيل.. وأعادت التساؤلات من جديد..

هل ترغب إسرائيل في السلام؟ وهل تجد في السلام مصلحة لها؟ وهل ترى نفسها جزءاً من المنطقة أم امتداداً لخارجها؟ وهل بإمكان أنصار السلام والشرق الأوسط الجديد أن يجدوا طريقاً لما يهدفون؟ إنها تساؤلات.. تذهب من الإقتصاد إلى السياسة.. ومن السياسة إلى الثقافة.. هي تساؤلات الهوية والذات.. إنه السؤال الأكبر.. ما هي إسرائيل؟ ولماذا؟

• • •

مثل مشروع الشرق الأوسط الجديد إجابة مفادها.. إسرائيل دولة شرق أوسطية، وهي ردّ على إجابة سابقة.. إسرائيل دولة أوروبية. وكثيراً ما توازى الجدل حول كون إسرائيل دولة اليهود.. أم هي دولة يهودية.. مع الجدل حول كونها جزءاً من الغرب الحضارى أم هي جزء من الشرق الأوسط المحيط.

في خطبة لوزير الخارجية الإسرائيلي "شاريت" أمام الأمم المتحدة أواخر الخمسينات قال: "إن إسرائيل دولة غريبة، إنها امتداد للحضارة الأوروبية تدافع عنها وتحمل علمها، وهي واحة الديمقراطية في صحراء التخلف"، ويرى رأى "شاريت" جمع من العامة والخاصة في إسرائيل.

وقد وقف "جابوتنسكى" أحد رموز ما يسمّى بالصهيونية التصحيحية، ووقف معه أتباعه ضد وصف إسرائيل بأنها امتداد للحضارة الأوروبية.. حيث أن جوهر التاريخ الأوروبي هو استئصال اليهود، وكان استئصالهم من قبل النازيين بتواطؤ كل النظم الأوروبية، وأما فترة التعاطف مع اليهود التي ميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فلمت سوى لمحة من الزمن ولا يوجد ما يمنع من تصور فترة قادمة أكثر تعصباً ضد السامية.

جابوتنسكى الذى عاش فى ظل الدولة العثمانية قبل تصفيتها فى الحرب العالمية الأولى، ومثّل مرجعاً مهماً للصهيونية لطالما كان مغزياً لليمين.. انتصر لكون إسرائيل شرق أوسطية لا أوروبية، والشرق الأوسط برأيه ليس عربياً بل هو شرق أوسط إسلامي.. فالعالم العربى برأيه ليس إلا أكنوبة، ومنطقة الشرق الأوسط لا يوجد بها سوى عالم إسلامي، فالقومية العربية هي اختراع خلقه الوهم، واطار الصراع ليس عربياً - إسرائيلياً، ولكنه إسلامي صهيوني.. هو صراع بين إسلام متخلف ويهودية متقدمة، وليس بين قومية عربية وقومية صهيونية.. إنه أيضاً صراع حتمى لا مفر منه.

• • •

يرى عالم السياسة "حامد ربيع".. أن إسرائيل سوف تتحول بنهاية المطاف إلى دولة شرق أوسطية، فهي فى سبيلها ألا تصبح دولة غريبة، فكما يحدث الآن من تطور فى ضخامة عدد السكان العرب، يحدث الشيء ذاته فى تطور عدد سكان اليهود الشرقيين فى إسرائيل، سواء بسبب زيادة نسبة الإنجاب بينهم أو بسبب تحول أبناء اليهود الغربيين..

فاليهودى الذى يولد فى إسرائيل من أب فرنسى مهما كان ولده متخبهاً بالثقافة والتقاليد الفرنسية.. سوف يكتسب عقلية وتصور الشرقى، ولذا فمن المتوقع أن يسيطر المفهوم الشرقى على الساحة اليهودية فى إسرائيل بمرور الوقت، ويعنى ذلك أن تتحول إسرائيل إلى دولة شرق أوسطية.

ويكفى أن نعرف أن أكثر من نصف سكان إسرائيل من سن (20 – 50) سنة قد زاروا مصر ولو لأيام، مما يعكس الرغبة فى التعرف على عاصمة المنطقة التى يعيشون فيها.

• • •

فى السياق الآخر.. تتطور إسرائيل لتصبح دولة يهودية لا دولة يهود.. أى ليست دولة تمثل قومية اليهود فى العالم، وإنما إحدى "القوميات اليهودية" فى العالم، مثل القومية اليهودية الأمريكية، اليهودية الفرنسية، وغيرها.. ستصبح إسرائيل دولة يهودية وليس أكثر.

وينتهى "حامد ربيع" إلى أنه من الممكن للدولة الفلسطينية أن تعيش بجوار إسرائيل، وهناك نماذج عديدة لدول صغيرة تعيش مع جيرانها، جيبوتى بجوار أثيوبيا مثلاً، كما أن الضفة وغزة تشكلان أربعة ملايين نسمة وهو حجم يزيد كثيراً على تعداد عديد من دول العالم.. ثم إن إنشاء فلسطين يجب أن يكون فى إطار وحدوى، للحد من إمكانية تأثير إسرائيل على الدولة الفلسطينية، "فتخططنا الإستراتيجى يجب أن يكون مبنياً على أساس دولة الشام"، وبذلك يكون إنشاء الدولة الفلسطينية دعوة للوحدة لا للتجزئة.. وفى إطار مشروع عربى لا شرق أوسطى.

الأصولية اليهودية..  
أوهام المعبد الثالث



إذا ما كان الدين هو هدف الفهم والتأمل لما يجرى فى إسرائيل، فإن المشهد يثير الضحك، جموع من المؤمنين وجموع من الملحدين.. سواء بسواء!

عدد كبير يذهب إلى حائط المبكى، وعدد أكبر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر.. ولكنه قد يعطى صوته لأولئك المتدينين الخاشعين!

كان بن جوريون ملحدًا، ورفض دخول المعبد اليهودى، ولكنه آمن بالمسيحية وأقام دولة إسرائيل، وهو الذى لا يؤمن بالتوراة ولا بأنبياء بنى إسرائيل، وكان بن جوريون يسأل عن قبر "أرنست بينفن" وزير خارجية بريطانيا ليذهب إلى القبر ويدوسه بحذائه، لأنه لم يساعد فى خطة إنشاء إسرائيل!

وهو أيضاً الذى أنفى مبدأ التعليم الرسمى الموحد، وسمح للمتدينين بتعليم مستقل فى مدارس دينية، وأعفاهم من أداء الخدمة العسكرية!

وكثير من الإسرائيليين ليسوا معنيين بتفاصيل الدين اليهودى، وكثير من الكثير غير معترف بيهوديتهم، لأن الحاخامات لم يقنعوا بإيمانهم.

\*\*\*

وعلى الرغم من ذلك، فإن الجميع يحمل داخله درجة من الأصولية حتى لو كانوا غير مؤمنين!

وتقول إحدى النكات الشهيرة: "لو عاش واحد يهودى فى جزيرة، فإنه يبني معبدين.. أحدهما لكى يصل فى فيه والثانى حتى لا يصل فى فيه!"

والمعبد اليهودى هو بناية صغيرة متواضعة نوعاً ما، تتسع لنحو ثلاثين أو أربعين من المصلين الذكور، ومساحة أخرى صغيرة ومستقلة أو شرفة داخلية للنساء.

وفى إسرائيل (60) ألف معبد يهودى، وتقام الصلاة فى كل صباح وفى كل مساء.

وفي صباح السبت تكون العابد مليئة بالمصلين.

ويجتمع كبار الحاخامات أثناء الغروب من كل جمعة في قرية "غريفات" في جبل ميرون بمنطقة الجليل الأعلى بالشمال، مرددين أنشودة دينية عنوانها "فليات من نحب" .. بانتظار ظهور المسيح لواقبته إلى القدس مشياً على الأقدام.

• • •

تضم إسرائيل ثلث يهود العالم.. أي خمسة ملايين يهودي من بين (15) مليوناً من اليهود في العالم.

وتختلف اليهودية عن معظم الأديان، في كونها ديناً مطلقاً، حيث لا يحق لأي إنسان أن يعتنق اليهودية، خلافاً لجميع المبادئ والأديان التي تعمل لزيادة المؤمنين بها. ولكي يكون الإنسان يهودياً يجب أن يكون من أم يهودية، وما زالت محاكم إسرائيل ترفض الاعتراف بيهودية مواطنيها من أب يهودي وأم غير يهودية.

• • •

يذكر "سهيل ديب" في كتابه "التوراة.. تاريخها وغاياتها" .. أن الحاخام الأكبر في حيفا قد اعترض على زواج أحد ضباط المظلات من جاليا بن جوريون (حفيدة بن جوريون) لأنها من أم إنجليزية مسيحية، والحجة التي قدمها الحاخام أنه ليس هناك أي إثبات على أنها يهودية!

• • •

وفي إسرائيل أحزاب دينية، وجماعات دينية، وأشخاص مهوسون.. يمارسون العنف الديني ضد اليهود العلمانيين.. فضلاً عن المسلمين والمسيحيين في فلسطين.

في نوفمبر عام 2001م.. هددت وزارة الداخلية الإسرائيلية بفرض عقوبات صارمة على الذين يضبطون وهم يأكلون الخبز في الأماكن العامة في المناسبات الدينية، وقال "اهلي يشاشي" وزير الداخلية: "على الجميع احترام القانون الذي يحظر استهلاك الخميرة،



وسوف يقوم مفتشون من الوزارة بفرض غرامات على كل من يتناول الخبز.. وأعلن "إسرائيل لاو" كبير المحاكمات دعمه للإكراه في فرض احترام التقاليد الدينية.

في نفس التوقيت.. وافق الكنيست بشكل مبدئي على تشريع يقضى بسجن النساء اليهوديات اللاتي يصلين عند حائط المبكى بالقدس.

ويفرض التشريع عقوبة السجن عدة سنوات على كل امرأة يهودية ترتدى "شالاً" للصلاة، وتقرأ بصوت عالٍ من التوراة عند حائط المبكى، وهو تشريع وقف وراءه الأصوليون لإبطال حكم المحكمة العليا الإسرائيلية بمنح النساء حق الصلاة عند حائط المبكى.. مخالفاً للتقاليد المتشددة اليهودية.. الأمر الذي دعا "ناعومي كازان" نائبة الكنيست عن حركة ميريتس اليسارية للقول "بأن ذلك التشريع الذي يفرق بين النساء والرجال إنما يضع إسرائيل في خندق واحد مع إيران وأفغانستان".

وفي بلدية "بني باراك" قرب تل أبيب، أصدر حاخام البلدية فتوى بمنع النساء من الاختلاط بالرجال بداخل عربات المواصلات العامة. وأفتى آخر بمطاردة النساء المتبرجات، وظهرت منشورات وملصقات.. تؤكد أن كل فتاة تعيش في حي يهودي وتلبس قصيراً أو مكشوقاً.. سوف تتعرض للضرب، وبما أحد الملصقات إلى "قتل كل متبرجة في إسرائيل".

وصار المتطرفون اليهود يعترضون النساء في الشوارع ويمزقن ملابسهن حتى يصرن عاريات تماماً، ومن الدهش أن عدداً وفيراً من الشواذ والمجرمين كانوا ينفذون الفتوى بإخلاص شديد، وفي كل يوم سببت يرشقون السيارات بالحجارة، حتى على الطرق السريعة، وتصل الحوادث المسجلة لدى الشرطة إلى أكثر من عشرين حادثاً في الشهر.

• • •

يذكر "أمنون كابيليوك" في كتابه "رابين.. إغتيال سياسي" أن الأصوليين اليهود منعوا المطربة الإسرائيلية "ميري آلوني" من الغناء بإحدى قاعات نيويورك نظراً لاعتبارهم أن صوت المرأة عورة.

وفي عام 1995م، مارس الأصوليون ضغوطاً لوقف التنقيب عن الآثار في مناطق المقابر اليهودية حتى لا يقلق ذلك راحة "عظام الموتى"، مما دعا المدعى العام الإسرائيلي إلى إصدار قرار بعدم إعتبار "العظام" من الآثار.

• • •

وإذا كان بعض الحاخامات يذهبون إلى الجليل في إنتظار المسيح، فإن الملياردير اليهودي الاسترالي - جوزيف جوتنيك - يتزعم حركة دينية متطرفة اسمها "شاهد" يرى أعضاؤها أن الحاخام "شنيرون" هو المسيح المنتظر، وأنه قد اختار الملياردير الاسترالي ليكون مبعوثه إلى يهود إسرائيل!

يرى بعض الأصوليين أن حدود إسرائيل، حسب التوراة، ينبغي أن تشمل مدينة حمص السورية، ويرى آخرون أنها تشمل حماة، وحلب.. وبعضهم يراها تشمل تركيا، وذات مرة طالب أحد الحاخامات بحقوق تاريخية لليهود في قبرص!

والمائل وراء هذا كله.. أن الدين اليهودي على حالته الراهنة يقاوم تماماً قيم العقلانية والتنوير، وأن التراث الديني والممارسات القائمة تقف على النقيض من عصر العقل وقيم الحداثة.

• • •

يصف الكاتب البريطاني اليهودي "ماثيو انجل" إسرائيل بأنها تحوى قوماً.. شديدي التعصب وشديدي التدين ولكنهم لا يعرفون الوصايا العشر.. وتذكر أغلب الإحصاءات أن (80%) من الإسرائيليين لا يعرفون الوصايا العشر.. وتقع الوصايا العشر في اليهودية موقع الأركان الخمسة في الإسلام من شهادتين وصلاة وزكاة وصوم وحج.

لقد تحالف الجهل مع ضيق الأفق.. لتجاوز الأصولية اليهودية.. النظرية إلى جماعات وتنظيمات تمارس العنف ضد الفلسطينيين.. بل وضد الإسرائيليين أنفسهم. وإذا كان ماثير كاهانا.. هو النموذج الأعلى، فإن جولد شتاين وإيجال عامير وعوفاديا يوسف.. نماذج بازغة وغيرها كثير.

• • •

أسس الحاخام "مائير كاهانا" حركة "كاخ" اليهودية المتطرفة بعد وصوله من الولايات المتحدة إلى إسرائيل عام 1971م، ويرى "يهود شيرنزاك" أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية أن كاهانا وضع الأسس النظرية التي أسهمت في ترعرع الإرهاب، وأن العنف أصبح جزءاً من العمل الأصولي بعد وصول "كاهانا" الذي يعد أخطر إرهابي في إسرائيل.

وبالتوازي مع حركة "كاخ" .. كان "كاهانا" قد أسس في حي بروكلين في نيويورك مؤسسة "هاتيكفا" أي الأمل، وهي منظمة إرهابية أخرى.

ولم يكن ممكناً مع "كاهانا" الحوار، فهو يرى أن العرب "حفنة من القردة والخنازير" والحل الوحيد لهم هو قتلهم جميعاً وتخليص البشرية منهم.

ولكن كاهانا لم يتمكن مما كان يدعو إليه، بل كانت يد الآخرين إليه أسرع مما توقع وانتظر.. ففي نيويورك عام 1990م جرى قتل مائير كاهانا وجرى اتهام الشاب المصري سيد نصير بارتكاب الحادث.

• • •

أبى "بنيامين مائير كاهانا" ابن "مائير كاهانا" .. أن يترك رسالة والده الإرهابية، فقد شرع في تأسيس منظمة جديدة تخليداً لوالده وهي منظمة "يعيش كاهانا" أو "كاهانا" .. حتى.. وقد بلغ بهذه المنظمة التطرف إلى حد فرض حظر قانوني عليها في إسرائيل، واعتبارها في الولايات المتحدة منظمة إرهابية.

وقد عملت منظمة "يعيش كاهانا" بالتعاون مع "منظمة هاتيكفا" على الإعداد لعدد من الإغتيالات والتفجيرات في الصفوف الفلسطينية والعربية. وكان "بنيامين كاهانا" هو الآخر أسرع خطى إلى الموت.. حيث تم قتله في كمين له بإسرائيل في نوفمبر عام 2001م.

وعندما داهمت الباحثة الأمريكية مقر منظمة "هاتيكفا" في نيويورك في أعقاب قتل "كاهانا الابن"، وجدت أكثر من (80) صندوقاً، وعدداً من أجهزة الكمبيوتر، وخزانة ملفات، والعديد من الصناديق البلاستيكية.. التي تخدم عملها الإرهابي.

وقد قيل إن الداهمة تمت بطلب من "شلومو بن عامى" وزير خارجية إسرائيل بعد أسبوع من مقتل بنيامين كاهانا. وقد رحل آل كاهانا.. تاركين وراءهم.. بقايا حركة "كاخ" ومنظمة "يعيش كاهانا" و "جبهة كاهانا" التى أعلنت بين مقتل الأب وابنه فى عام 1996م.. وهى تنظيم إرهابى يشمل المنظمتين معاً.. "كاخ" و"يعيش كاهانا".. بالإضافة إلى منظمة "هاتكفيا" الإرهابية، وتنظيم جديد اختفت آثاره بعد إعلانه.. باسم "بنيامين كاهانا.. حى".

•••

لم يكن الفاصل طويلاً بين مقتل آل كاهانا وبين بزوغ "نجم" إرهابى جديد، فقد أصبح "باروخ جولد شتاين".. كاهانا جديداً، بمجرد انضمامه للجماعات الأصولية المتطرفة. قام جولد شتاين بتنفيذ مذبحه الخليل عام 1994م والتى راح ضحيتها (29) مصلياً فلسطينياً أثناء أدائهم الصلاة بالحرم الإبراهيمى.

ويلاحظ قول "جولد شتاين" فى فيلم تسجيلى أمريكى تم إنتاجه عام 1994م قبل المذبحة - خلاصة رؤيته - يقول: "هناك وقت للقتل ووقت للعلاج".. قاصداً وقتاً للقتل، وآخر لامتنعاص الغضب والناورة حتى مجزرة أخرى.

على الرغم من أن جريمة "باروخ جولد شتاين" تفتقد أى كفاءة أو شجاعة، فقد أطلق النار على أناس يؤدون الصلاة، فقد غدا قبره.. ضريحاً ومزاراً يشد إليه المتطرفون الرحال.. ويواصل أنصاره من خلاله مسيرته الإرهابية.

ويذكر بعض الدارسين أن أحد الكتب التى تروى سيرة حياة "جولد شتاين" كانت من الكتب المفضلة لايغال عامير.. الإرهابى الذى قتل اسحق رابين عام 1995م لأنه وقّع اتفاق سلام مع الفلسطينيين.

وتعلق مجلة "لونوفيل أوبزرفاتور" الفرنسية (فبراير 1997) على ما جرى.. بأنه نوع من الأصولية المتواصلة.. فالإسرائيليون يعيشون تحت رحمة الأفعال المجنونة والمنحرفة التى يقوم بها المتطرفون.

فالذين قتلوا المصلين في الخليل وقتلوا رابين.. يرون في مسيرة السلام خطيئة يجب إدانتها.

إنهم يقولون.. نحن نقتل من أجل خلاص إسرائيل، وكلهم أمضوا سنوات شبابهم منكبين على قراءة النصوص المقدسة وينتمون للحلقة المعروفة "بمجانين الله" لتجسد مثال التعصب.

• • •

لقد وصل الأمر إلى أن دعا بعض الحاخامات الجنود الإسرائيليين إلى عدم إطاعة أوامر قادتهم بالإنسحاب من الضفة الغربية.. وقال أحدهم: على الجنود ألا يفعلوا ما يطلبه ضباطهم بل حاخاماتهم.

وزاد الأمر.. حيث لم يكتف الحاخام المتطرف "عوفاديا يوسف" بما ذهب إليه الآخرون.. بل دعا إلى "قتل" كل من يخذش قدسية يوم السبت، وأما العرب فهم برأى الحاخام "حشرات سامة.. لن يقوم سلام معهم".." إن الرب قد ندم على خلقه لهؤلاء العرب من أبناء إسماعيل!"

• • •

وما أسهل أن يجد المرء توافقاً في الخرافة والهوس الديني بين رؤوس متعددة في إسرائيل بعضها لم يدخل معبداً في حياته. ففيما كان "ناتان شارانسكى" رئيس حزب بعاليا - لليهود الروس - يحذر من تقسيم القدس، لأن من يفعل ذلك سيكون أول من يقسمها بعد ثلاثة آلاف سنة من تاريخ المدينة..

كان آرييل شارون يقف أمام أعضاء السلك الدبلوماسي الأوروبي ليقول: إن القدس هي عاصمة دولة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة بموجب وعد الله لإبراهيم. وأما "حركة أنصار الهيكل المقدس" فقد أعلنت نهاية العالم وحلول يوم القيامة!

• • •

لا تقع الأصولية اليهودية خارج النظام العام في إسرائيل، فهي جزء من مؤسسات

الدولة، وهى أساس فى التعليم والمعيشة.. من طعام وسكن ومواصلات. وللأصولية أحزاب وشركات.. حاخامات ووزراء، وهى وثيقة الصلة بالليكود.. وموضع حساب وتقدير من اليسار.

وقد بات العلمانيون يخشون على أنفسهم وحياتهم من جراء المد الأصولى فى إسرائيل. ومن النادر أن يجد القارىء إحصاءات مستمرة عن عدد العلمانيين والمتدينين فى أى بلد مثلما يجد فى إسرائيل.

وعلى وجه العموم فإن "تل أبيب" هى عاصمة العلمانية التى يتحصنون فيها ضد "القدس" مقر الأصوليين. ويرى رجال الدين أن "تل أبيب" هى "سودوم جديدة".. مدينة الخطيئة والفاحشة التى حل غضب الرب عليها وجعل عاليها سافلها.

ويرى الأصوليون.. أنه بعد أن انتهوا من فرض آرائهم وفرغوا من أمر مدينة القدس، تحولوا إلى مدينة تل أبيب من أجل إعادتها إلى الصواب والصراف المستقيم.. حيث أن (90%) من سكانها علمانيون.

وتنقل مجلة "القيام" (يناير 1997) عن الرواى الإسرائيلى "يورام كانويك": "لا أعرف من هو الطرف الذى يسير على طريق الفوز؟.. إنها الحرب بين الطرفين. وحسب استطلاع للرأى أجرى فى تلك الأثناء.. كان (35%) من الذين أخذت آراؤهم يعقدون أن الإنقسام ما بين المتشددين والعلمانيين سيقود إلى حرب أهلية".

ويعلق الرواى "كانويك": "ربما كان التقسيم مفيداً، لكنه فى آخر مرة انقسم فيها اليهود على أنفسهم منذ عدة قرون، تلاشت حوالى (10) قبائل فى المجهول".

ويخلص "إسرائيل شاحاك ونورتون ميتسفنسكى" فى دراستهما "الأصولية اليهودية فى إسرائيل" التى شرحا فيها تيارات الأصولية وجذورها التاريخية.. يخلصان إلى أن "الصورة العلمانية الديمقراطية الرائجة عن إسرائيل لدى الغرب ليست حقيقية، فالمجتمع الإسرائيلى منقسم إلى أبعد الحدود، والتيارات الدينية الأصولية منقسمة فيما بينها حول

المعتقدات والعلاقة مع الآخر، وفي النظر إلى ضرورة قيام إسرائيل قبل مجيء المسيح المخلص، وفي ضرورة القضاء على المسيحية في العالم الغربي".

• • •

إذا ما وسعنا الرؤية لتشمل الخلاف الديني العلماني.. لكانت الأمور أكثر تعقيداً.. إنه خلاف حول كل شيء.. إعلان الدولة، الدستور، من هو اليهودي، يوم السبت، المرأة، الزواج المختلط الأظعمة والذبايح، الآثار والحفريات، حائط المبكى.. حتى الموت والدفن.

وفي هذه الشبكة الكثيفة للآراء والمعتقدات.. هناك علمانيون ومتديينون: علمانيون يمينيون، وعلمانيون يساريون، وعلمانيون شيوعيون.

وهناك متديينون متشددون (حريديون)، متديينون إصلاحيون، ومتديينون صهيونيون. وداخل المجتمع الحريدي المتشدد.. هناك حريديون ليتوانيون وحريديون حسيديون وحريديون شرقيون وحريديون منعزلون كلية عن الدولة.. وهناك أصوليون شرقيون وأصوليون غربيون.. وروس وأفارقة وآخرون. والحريديون (الحريديم).. معانين للحدثة وللقيم الغربية ولهم مجتمعهم الخاص بهم.

• • •

إنها خريطة مرهقة وبالغة التعقيد، ثم إنها تتغير باستمرار، وعند كل انتخابات تختفى أحزاب وحركات وتظهر أخرى. وفي الفترة من عام (1949 إلى عام 1992م).. ظلت القوة التمثيلية للأحزاب الدينية شبه ثابتة.. إذ ظلت تحصل على نسبة (11%) إلى (16%) من الأصوات.

وفي انتخابات 1996 التي صعد فيها نتنياهو وصلت إلى حد لم يسبق له مثيل حيث أحرزت مجتمعة (19%) من الأصوات.

وفي الإجمال، شكلت الأحزاب الدينية القوة الثالثة بعد أحزاب اليمين والأحزاب اليمينية، وأصبح حزب "شاس" ثالث أكبر حزب في الكنيست، وفي انتخابات عام 2001م حاز منفرداً على (17) مقعداً. وعموماً فإن مقاعد الأحزاب الدينية في الكنيست

الإسرائيلي قد تطورت على النحو التالي:

(16) مقعداً عام 1949م، ثم (18) مقعداً عام 1959م، (18) مقعداً عام 1969م، (16) مقعداً عام 1977م، ثم (10) مقاعد عام 1981م، (14) مقعداً عام 1984م، (18) مقعداً عام 1988م، (16) مقعداً عام 1992م، (23) مقعداً عام 1996م، (27) مقعداً عام 1999م، (24) مقعداً عام 2003م، (21) مقعداً عام 2006م، ثم (22) مقعداً عام 2009م.

وإلى جانب الأحزاب الدينية.. تعمل الجماعات الدينية بدأب شديد وإن كانت لا تشارك فى الانتخابات البرلمانية.. وبعضها جماعات دينية تؤمن بالصهيونية.. مثل حركة كاخ، وحركة ميماد، وكتلة الإيمان "غوش أمونيم". وبعضها الآخر جماعات دينية لا تؤمن بالصهيونية.. مثل حركة حراس المدينة، حركة الطائفة الحسينية، حركة حباد الحسينية.

إلى هنا يبلغ الإرهاق مداه من متابعة شئون الملحدون والمؤمنين، ومن فهم خريطة لا تثبت على حال، وأناس يرون الدين بألوان الطيف.

• • •

والمفارقة الكبرى هنا.. ما الذى جاء به الأصوليون اليهود.. إذا ما كانت الدولة كلها فكرة أصولية؟

والمفارقة الشارحة لذلك.. أن الأصولية الدينية المحضة هى ضد إسرائيل، لأن إسرائيل جاءت ضد مشيئة الله حسب الإعتقاد اليهودى.. فلم يكن مطلوباً من المتدينين اليهود أن يذهبوا إلى فلسطين ويقيموا دولة إسرائيل.. فإله وحده هو المسئول عن ذلك، وما على اليهود إلا إنتظار إرادته وأسبابه.

وأسباب الله فى ذلك إنما تكمن فى يسوع المخلص.. المنتظر، الذى سيقوم ببناء مجد اليهود ويجمع شقاتهم من كل العالم.. ويقيم مملكة الله فى فلسطين.



ولما كان الأمر كذلك.. فإنه من الخطأ أن يتوب العبد في الفعل عن الرب، أو يجعل الإنسان بالسياسة ما أراد الله له الإنتظار بالمشيئة.

وهنا يمكن أن نفهم أولئك المتدينين اليهود في إسرائيل ممن يرون إسرائيل دولة كافرة، وأنها قامت ضد إرادة الله، وأنها من عمل القوم الفاسقين.

وكان على الصهيونية حين جاءت.. أن ترتكب هذه الخطيئة الدينية اليهودية، وأن تقيم هي الدولة بدلاً من المسيح الذي طال إنتظاره. وبعد ذلك.. كان على "الصهيونية الدينية" أن تعمل على تأويل النصوص والتماس الأعذار.. وتقديم تفسير جديد يوفق بين العقل والنقل.

لقد خرج أصحاب "الصهيونية الدينية" على رأى الدين الذى كان سائداً منذ دخول الرومان فلسطين وتشتيتهم لليهود فى القرن الأول قبل الميلاد.

لقد رأوا.. أن المسيح المخلص هو اليهود أنفسهم، وأن عليهم أن يعملوا لبناء هيكلهم الثالث.. دون إنتظار.

• • •

يرجع المؤرخون بأصول "الصهيونية الدينية" إلى أواخر القرن التاسع، وإن كانت أصولها الفلسفية تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادى على يد الحاخام "موشي بن نحمان".. الذى اعتبر "أورشاليم" مركز أرض إسرائيل والمكان الوحيد لتأدية الوصايا العشر، وجعل الاستيطان فيها فريضة تعادل كل فرائض التوراة مجتمعة.

ومن ثم فإن "الصهيونية الدينية" كانت المدد لترويض معطيات عصر الحداثة، فهيات السبيل لدولة تقوم على الأسطورة فى عصر العقل، وعلى الأمة فى زمن الدولة.

و"الصهيونية الدينية" تتوسط "الصهيونية السياسية" و"الأصولية اليهودية" ونعنى بالأصولية اليهودية هنا.. الأرثوذكسية اليهودية.

فبعض الحاخامات من عناصر "الصهيونية الدينية" يطالبون بالإنفصال عن

العلمانيين، ودعا أحدهم إلى تفسير النشيد الوطني للدولة.. لأنه من عمل الصهيونية،  
واحلال الزمور السادس والعشرين من التوراة مكانه.

وأما عناصر "الأرثوذكسية اليهودية".. فهم من قدامى المؤمنين، هم منخلون بقراءة  
التوراة واستهماب التلمود.. الكتاب المفسر للتوراة.. وهم لا يزالون قابضين على آرائهم المتيقة..  
فالشعب اليهودى هو شعب الله المختار وعليه أن يبقى ساكناً فى إنتظار قنوم المسيح ا

• • •

تشهد الحياة السياسية فى إسرائيل على أن الحكومات المتعاقبة فى الحكم ورموز  
الدولة كانوا يدللون التيار الدينى باستمرار. ولا يكاد يوجد شخص واحد فى الحياة  
السياسية الإسرائيلية لم يشهر فى يديه "التوراة" يوماً، أو يقتبس منها ما تيسر من القول.  
كان البعض منتبهاً لخطر ذلك، وكان هرتزل ووايزمان من بين أوائل من تغبثوا  
بخطر الدين ورجال الدين على المشروع الصهيوني.

يقول "هرتزل" فى كتابه "تولة اليهود" فى وضوح: "يجب أن نجعل رجال الدين  
اليهود ضمن حدود معابدهم بنفس الطريقة التى سوف نجعل فيها الجيش المحترف ضمن  
حدود ثكناته، ويجب أن ينعم الجيش ورجال الدين بالاحترام البالغ الذى يستحقونه،  
ولكن لا ينبغى أن يتدخلوا فى إدارة الدولة التى تضى شرعية عليهم، وإلا فسوف يثيرون  
صعوبات لأنفسهم ولغيرهم".

ويذكر "وايزمان" فى مذكراته التى كتبها بعد إعلان قيام إسرائيل.. "إن من واجبنا  
أن نوضح للجماعات الدينية اليهودية من البداية المبكرة.. أن الدولة بينما تحرص على  
احترام المشاعر الدينية الصادقة على نحو كبير، لكنها لا تستطيع أن تدير عقارب الساعة  
إلى الوراء من خلال جعل الدين المبدأ الرئيسى فى سلوك الدولة، وينبغى أن يقتصر الدين  
على المعابد وبيوت تلك العائلات التى تريده، ولكن لا ينبغى له أن يراقب وزارات الدولة".  
وكان حايم وايزمان.. يرى فى الدين أفيوناً لليهود، ومصدراً رئيسياً للسلبية

والكسل، لأنه يمزج فكرة أن قراءة التوراة والصلاة أفضل من العمل الجسدي، وبالتالي يخلد الاعتماد على الصدقة التي تذل النفس وتحط من قدرها.. "فمدينة القدس مثلاً.. مدينة تعيش على الصدقة ورسائل جمع التبرعات وأموال الأعمال الخيرية".

• • •

يروى "لورانس ماير" أنه كان يستعد للذهاب إلى القدس، فسأله أحد الإسرائيليين: "هل أنت ذاهب إلى القدس؟ إنني لا أطيق الذهاب إلى هناك بسبب جميع هؤلاء المتدينين الكاذبين".

ومرة كان أحد الإسرائيليين يقوم بتعبئة "نموذج" لتصريح رسمي، واكتشف الموظف حذفاً مقصوداً في تعبئة النموذج. سأل الموظف: "إنك نسيت أن تكتب ديانتك، وسوف أكتب أنك يهودي".. قال الإسرائيلي: "لقد تركت الفراغ متعمداً، لا تكتب أي شيء، فإنني لا أومن بأية ديانة". قال الموظف: "ولكنك يهودي". وأصر الآخر على القول "اترك الفراغ على حاله.. لست مؤمناً".

وفي رواية ثالثة.. يقول أحد الإسرائيليين.. "إنني لا أرغب في الاستيقاظ مبكراً، إن يوم السبت هو اليوم الوحيد الذي يمكنني أن أنام فيه حتى وقت متأخر، لولا أصوات هؤلاء المصلين".

إنها حالة النعمة على الدين وعلى المتدينين في إسرائيل، فقد ضجّ العلمانيون بتصاعد المد الديني، وبتحوّل إسرائيل التدريجي من إغراءات الحداثة والمقلانية إلى سراديب المبكى وغياهب التلمود.

• • •

ذكرت مجلة "التايم" في تحقيق مطول أجرته مطلع العام 1997م.. أن عدداً من اليهود الغاضبين يطالبون بثلاث دول، دولة فلسطينية، وأخرى يهودية علمانية، وثالثة يهودية أصولية، وأن الفكرة تحظى بنقاش حاد في إسرائيل!

ويعد الروائي اليساري "يورام كانويك" والصحفي (الأمريكي المولد) "زئيف

تخالفهتش.. من أبرز الداهين لفكرة "الدول الثلاث".

فالأصولية اليهودية تدعو إلى أفكار تتعارض مع مصالح إسرائيل، ومع رغبات معظم الإسرائيليين، ويقولون إن الرد هو "الطلاق" و"التقسيم" على مستوى طائفي.. وبمعنى آخر.. تصبح دولة إسرائيل للعلمانيين، ودولة "يهودا" للمتطرفين.

ويذكر "كانوبك" في حديثه إلى التايم.. "إنهم لا يأكلون معنا، ولا يرغبون في الزواج منا".. "إن فياخذوا الأرض الجبلية الجميلة في القدس والخليل ويفعلوا ما يسهروا، ونحن نستمر في بناء دولتنا في تل أبيب".

ويذهب "تسفي بارثيل" الصحفي في "هاآرتس" إلى أن ما يحدث من تطاول من المتطرفين على العلمانيين كارثة، وأن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي يسمح فيها لأقلية مدللة (10٪) من السكان مثل الأصوليين السيطرة على الآخرين.

• • •

على الرغم من أن الأصولية اليهودية قد صعدت في إسرائيل في أعقاب حرب 1967، فإن وصول ننتياهو إلى السلطة في عام 1996م كان دافعاً قوياً لاستفحالها. اعتاد ننتياهو أن يغازل التيار الديني، وأن يجامله في الميزانيات وفي المشاركة في الحكومة والمؤسسات.

وكانت السنوات الثلاث التي قضاها ننتياهو فترة مد أصولي بلغ مدى غير مسبوق، وفي عهده كانت الاشتباكات تقع في الشوارع بين الفريقين، وراح العلمانيون يفكرون في تقسيم للبلاد وإلا فستكون حرباً أهلية في دولة يصعب بقاؤها يوماً آخر فيما لو وقعت مثل هذه الحرب.

• • •

وقد وجد العلمانيون في "إيهود باراك" منقذاً علمانياً لكارثة الأصولية اليهودية، ووجد باراك نفسه هو الآخر مدفوعاً لإعلان ثورة علمانية وإعطاء وعود بكسر شوكة الأصوليين.

أعلن باراك في 20 أغسطس 2000 بدء ثورة علمانية في إسرائيل، والسعى لإقرار دستور للبلاد، وإصلاح النظام التعليمي، وإتاحة فرصة الحصول على العلوم للجميع، وإلغاء وزارة الأديان، وتدريب الإنجليزية والرياضيات لجميع التلاميذ الإسرائيليين خاصة الذين يدرسون في المدارس الدينية التابعة لحزب شاس، وإصدار قوانين جديدة للزواج المدني، وحقوق المرأة.

وكلف باراك لجنة وزارية تضم وزراء العدل والخارجية بالوكالة وشئون الشتات.. يوسي بيلين، وشلومو بن عامي، وميخائيل ملكهور وزهبة "دان ميروودور" في مناقشات الكنيست.. إلى ضرورة أن ينص الدستور على حرية التعبير والمساواة بين الذكور والإناث واليهود وغير اليهود.. ورأى أن الأحزاب الدينية تمثل تعبيراً منحرفاً لليهودية.

• • •

ومثل آلاف اللجان في العالم الثالث.. لم تفعل اللجنة المشكلة شيئاً، وتغلّبت الأصولية على العلمانية.

وأعلن زعيم حزب شاس "إيلي يشاي".. أن سنّ الدستور يمس القيم اليهودية، ويؤدي إلى حرب ثقافية وحضارية، وأنه سيحدث انشقاقات في صفوف الشعب اليهودي.

وذهب "موشي جافني" النائب الأول إلى أن مقترحات باراك تنطوي على عدم المسئولية، وتسيء إلى دولة إسرائيل بصورة خطيرة. وأما باراك نفسه.. فلم يكن في حاجة إلى مجهود كبير لينقلب على نفسه، وفي مفاوضات كامب ديفيد كان يطالب بسيادة على المسجد الأقصى وما تحته.. حيث أنقاض الهيكل، وتذكر بعض التحليلات أن باراك كان على وشك تبني دعوة الأصولية اليهودية بتدمير المسجد الأقصى ومحاولة بناء الهيكل مكانه!

• • •

عاد العلمانيون إلى نكبتهم في مواجهة الأصولية، وفي مواجهة الهزائم المتلاحقة، انطلق العلمانيون ينتقدون ويهاجمون. وفي موجة الإنتقادات.. برز قول "يوسي بيلين":

"إن القدس لا تعنى أى شيء بالنسبة لى".

وأما حائط المبكى.. الذى يراه يهود العالم أهم رمز لليهودية، وأنه عندهم الصرح الباقى الوحيد من الهيكل الثانى الذى هدمه الرومان عام 70 ميلادية. فقال عنه المفكر اليهودى وعالم الكيمياء أيضاً "بشايهاو ليبرفيتش" .. "لقد أصبح التعلق به تعلقاً وثنياً، وهذا المكان المقدس وثنى المفهوم فى مجمله، إنه ساحة رقص دينية، وهو ليس مقدساً، إنه ليس شيئاً على الإطلاق.

ويصل "ليبيرفيتش" .. "لقد أصبح الحائط والساحة مثل نصف مساحة ملعب كرة قدم مكاناً للسائحىن والاستعراضات المسكرية.. هناك من يعتقدون أنه مكتب بريد الله تعالى، غير أنه فى الحقيقة ليس إلا ذلك العجل الذهبى!"

• • •

وكثيرة هى المقولات التى ذهبت تنتقد وتهاجم، وكان بعض الحظ فى جانب العلمانيين، ذلك أن "أهارون باراك" رئيس المحكمة العليا كان يعمل لصالحهم باستمرار. والمحكمة العليا هى أعلى سلطة قضائية فى إسرائيل، و"أهارون باراك" هو أشهر قضاتها، وقد أخذ على نفسه مسئولية مناهضة الأصولية وتأكيد الشكل الديمقراطى.

وهو الذى أفتى بإبقاء طريق "بار إيلان" الشهير بالقدس مفتوحاً يوم السبت برغم مطالبة المتشددىن بإغلاقه أمام السيارات.

وحفلت الصحف الأصولية بإفتتاحيات تصفه بأنه ديكتاتور وعدو لليهودية، وتعرض "أهارون باراك" لتهديدات بالقتل، أودع بسببها تحت حراسة أمنية مشددة.

حاول نتنياهو فرض قيود على المحكمة العليا لتقليص سلطاتها لصالح الأصوليين، وطالب "اسحق ليفى" وزير النقل وقتها وهو أصولى من حزب الفدال.. بتشكيل محكمة دستورية مستقلة للفصل فى هذه القضايا الجوهرية. واقترح أصوليون آخرون أن يتولى الكنيست تعيين أعضاء المحكمة العليا بدلاً من قيام السلطة القضائية بذلك.

وكانت رغبة الأصوليون في تقليص دور المحكمة العليا الحامية للنظام العلماني تلقى تجاوباً في الشارع الإسرائيلي.

فقد احتشد ربع المليون أصولي.. وهو ما يعادل (5%) من سكان إسرائيل.. في مظاهرة حاشدة احتجاجاً على قضاة المحكمة العليا ووزارة العدل.. ومنادين بتطبيق الشريعة والغاء الفصل بين الدين والدولة.

ووصف "عوفاديا يوسف" الزعيم الروحي لحزب شاس الديني قضاة المحكمة العليا بأنهم بلا خلق ولا دين، وأنهم ينتهكون حرمة السبت ويرتكبون الموبقات.

على أن العلمانيين مضوا في طريقهم الشاق، داعمين المنظمات الداعمة للعلمانية ومحاولين كسب معارك قانونية واحدة وراء الأخرى برغم الصعوبات.

• • •

ترصد مجلة "لونوفيل أوبزرفاتور" الفرنسية في مطلع العام 1997م.. ذلك التراجع الكبير في تأثير رجال الدين في مجال الزواج. فخلال العشرين عاماً السابقة، انخفض عدد الأزواج الذين يعتقدون زواجهم بواسطة الحاخامات من (28) ألف إلى (26) ألف حالة برغم أن عدد السكان قد تضاعف.

لقد زهد الإسرائيليون في الزواج بالمراسم الدينية، وأصبحوا يفضلون صور الزواج الأخرى البديلة مثل الزواج المدني.. في أوروبا وفي قبرص.. أو الحياة المشتركة وإنجاب الأطفال بلا زواج.

ومن الزواج إلى مراسم الدفن.. قطع العلمانيون شوطاً هاماً.. فقد سمح للمرة الأولى في تاريخ إسرائيل بدفن أحد المواطنين وزوجته دون الالتزام بالطقوس الدينية، وهي نقلة اعتبرت لها الصحف ثورة اجتماعية في تاريخ الدولة العبرية.. فهي المرة الأولى التي يتم فيها إفتتاح مقبرة مدنية عامة في إسرائيل.

ويعلق رئيس جمعية "الراحة البسيطة" الإسرائيلية على ذلك قائلاً: "أخيراً..

سنتمكن من الموت بالطريقة التي نريدها.. فى هذا البلد".

ورد الحاخام الأكبر الذى وافق على المقبرة المدنية: "إذا كان أحد يريد أن يُدفن مثل الحمار.. فإن ذلك لن يكون له أى تأثير على الأجيال القادمة".

وتستقبل المقبرة المدنية الملحدين.. أى اليهود غير المعترف بهم من قبل الحاخامات، وكذلك المنتحرين، وهناك (800) ألف مهاجر روسى لا يسمح بدفنهم إلا فى القسم المخصص لليهود المشكوك فى دينهم.

\*\*\*

توجد فى إسرائيل منظمات علمانية هدفها الإجابة على هذا السؤال: كيف تنتقل من الأصولية إلى العلمانية؟.. أو كيف تصبح علمانياً؟.. وذلك بفرض إعداد أجيال من العلمانيين الذين يمكنهم مواجهة المد الأصولى المتزايد.

فى القدس تأسست منظمة "رابطة شعب حر" التى تهدف إلى تزويد العلمانيين بأيدولوجية متكاملة ومستقلة عن الحاخامات والتوراة والتلمود.

وفى الولايات المتحدة تأسست منظمة "هيلال" اليهودية.. محاولة اقناع المواطن اليهودى ليكون علمانياً، إنها "تمد يد العون إلى من يبحثون بالفعل عن سبيل لترك الأصولية اليهودية المتشددة".

ويرى القائمون عليها.. أن أى علمانى يريد أن يتدين فإن هناك نظام كامل يساعده على دخول عالم اليهود المتدينين مع إيجاد عمل له ومعاونته على الزواج وتكوين أسرة.. ومن يريد أن يصبح علمانياً فإنه لا يجد من يساعده.

\*\*\*

هكذا.. تمتد الحرب بين الفريقين، من الحياة إلى الموت، ومن المظاهرات إلى المنظمات، ومن السلطة إلى الشارع.. وهى حرب فيها كثير من ملامح الحروب بين كل الأصوليات والدينيات، وفيها خصوصيات دين لا يعرف التبشير، وشعب لا يعرف الآخر،



ودولة لا يمكنها البقاء في ظل الدين، ولا البقاء خارج الدين!

• • •

وإذا كان هذا هو موقف الأصولية اليهودية من العلمانية اليهودية، فما هو موقفها  
إن من الأديان الأخرى؟

الملاحظة الأولية على هذا السؤال.. أنه فيما يوجد عدد كبير من المؤلفات حول رأي  
الإسلام في اليهودية، فإنه لا يوجد ذلك العدد حول رأي اليهودية في الإسلام. سبب  
ذلك.. أن الإسلام يعترف باليهودية، ولذا كان طبيعياً أن يهبط لدراساتها.. واليهودية لا  
تعترف بالإسلام ولذا كان طبيعياً أن تُهمل النظر إليه.

ومنذ زمن الفيلسوف اليهودي "موسى ابن ميمون" لا يوجد ذلك النقاش الفنى بين  
الإسلام واليهودية، أو ذلك الإهتمام العقائدى والفكرى اليهودى تجاه المسلمين. يضاف إلى  
ذلك، أن اليهودية دين مطلق والإسلام دين مفتوح عماده الدعوة.. وأن الإسلام بذلك يحتاج  
إلى فهم عقائد وثقافات الآخرين حتى يتمكن من النفاذ إليهم ونيل قبولهم وتهيئة الطريق  
إلى إسلامهم.

وأما اليهودية، فحيث إنها دين الخاصة من الناس.. لا يدخله أحد بالإيمان ولا  
بالقبول، وإنما بصلة الدم وديانة الأم، فإنه لا يعنى اليهودية الفهم الكامل لعقائد  
الآخرين.. ذلك أن تحولهم عن دينهم إلى اليهودية ليس مطلوباً ولا مقبولاً.

وقد جاءت إسرائيل.. لتجعل من اليهودية ديناً سياسياً محضاً، وليكون كل إهتمام  
اليهود فيها منصباً على موازين القوى واحتمالات الحرب وآفاق التسوية.

ومن بين طرائف الأحداث.. أن النائب العربى فى الكنيسة "عبد المالك دهامشة"..  
طالب السلطات الإسرائيلية بإقامة مسجد داخل الكنيسة الإسرائيلى لكى يستطيع النواب  
العرب الصلاة فيه، أسوة بوجود كنيس يهودى بالكنيسة. وقد وافقت السلطات الإسرائيلية  
على إقامة المصلى، وتم إفتتاح المسجد للصلاة فى أكتوبر 1996، حين كان نتنياهو فى

السلطة والأصوليون إلى جواره.

وبينما كان يجرى التحضير لحفر نفق يستهدف هدم بيت المقدس، استقبل مسجد الكنيست الذى كان غرفة لسكرتيرة.. سجادة جديدة، وعدد من المصاحف وصورة للمسجد الأقصى على أحد الجدران!

• • •

وإذا كانت علاقة الإسلام باليهودية فى إسرائيل علاقة مرتبكة وناقصة وباهتة المعالم.. فإن علاقة اليهودية بالمسيحية داخل إسرائيل هى علاقات مسكوت عنها تماماً.. ولا يعرفها الكثيرون.

وشأن حالة الإسلام واليهودية.. فإن المسيحية تعتبر اليهودية جزء من الإيمان المسيحى والتوراة شطر من الكتاب المقدس.. غير أن اليهودية لا تعترف بالمسيحية ولا تؤمن بنبوة السيد المسيح، وترى أنه جاء ثمرة لخطيئة ارتكبتها السيدة مريم، وأن المسيحية برمتها نوع من الكفر.. ولذا كان طبيعياً أن يقوم اليهود بصلب المسيح.. الذى لم يكن مسيحاً، لأن المسيح الحقيقى سيأتى فى آخر الزمان.

وهو المسيح الذى تنتظره الديانات الثلاث.. الإسلام والمسيحية واليهودية، غير أنه فى الإسلام والمسيحية هو ذاته عيسى - عليه السلام - أو يسوع المسيح، ولكنه فى اليهودية ليس ذلك النبى الذى جاء، فظهوره سيكون آخر الزمان.. وللمرة الأولى.

وترى الأصولية اليهودية والمسيحية معاً.. أن المسيح سيظهر فى فلسطين أو المنطقة المحيطة بها، ومن ثم فإن هذه المنطقة ستشهد كارثة ما قبل عودة المسيح حيث سيموت ملايين الأشخاص.. والمركة الشهيرة لتلك الأحداث فى آخر الزمان هى معركة "هرمجدون".

• • •

حسب نظرية هرمجدون.. السيطرة على الأصولية المسيحية.. فإن الله قد خلق العالم عام 4000 قبل الميلاد، وعمر العالم الآن طبقاً لذلك هو (6000) سنة.

وأن الله الذى خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع.. سوف يوقع كارثة كبيرة فى نهاية الألف السادس تتبعها ألف سنة من الحكم الذهبى للمسيح.. أى أن العالم كله بناء على ذلك سبعة أيام من أيام الله، وإذا كان يوم الله بألف سنة من يوم الإنسان، فإن يوم الراحة السابع هو ألف سنة فى راحة البشرية فى حضور المسيح.

ويذهب الكاتب "محمد السماك" إلى أن الإيمان بذلك يعود إلى السنوات الأولى للمسيحية، ثم عاد الإيمان بقصة "هرمجدون" فى العصور الوسطى من أجل دعم الحروب الصليبية، وفى القرن التاسع عشر وضع "جون نيلسون" سيناريو لنهاية العالم من خلال نبوءات التوراة فجعل تاريخ العالم سبعة عصور.. والعصر السابع يتوج بعودة المسيح الثانية. وقد سيطرت هذه النظرية على الحركة الإنجيلية طيلة القرن العشرين، وصدر كتاب "هال لينسى" عام 1970م طبقاً لهذه النظرية وبيع منه 40 مليون نسخة وعنوانه "الكرة الأرضية.. الفقيدة الكبيرة" ..

والسيناريو الجذاب الذى جاء فى هذا الكتاب يجرى على النحو التالي: مسيحيو الشرق يتعرضون للاضطهاد والطرده.. أعداء المسيح ينتصرون ويحكمون سبع سنين.. حرب نووية كبرى يعود بها المسيح.

...

الأخطر فى كل هذا الفكر.. هو أن قيام إسرائيل عام 1948م، يمثل أهم علامة على صحة هذا الفكر وتزايد الإيمان به والقتال لأجله.. إن لاهد من إسرائيل قبل ظهور المسيح، ولا بد أيضاً من هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء الهيكل الذى هدمه الرومان عام 70 ميلادية!

وفى الولايات المتحدة الأمريكية زاد الإيمان بهذه النظرية، وفى ظل عملية الإحياء الدينى فى الولايات المتحدة.. تنامت الحركة الأصولية المسيحية.

وداخل الحزب الجمهورى الأمريكى يشكل "التحالف المسيحى" مركز قوة كبير

داخل الحزب، وهو المحرك "لحملة الحرية الدينية وإنقاذ مسيحي الشرق"، وتمثل حركة "حماة العهد" التبشيرية الإنجيلية التي نظمت مظاهرة عام 1997م وحضرها مليون مؤيد أمام البيت الأبيض.. قوة كبرى داخل الولايات المتحدة.. وبين الفريقين تحالف كبير. وهكذا.. التقت الأصولية اليهودية والأصولية المسيحية على إيمان واحد.. بقاء إسرائيل.

• • •

يمثل التحالف الجارى بين الأصوليتان اليهودية والمسيحية.. تحولاً عن مسار العلاقة بين الديانتين على مر التاريخ.. فالخلاف الجوهرى حول نبوة المسيح وحول مسئولية قتله وصلبه حال دون الإلتقاء قروناً طويلة.

وقد كان الفاتيكان من أشد المعارضين للحركة الصهيونية منذ مؤتمر بازل عام 1897م، ورفض البابا بيوس العاشر فى لقائه مع تيودور هرتزل عام 1904م دعم الحركة الصهيونية وهجرة اليهود إلى فلسطين، كما لم توافق الكنيسة الكاثوليكية على وعد بلفور عام 1917م. ثم بدأ التنازل تباعاً.. فأعلن الفاتيكان الحياد إزاء إعلان قيام دولة إسرائيل عام 1948م.

ثم كان إصدار البابا يوحنا الثالث والعشرين عام 1964م وثيقة تقضى بتبرئة اليهود من دم المسيح. ولاحقاً.. أصدر البابا يوحنا بولس الثانى وثيقة تؤكد الأصل اليهودى للمسيح. وفى عام 1994م، بدأ التبادل الدبلوماسى رسمياً بين الفاتيكان وإسرائيل، وفى 1998م.. اعتذر الفاتيكان لعدم تدخله لإنقاذ اليهود من أهدى النازيين.

والشهود من تلك التطورات، أن الأصولية المسيحية ومعها رأس الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان.. تمضى فى اتجاه التوافق والتطبيع مع اليهود ديناً ودولة.. ولكن إسرائيل لم تقطع ذات الشوط فى الاتجاه العاكس.. حيث يضم الإسرائيليون ازدياداً للمسيحية وعداءً شديداً للتبشير بها فى الأوساط اليهودية.

وفي عهد نتنياهو تجمع مئات اليهود امام مكتبه للمطالبة بطرد المبشرين المسيحيين من إسرائيل واحراق نشراتهم، كما ضربوا العديد من موزعي البريد الذين حملوا هذه النشرات.

وأمر الحاخام "عوفاديا يوسف" زعيم حركة شاس موزعي البريد الإسرائيليين بحرق النشرات التي ترسلها الجماعات التبشيرية المسيحية باعتبار ذلك واجباً دينياً.

وفي سبتمبر 1996، حظرت إسرائيل نشاطات جماعات التبشير المسيحي تماماً، وهو ما جعل أعضاء "الحركة العالمية لشهود النبوءات" التي تأسست في بريطانيا في وقت سابق إلى الشعور بالإحباط وهذه الحركة تعمل بالأساس على التبشير بالمسيحية في إسرائيل إلى أن تهتدى إسرائيل إلى المسيحية.

ويذكر "سهيل ديب" أن الكاتبين "تارفورد" و"ماكنيكول" صاحباً كتاب "مرجل الشرق الأوسط The Middle East Couldran ... قد اكتشفا.. "أن التبشير هو أقوى سلاح يمكن به محاربة إسرائيل". ويشعر الإسرائيليون بالفزع من محاولات جذب اليهود إلى المسيحية، ولا يستشعرون الرضا تجاه الفاتيكان ولا مؤسسات أو رموز الدين المسيحي.

وحين قام البابا يوحنا بولس الثاني بزيارة إسرائيل في عام 2000م، نظم (2500) من الحاخامات والأصوليين مظاهرة قبل مجيئه لرفض أي محاولة من البابا لاختراق الدين اليهودي.. أو أن يكون له نوايا تبشيرية بتحويل اليهود للمسيحية. ولهذه الحساسية اليهودية تجاه المسيحية أصول تاريخية، فقد عانى اليهود من المسيحيين الكثير، وفي أوقات الشدة لم يكن لهم مخرج سوى اعتناق المسيحية.

ويفسر البعض ذلك.. بكون العدا الذي واجهه اليهود، والذي كان يتراوح ما بين الاضطهاد والقتل إنما صدر عن الصليبيين، ومحاكم التفتيش، ومارتن لوثر، وروسيا القيصرية. ولقد ظل هذا العدا قائماً حتى نهاية القرن التاسع عشر، ومن كان يعتنق المسيحية كان ينجو بنفسه.

ويعترف الكاتب الأمريكي "ماكس ديمونت" المتخصص في اليهوديات.. بأن "الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا وأسبانيا والبرتغال.. قد وضع حداً لإكراه اليهود على اعتناق المسيحية. فتحت حكم المسلمين الذي استمر خمسة قرون، نشأت أسبانيا ذات الديانات الثلاث والحضارة الواحدة، حيث شارك المسلمون والمسيحيون واليهود في صنع حضارة امتزجت فيها ثقافتهم وديانهم وأديانهم.

حدث ذلك من قرون.. وقد ردت اليهودية على الإسلام بجزء آخر، احتلال وتدمير، ثم إنكار لتقاليد عريقة في الحوار والحياة المشتركة، وكان هذا التاريخ لم يكن ذات يوم".

**الفصل الرابع**

**إسرائيل الصغرى**





# إسرائيل والعالم.. بعض التحوّلات



ربما يكون تعبير الكاتب البريطاني "روبرت فيسك" هو الأدق في علاقة الغرب بإسرائيل.. يقول فيسك في جملة واضحة "إن قادة الغرب جهنماء".

إن "فيسك" ليس وحده في عدم تقدير "قادة الغرب المعاصرين" ذلك أن النخبة الفكرية في العالم ترى أفول زمن "القادة العظام" وحلول زمن "القادة الصغار".. لكن "فيسك" كان أكثر وضوحاً في وصف حالة الجبن المتزايدة لقادة الغرب "الصغار" في مواجهة إسرائيل. إن هذا الجبن تجلى في التخاذل الغربي إزاء الفلسطينيين في حرب غزة عام 2008م.. لم يساعد الغرب في إنقاذ أحد، وكل ما ساعد فيه هو إصدار بيانات الأسف ويقارن "فيسك" بين ما جرى في عام 2008م في فلسطين التي هي ليست عدواً للولايات المتحدة وبريطانيا وما جرى قبل نصف قرن في عام 1948م.

كانت القوات الروسية تحاصر برلين وكان الألمان الذين هم أعداء الولايات المتحدة وبريطانيا يمانون ويلات الحصار. قامت واشنطن ولندن بعمل إنساني كبير، حيث أقامت جسراً جويّاً إلى برلين من أجل إنقاذ الألمان الأعداء!

ولكن حين حدث ذلك الحصار مع الفلسطينيين في القرن الحادي والعشرين.. كان الغرب جهنماً.. وأدار رأسه بعيداً!

إن قادة الغرب الذين ساعدوا في هذه المذبحة الإنسانية هم أنفسهم الذين يتسابقون من أجل نفاق إسرائيل في كل المناسبات.. وحدث في أسبانيا أن قام رئيس وزرائها "خوسيه ماريّا أزنانر" بقيادة مظاهرة من عشرات الآلاف تضامناً مع إسرائيل ضد المحرقة.

...

إن العالم العربي والإسلامي يرى المحرقة أمراً مشيناً وجريمة كارثية ارتكبتها الغرب ضد المواطنين اليهود الأبرياء.. ولكن الجريمة كانت بحق اليهود وليست بحق إسرائيل، وليس مفهوماً أبداً.. لذا يتظاهر البعض في الغرب ضد المحرقة تضامناً مع

إسرائيل.. وكان إدانة المحرقة تتطلب بالضرورة تأييداً لإسرائيل.. هنا يكمن المأزق الأخلاقي للغرب.

• • •

حين قام الرئيس الفرنسي ساركوزي بزيارة نصب تذكاري للمحرقة قال: "أشعر أنني إسرائيلي.. إن بقاء إسرائيل كدولة يهودية واجب أخلاقي".

قرر ساركوزي تدريس المحرقة للأطفال في فرنسا حيث يجب على كل طفل فرنسي في الصف الخامس الابتدائي أن يتذكر طفلاً يهودياً قُتل أثناء الإبادة.. أن يعرف اسمه ومكان قتله.

اعترض علماء النفس على قرار ساركوزي الذي سيُشعر الطفل بالذنب إزاء طفل آخر لا يتحمل أنني مسئولية فيما جرى له..

وقال المعارضون: "كيف سيكون شعور أسرة مسلمة أو مسيحية حين تطلب المدرسة من ابنها تذكر طفل يهودي في ذكراه.. إن ذلك قد يحدث آثاراً عكسية".

وسخر الفيلسوف الفرنسي "باسكان براكنر" قائلاً: "إن ساركوزي يلقي علينا كل يوم بفكرة سيئة".. ثم واصل "إنه عبء ثقيل أن نطلب من طفل صغير أن يصف طفلاً ميتاً".

قام ساركوزي بزيارة إسرائيل وامتلاً خطابه في الكنيست بمقتطفات من التوراة، وقال: "جدي كان يهودياً وعانينا كارثة المحرقة".. ثم استدرك يقول: "إنني لست يهودياً.. لكن جدي هو الذي كان يهودياً". لكن ساركوزي ارتدى الطاقية اليهودية ومضى يتحدث عن معاناة اليهود بون كلمة واحدة عن معاناة الفلسطينيين.

إنه الأسى على محرقة قديمة بدعم محرقة جديدة!

• • •

لقد كان الزعيم الكوبي "فيدل كاسترو" جسوراً حين وصف إسرائيل بأنها مثل ألمانيا النازية. قال كاسترو: "إن الصليب المعقوف أصبح علم إسرائيل.. وأن إسرائيل لن تتردد في ارسال مليون ونصف المليون رجل وامرأة وطفل في غزاة إلى أفران الغاز كما فعل هتلر مع ملايين اليهود في ألمانيا النازية".

ثم أوضح كاسترو: "إنني لا أكره اليهود.. وقد تضامنت بلادى معهم في الحرب العالمية الثانية، واستضافت كوبا عدداً من الفاجين اليهود.. لكننى أرى بالمقابل أن ما يجرى في فلسطين يماثل ما جرى لليهود.. إنها إبادة.. وللأسف فإن العالم سيشغل بمونديال 2008 عن محرقة 2008".

وقد جاء مقال الكاتب "ديفيد أرانوفيتش" فى صحيفة "التايمز" مماثلاً لرؤية كاسترو. أجمل "أرانوفيتش" كارثة 2008 فى فلسطين بقوله: "إنها آلام تفوق طاقة البشر.. مقتل (1000) وإصابة (5000) وتشريد (12000) من الفلسطينيين الأبرياء.. إنه إرهاب لا يحتمل، إن بعض الفلسطينيين يلقون أنفسهم من النوافذ.. ما ينقص إسرائيل فقط أفران الغاز من أجل حرق الفلسطينيين". ثم انتهى "أرانوفيتش" للقول: "إن مجازر إسرائيل ضد فلسطين تعادل مجازر النازى ضد اليهود".

• • •

لقد توازى ذلك مع حملة أطلقها إتحاد النقابات العمالية فى بريطانيا لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية.. جاءت الحملة تحت عنوان "لماذا نشترى بضائع مسروقة.. إنها قادمة من المستوطنات وهى أرض مسروقة".

وقد اندلعت مظاهرات فى لندن وبرلين واستكهولم وبودابست وأوسلو وكوبنهاجن وأثينا. وفى مدينة نيس أحرق الشباب الفرنسى محلات تشير إلى أمريكا وإسرائيل. وحين قام "يهود أولرت" رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق بزيارة جامعة شيكاغو من أجل إلقاء محاضرة.. استقبله طلاب الجامعة بالأحذية.. وكتب أحد الطلاب "على جامعتى أن تخجل من دعوة مجرم حرب". وحين تحدث مسئول الجامعة مهدناً الطلاب ومبرراً الدعوة بأنها

من أجل أن يجيب أولرت على أسئلة طلاب جامعة شيكاغو.. قال الطلاب: "عليه أن يجيب على الأسئلة.. لكن ليس في هذه القاعة.. بل في محكمة العدل الدولية في لاهاي".

• • •

قام عدد من النشطاء في بريطانيا وبلجيكا وبعض دول أوروبا بمحاولات عديدة للملاحقة القضائية لمجرمي الحرب الإسرائيليين.. وتمكن النشطاء في بريطانيا من التضييق على حركة عدد من المجرمين الذين لم يتمكنوا من دخول لندن خشية إلقاء القبض عليهم.

وحسب صحيفة "يديعوت أحرونوت" فإن إسرائيل طلبت السماح لوفد عسكري من كبار ضباط الجيش الإسرائيلي بزيارة بريطانيا مع التمهيد بعدم إعتقالهم خلال الزيارة.. لكن بريطانيا رفضت التمهيد، وألغت إسرائيل الزيارة.

وذكرت صحيفة "الفايمز" أن جنرالاً إسرائيلياً متقاعداً كان مطلوباً في بريطانيا بتهمة ارتكاب جرائم حرب حيث قام بتدمير خمسين منزلاً فلسطينياً، ورفع نشطاء ضده دعوى قضائية في بريطانيا.. وقد طلبت المحكمة إلقاء القبض عليه ولم يعرف الجنرال بصور الحكم.. كان الجنرال قادماً إلى مطار هيثرو على متن شركة طيران "العال" الإسرائيلية.. طلب منه قائد الطائرة أن يمكث في الخلف ولا يغادر، وأن ينتظر الملحق العسكري الإسرائيلي..

عادت الطائرة بالجنرال ولم يتمكن رجال الشرطة الذين كانوا ينتظرون عند منطقة الجوازات من القبض عليه.

أقام النشطاء دعوى قضائية ضد الشرطة البريطانية التي تقاعست في القيام بواجب إلقاء القبض عليه.. ودافعت الشرطة بأن الطائرة التي تقلّ الجنرال كانت تحمل قطع سلاح.. وحدث تخوف من تبادل إطلاق النار. إن "تسيبي ليفني" وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة هي الأخرى مجرمة حرب، وتقدم فريق قانوني بريطاني برفع دعوى قضائية من أجل إعتقالها في حال دخولها الأراضي البريطانية. وقد كانت عملية حماية "ليفني" من

إلقاء القبض عليها عملية مهينة.. حيث تم إخفاؤها وتهريبها حين ذهب رجال الشرطة لإلقاء القبض عليها.

أما "موشي يعقون" الذي تولى رئاسة الأركان وجرى ترشيحه ل منصب وزير الدفاع فقد تراجع هو الآخر عن زيارة لندن بعد أن تم وضعه على قوائم الإنتظار بتهمة ارتكاب جرائم حرب.

لقد دفع هذا الوضع صحيفة "يديعوت أحرونوت" للقول "أصبحت إسرائيل مثل جنوب أفريقيا المنصرية.. أصبحنا دولة منبوذة"

\*\*\*

إن القول بنازية السياسة الإسرائيلية له صدى فى الداخل، فوزير الخارجية "أيهجندور ليبرمان" له رؤى متطرفة للغاية.. يقول "توم سيجيف":

"إن الديمقراطية تنسحب من دولتنا.. وزير خارجيتنا ينتمى لحزب كأحزاب اليمين المتطرف فى أوروبا.. إن تجربتنا الديمقراطية فى إسرائيل تتعرض لخطر داهم". وأنا كان "ليبرمان" على نحو ما يقول "سيجيف" يشبه الأحزاب اليمينية المتطرفة فى أوروبا.. فإن "حركة القيادة اليهودية" التى أسسها "موشي فايجلين" هى حركة متطرفة تماماً.. إنها الحزب النازى الإسرائيلى.. ينقل الكاتب "نبيل زكى" عن "فايجلين" قوله: "لقد ارتقت النازية بألمانيا من الحضيض إلى وضع رائع مادياً وفكرياً.. بفضل النازية وصلت ألمانيا للكمال، وأصبح الشباب جزءاً رئيسياً من المجتمع، وساد نموذج للعدالة".

احتل "فايجلين" المرتبة رقم (20) فى قائمة حزب الليكود فى انتخابات الكنيست. ويتضمن البرنامج السياسى طرد المسلمين تماماً من المسجد الأقصى وإلغاء الوقف الإسلامى وقطع المياه والكهرباء عن الفلسطينيين.

ويرى "فايجلين" ضرورة احتلال كل أراضى إسرائيل فى فلسطين وسوريا ولبنان.. وأما عرب 1948 فإنهم أمام خيار واحد إما الولاء الكامل لإسرائيل أو الطرد وحق تقرير

المصير فى أى دولة عربية.

يؤمن "فايجلين" بالقتل والإبادة.. وأيد مذبحة الإرهابى "جولد شتاين" فى الحرم الإبراهيمى.. والقولة الحاكمة للنازيين الإسرائيليين هى قول "فايجلين": "لا يوجد شئ اسمه الشعب الفلسطينى!"

• • •

إن النزعة النازية فى إسرائيل ليست موقفاً فكرياً أو أخلاقياً فحسب، بل لها أسبابها الموضوعية فى الإحساس بالفشل والوهن.. والشعور العام بتآكل إسرائيل. إنها نزعة تحاول الرد على الهزيمة الداخلية التى أعقبت حرب 1973 ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

إن جانباً من الفكر السياسى العربى كان يركز على قوة وتماسك المجتمع الإسرائيلى بعد حرب 1967، وجانب أقل كان يركز على ضعف وتراجع المجتمع الإسرائيلى بعد حرب 1973، وجانب لا يذكر ذهب يبحث فى زيادة معدل التدهور الإسرائيلى بعد كامب ديفيد.. ذلك أن أغلب الفكر السياسى العربى كان يتحدث عن التدهور المصرى والعربى بعد كامب ديفيد دون رؤية ما الذى يجرى فى الناحية الأخرى.

• • •

لقد كان لافتاً للانتباه ما جاء فى رسالة الدكتوراة التى أقرها معهد البحوث والدراسات العربية للباحث الفلسطينى "أحمد وفيق عوض" والتى رصد فيها تدهوراً حاداً فى إسرائيل بعد كامب ديفيد.. يقول الباحث: "إن إسرائيل ذات الطابع العلمانى والإشتراكى والقومى التى بدأت منذ عام 1977 تنحدر نحو الرؤية الدينية المتعصبة. أصبح الإسرائيليون يصوتون أكثر فأكثر لصالح طوائفهم وأيديولوجياتهم أكثر من صالح الدولة، زاد المتدينون فى الجيش والشرطة.. قد تصبح إسرائيل عما قريب غير إسرائيل التى تأسست عام 1948".

لقد توالى مؤشرات تراجع "الدولة الحديثة" فى إسرائيل.. حيث زاد الفقر



والجهل.. كما زادت أعداد الكافرين بالدين والدولة، وزادت معهم أعداد المهاجرين من إسرائيل إلى أى مكان آخر.

• • •

زاد الفقر فى إسرائيل حتى وصل إلى نسبة (30%)، وحسب صحيفة "يديعوت أحرنوت" - نقلاً عن الجهاز المركزى للإحصاء لعام 2011، فإن إسرائيل عضو فى منظمة البلدان المتطورة (OECD) والتي تضم (34) دولة.. أصبحت إسرائيل الأسوأ فى كل مؤشرات الفقر والتدهور وتدنى مستوى المعيشة بين كل بلدان المنظمة.

لقد توازى الفقر مع الجهل حيث تزيد نسبة المتدينين الذين لا يعرفون شيئاً عن العلوم الحديثة وكل معارفهم تقع داخل التوراة والكتب الدينية.

• • •

وبالمقابل فقد ظهر تيار آخر أصبح كافراً تماماً وخارج الدين. وفى عام 2011م رفع الأديب الإسرائيلى "يورام كانيوك" دعوى أمام المحكمة من أجل تغييرخانة الديانة من "يهودى" إلى "ملحد". ومن بعده نهب قائد سلاح الجو الأسبق "عاموس عامير" بطلب لتغيير ديانته إلى ملحد.. أما الشاعر الإسرائيلى "عودد كراملى" فقد أسس صفحة على موقع التواصل الاجتماعى "فيس بوك" للراغبين فى التحول من "اليهودية" إلى "الإلحاد" وهى الصفحة التى انضم لها (600) إسرائيلى فى اليوم الأول فقط!

وقد دفعت هذه الصدمة الحاخام الأكبر السابق "إسرائيل لاو" للاعتراض والغزع.. وقال لاو : "إذا تخلينا عن اليهودية لن نكون أمة.. نحن أمة بسبب التوراة.. وبدونها ينتهى وضعنا كأمة.. إن هذا تدمير تام لتاريخنا وديانتنا وأمتنا".

إن مخاوف الحاخام "لاو" هى مخاوف طبيعية.. ذلك أن "اليهودية" هى الغطاء الأيديولوجى للمشروع الصهيونى.. وأن التحول منها إلى "الإلحاد" يرفع هذا الغطاء.. لكن آخرين كانوا يرفعون غطاء آخر لم ينتبه إليه "لاو" .. هو أن معظم اليهود الحاليين هم من "المتحولين" أى الذين تحولوا من غير اليهودية إليها.. أى أنهم لم يكونوا يهوداً ولا هم

من نسل بنى إسرائيل، بل هم أناس وأفراد من أديان ومذاهب شتى اعتنقوا اليهودية فى إطار " تغيير الدين " .

• • •

جاء كتاب "شلومو ساند" الأستاذ فى جماعة تل أبيب قوياً وصادماً فى هذا السياق. يذهب "ساند" فى كتابه "إختلاق الشعب اليهودى" الذى صدر عن "دار فيرسو" فى لندن عام 2010م إلى أن أغلب اليهود هم من المتحولين دينياً.. من لم تطأ أقدامهم الأرض المقدسة.. ومن ثم فإن نظرية تأسيس دولة إسرائيل على أساس أن "الشعب اليهودى" الذى تأسس فى زمن التوراة قد تاه وتبعثر ثم هو يعود الآن إلى أرض الميعاد هى نظرية غير صحيحة.. لم يكن هناك منفى ولا شتات ولا يوجد اليوم شعب إسرائيلى بل هو تجمّع من هذا الشتات.

ثم يتحدث "ساند" عن التحول الدينى الكبير لمملكة (الخرز) فى البحر الأسود إبّان القرن الثامن الميلادى إلى مملكة يهودية كشكل من أشكال الحياد الدبلوماسى أثناء الصراع الإسلامى المسيحى، وأن تحول "مملكة الخرز" شجع بعضاً من نوى الأصول العرقية المختلطة الذين يشكلون أجداد اليهود الشرقيين الآن إلى اعتناق اليهودية خروجاً من ديانات أخرى. ثم ينتهى "ساند" للقول: "لا يوجد شعب إسرائيلى الآن.. إن إسرائيل مشروع سياسى.. إنه بلد جديد تماماً.. إنها أمة مخترعة".

• • •

إن الكفر بالدين يتوازى معه صعود ظاهرة الكفر بالدولة.. لم تعد إسرائيل هى المكان المفضل لهجرة اليهود.. بل عادت ألمانيا موطناً جديداً لهجرة اليهود إليها.. أو بتعبير أدق: عودة اليهود إلى ألمانيا.

وقد نقلت صحيفة "الأهرام" عن وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً مهماً حول الهجرة من إسرائيل.

يرصد التقرير موجة كبيرة من هجرة اليهود الإسرائيليين إلى بلدانهم الأصلية من

جديد. فقد ترك الآلاف إسرائيل وعادوا إلى ألمانيا حيث قام (50) ألف يهودي إسرائيلي بإحراق جوازات سفرهم الإسرائيلية وعادوا إلى بلادهم في أوروبا الشرقية، ثم قدموا طلبات هجرة إلى ألمانيا.

ومنذ عام 1989م حين انهار حائط برلين ويهود أوروبا الشرقية لايهاجرون إلى إسرائيل بل إلى ألمانيا.. وقد زاد عددهم في سنوات عن الـ (100) ألف مهاجر. إن "إسرائيل الحلم" تتراجع والهجرة التي كانت مقدسة لم تعد كذلك أو بتمبير الوكالة الفرنسية "بعد سنوات من هجرة الأجداد عاد الأحفاد وبدلاً من أن يتشبهوا بحلم الأجداد باعوا الحلم وغادروا أرض الميعاد".

• • •

لقد دفعت هذه الانهيارات القتالية رئيس الوزراء الأسبق "يهود أولمرت" للهجوم على الذين لا يزالون يؤمنون بفكرة إسرائيل الكبرى غير مدركين أن إسرائيل الصغرى تنهار.. يقول أولمرت في وضوح : "الواهمون فقط يعتقدون أن إسرائيل الكبرى مازالت ممكنة.. هذا فقط في خيال الواهين الذين لا يفهمون الحقيقة".

لقد أصاب أولمرت تعاماً.. إن خرافة إسرائيل الكبرى لا توجد إلا في أذهان الواهين.. بل إن التعاطف من نظرية "بولة إسرائيل" الصغرى يتآكل ويتراجع.. وهو ما أصاب الفكر السياسي الإسرائيلي بالإنفعال والإنفلات. لقد تجلّى هذا الإنفعال في التعامل الإسرائيلي مع الخطاب الشهير للرئيس الأمريكي باراك أوباما في جامعة القاهرة.

بلغ الإنزعاج مداه في إسرائيل.. ليس بسبب السياسة ولكن بسبب الفلسفة.. إنه الإنزعاج من الإطار النظري في خطاب أوباما.. حيث رأت إسرائيل في الخطاب إهانة لبني إسرائيل ولتاريخ اليهود ولأرض الميعاد والتعامل معها كأزمة سياسية فقط لا غير.

وكتبت صحيفة "جيروزاليم بوست" تقول: "إن أوباما تحدث عن المحرقة وحدها.. وتجاهل تاريخاً طويلاً من معاناة اليهود امتد ثلاثة آلاف عام. إن معنى كلام أوباما أن

أوروبا قد جاملت اليهود فأعطتهم أرض فلسطين تعويضاً لهم عن المحرقة.. إن أوباما يرتخ عند العرب أنه ليس لليهود وجوداً تاريخياً هنا، وأننا بولة أجنبية في المنطقة.. وأن - المحرقة النازية - هي السبب في وجودنا.. وليست أرض الميعاد هي السبب في قيام دولتنا

وقد جاءت تعليقات القراء ساخطة هي الأخرى.. "أوباما لا يريدنا.. ونحن لا نريده. حان وقت تغيير الحليف".. وكتب آخر "إن المكان الطبيعي لخطبة أوباما هو المجارى".. وكتب ثالث "هل يعتبر أوباما أن المحرقة هي كل الموضوع.. إذا كان الأمر كذلك.. فلتذهب المحرقة إلى الجحيم.. إن الموضوع ليس المحرقة بل أرض الميعاد".. وكتب رابع "إن أوباما تحدث عن الإسلام الذي لا يعرفه.. لقد ساوى أوباما ما بين أخلاقيات الغرب المتحضرة والمتسامحة وبين أخلاقيات الإسلام المتخلفة".. وكتب خامس "إن أوباما شبه المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل بالمقاومة التي قادها السود في أمريكا ضد البيض".. وكتب سادس "إن أوباما تحدث عن القدس باعتبارها مكان الإسراء والمعراج ولقاء الأنبياء.. أى أنها مدينة الجميع وليست مدينة اليهود".. وكتب سابع "لقد شاهدنا فيلماً بعنوان "البلهاء" بطولة أوباما حسين"

.. .

لقد زاد التعصب الإسرائيلي إزاء أفكار وسياسات الرئيس الأمريكى بارك أوباما عقب دعمه لتأسيس لوبى إسرائيلى آخر غير "الايباك".. وهو لوبى "جى - ستريت" الذى يتخذ مواقف أكثر مرونة واعتدالاً من "الايباك".

"الايباك" أقوى جماعة ضغط فى الولايات المتحدة، وهى جماعة ضغط ليكودية منطرفة تدفع السياسة الأمريكية إلى التطرف وراء إسرائيل. يعمل اللوبى الإسرائيلى "الايباك" فى العلن وفقاً للقوانين والتقاليد الأمريكية، ولا تزيد ميزانية "الايباك" عن (70) مليون دولار سنوياً ولكن حجم التأثير على السياسة الأمريكية بلا حدود.

وبلغت الدكتور "حازم الببلاوي" الانتباه إلى أنه من الضروري أن نتحاور مع "الإيباك" علانية وإخراجه إلى النور.. ومعرفة ماذا يريد بالضبط؟ هل يريد القضاء على الفلسطينيين؟ علينا مواجهته مباشرة. إنه لا جدوى من الحوار مع الحكومة الإسرائيلية أو الحكومة الأمريكية بون الحوار مع "الإيباك"، ذلك أن "الإيباك" هو قوة التنفيذ الحقيقية.. هو الذي يجبر الإدارة الأمريكية على القرارات المطلوبة لصالح إسرائيل.

ويرى عدد من الباحثين البارزين أن القيمة الإستراتيجية لإسرائيل قد تراجعت، وأن الحديث عن القيم المشتركة ومكافحة الإرهاب حديث عن مصالح غير حقيقية.. ولكن "الإيباك" هو الذي يبتقى على توهم هذه القيمة الإستراتيجية وهذه المصالح المشتركة.

• • •

على الضفة الأخرى من الأطلسي يوجد النفوذ الكبير للمجلس الأعلى لليهود في ألمانيا. وحسب البروفيسور "هاجن هورست" وهو أستاذ في جامعة برلين فإن "المجلس الأعلى لليهود" يتدخل في كل شئ تقريباً.. فقد حدث أن طلب المجلس طرد لاعب كرة قدم ألماني لأنه رفض أن يلعب في مباراة ودية مع المنتخب الإسرائيلي، كما حصل المجلس على حكم بالسجن ضد مواطن ألماني لأنه لم يمتنع بواقعة المحرقة.

ونجح المجلس في إقناع عدد كبير من الشباب الألماني بالذهاب إلى إسرائيل لمساعدة المعائن والأيتام تكفيراً عن الذنب. وفي برلين يقام أكبر متحف للهولوكوست في العالم.. ولا يزال هناك من يرى قبول تأسيس دولة يهودية ثانية في ألمانيا.

وفكرة الدولة اليهودية في ألمانيا تعود إلى ما بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، حيث انتقد صحفي ألماني يدعى "دودي بيسي" رفض ألمانيا تخصيص قطعة أرض لإنشاء دولة يهودية عقب الحرب العالمية الثانية. وكان "بيسي" يدعو لإقامة دولة يهودية في ألمانيا في الوقت الذي كان صحفياً آخر هو "ميثيل كابون" يدعو لإنشاء دولة يهودية في آلاسكا.

يعمل المجلس اليهودى فى ألمانيا فى المجال العام على نحو فعال.. لكن ضغوطه السياسية بشأن الصراع العربى الإسرائيلى ليست فى جنوح - الإيباك - كما أنها ليست فى قوته. وتظل السياسة الألمانية أكثر استقلالاً فى مواجهة الرؤى الحاكمة للمجلس.

غير أن الولايات المتحدة لا تزال أسيرة - الإيباك -.. ولكن مدى وعمق الأسر الإسرائيلى للقرار الأمريكى قد دفع بعض المثقفين الأمريكيين لإعادة النظر.. بل والسعى للتخلص التدريجى من العبء الإسرائيلى على المصالح الأمريكية.

• • •

يفتد "ستيفن وولت" من جامعة هارفارد و "جون مير شايمر" من جامعة شيكاغو فى دراستهما الأكاديمية الرصينة عن العلاقة الأمريكية الإسرائيلية.. تلك الفرضية السائدة حول تطابق المصالح بين واشنطن وتل أبيب.

ينهب المؤلفان إلى القول بأن استفادة الولايات المتحدة من إسرائيل قول خاطئ.. وينقلان عن.. "هارون براون" رجل السياسة البارز فى فترة "جيمى كارتر" قوله للمحضى المعروف "سيمور هيرش": يبدو لى أن الفكرة القائلة بأن إسرائيل تمثل ورقة إستراتيجية هى فكرة هوجاء تماماً".

ويقرر المؤلفان أن الدعم المسكرى الأمريكى لإسرائيل عام 1973م كان كارثياً على أمريكا.. فقد كلف واشنطن الكثير بعد صدور قرار حظر تصدير النفط. وهو ما ألحق أضراراً إقتصادية بالغة.. ثم إن قوة إسرائيل لم تستطع حماية المصالح الأمريكية حين قامت الثورة الإيرانية عام 1979م.. حيث لم يكن فى وسع الولايات المتحدة الاعتماد على إسرائيل، فاست - قوة الإنتشار السريع - الخاصة بواشنطن.

وفى حرب تحرير الكويت عام 1991، كانت إسرائيل عبئاً على السياسة الأمريكية.. لم تستطع الولايات المتحدة استخدام القواعد العسكرية الإسرائيلية خلال الحرب خشية انهيار التحالف.. بل كانت إحدى المهام الأساسية للسياسة العسكرية

الأمريكية هو الضغط على إسرائيل لكي لا تدخل الحرب إلى جانب الولايات المتحدة!  
وحتى بعد أحداث 11 سبتمبر، أصبحت إسرائيل عبئاً على الحرب ضد الإرهاب،  
وحتى المنظمات التي تهدد أمن إسرائيل مثل حزب الله وحماس.. لا تهدد الأمن الأمريكي..  
ولم تقم بأى سلوك معادى للولايات المتحدة إلا حين تدخلت واشنطن في لبنان عام 1982م.  
ثم إنه - بحسب الكاتبين - لا يوجد عنف عشوائي فلسطيني.. بل هو عنف منظم وله  
منطق وهو دائماً ردّ على ما تفعله إسرائيل.

وعلى الرغم من هذا العبء الإستراتيجي، فإن واشنطن استخدمت حق الفيتو لصالح  
إسرائيل بعدد يفوق العدد الإجمالي للمرات التي استخدم فيها أعضاء مجلس الأمن الآخرون  
حق الفيتو.

وتعرقل الولايات المتحدة وضع السلاح النووي الإسرائيلي على جدول أعمال الوكالة  
الدولية للطاقة الذرية.. وفي مفاوضات كامب ديفيد بين الإسرائيليين والفلسطينيين عام  
2000م.. قال أحد المشاركين الأمريكيين في المفاوضات: "لقد كنّا في الأعم الأغلب من  
الحالات نقوم بدور المحامي عن إسرائيل!"

وفي عام 2011م، هددت واشنطن منظمة اليونسكو بالمعاقب المالي بسبب قبول دولة  
فلسطين عضواً في المنظمة الدولية.

وإذا أضيف لذلك جانب المساعدات المالية.. حيث منحت واشنطن إسرائيل مساعدات  
لامثيل لها.. فإن عبء إسرائيل الإقتصادي يضاف للعبء السياسي والإستراتيجي.

• • •

يحدّد " ستيفن وولت " و " جون ميرشايمر " حجم المساعدات التي تلقتها إسرائيل  
من الولايات المتحدة ما بين عامي (1973 و 2003م) بنحو (140) مليار دولار.. أي أن  
إسرائيل قد حصلت على هذا الحجم الأسطوري من المعونات في ثلاثين عاماً فقط!

وتتلقى إسرائيل سنوياً ثلاثة مليارات دولار مساعدات أمريكية مباشرة، الأمر الذي

يعنى أن الولايات المتحدة تقدم لكل "إسرائيلي" عوناً مباشراً قدره (500 دولار) سنوياً

لقد طرح "إيلان بابي" السؤال الأكثر جرأة.. "إن ميزان القوى العسكرية حالياً لصالح إسرائيل.. لكن هل يمكن أن يتغير في أى لحظة.. إذا ما قررت أمريكا سحب دعمها لإسرائيل؟"

ويمضى الكاتب الأمريكي "توماس فريدمان" قائلاً: "لقد واكب الربيع العربي في 2011 انهيار أركان الأمن الإسرائيلي: السلام مع مصر، والاستقرار مع سوريا، والصداقة مع تركيا..". إن طرد السفيرين الإسرائيليين في القاهرة وأنقرة وإخلاء السفارة الإسرائيلية في عمان يعنى انهيار جهد سنوات طويلة من العمل على الاندماج كجارية مقبولة في المنطقة تلفظ من داخلها بولة اليهود.. ثم يصل "توماس فريدمان" للقول: "إن إسرائيل تمارس سياسات تتناقض مع مصالحها هي ومع مصالح الولايات المتحدة.. إن إسرائيل لا توفر لأوباما أى وسيلة للدفاع عنها.. هي أمام خيارين الاعتدال أو العدا مع الجميع.. والا تدهورت عزلة إسرائيل أكثر من ذلك و أخذت معها الولايات المتحدة".

• • •

لقد هبطت إسرائيل في عام 1973م ثم واصلت الهبوط بعد عام 1977م.. ثم وصل الهبوط مدى جديداً في حرب عام 2008م.. ثم تواصل مع موجة الربيع العربي في عام 2011م.. فقدت إسرائيل بريق الدعاية، واستنفذت حملة العلاقات العامة طاقتها في الترويج والتسويق.. لم تعد إسرائيل كما كانت في عام 1967م.



**المؤرخون الجدد..  
الإنحراف جهة اليمين**



استمرت حركة المؤرخين الجدد في إسرائيل في العمل.. وخرجت عناوين عديدة في العقد الأول من القرن الحادى والعشرين. وكان أبرز الذين وصلوا الإنتاج الفكرى من بين المؤرخين الجدد : توم سيجيف وآفى شلايم وبينى موريس وإيلان بابى.

درس "توم سيجيف" التاريخ والعلوم السياسية في الجامعة العبرية.. حصل على الدكتوراة من جامعة بوسطن وعمل أستاذاً زائراً في جامعة كاليفورنيا بيركلى.

ويثلى "توم سيجيف" درس "بينى موريس" التاريخ فى الجامعة العبرية.. حصل على الدكتوراة من جامعة كامبريدج وعمل أستاذاً فى جامعة ميريلاند الأمريكية.. أما "آفى شلايم" فقد درس التاريخ فى جامعة كامبريدج، والعلاقات الدولية فى مدرسة لندن للإقتصاد والعلوم السياسية، وحصل على الدكتوراة من جامعة ريدنج البريطانية.. ووصفته مجلة "The Nation" بأنه من أكثر المؤرخين الجدد تعمقاً فى إسرائيل.

يبقى "إيلان بابى" الذى حصل على الدكتوراة فى التاريخ من جامعة أكسفورد. قاد فى عام 2005 حملة لمقاطعة إسرائيل أكاديمياً من الخارج.. وأطلق "المؤتمر الإسرائيلى لحق العودة" والذى يدعم حق عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين تم تهجيرهم عام 1948، وفى عام 2007 غادر "إيلان بابى" جامعة حيفا قائلاً أن ذلك لصعوبة العيش فى إسرائيل، وفى عام 2006 ألف كتابه "التطهير العرقى للفلسطينيين".. وهو الكتاب الذى اعتمد فيه على إثباتات من وقائع الأرشيف الرسمى الإسرائيلى تثبت التخطيط المسبق لعملية التطهير وكيفية تنفيذها.

• • •

فاجأ "توم سيجيف" الأوساط الأكاديمية فى إسرائيل بكتابه الذى أصدره فى مناسبة مرور (40) سنة على حرب 1967 وعنوانه "1967 إسرائيل.. الحرب.. العام الذى حوّل الشرق الأوسط".

إن مفاجأة "سيجيف" تكمن فى التقليل من قيمة الانتصار الإسرائيلى فى حرب

1967.. بل إنه يذهب إلى أن إسرائيل التي حققت انتصاراً مذهلاً من الناحية العسكرية في حرب 1967.. قد أفلتت مشروعها السياسي على مدى (40) عاماً.. "إن الانتصار العسكري لا يعنى بالضرورة خطوة تجاه الحل السياسي.. الحرب لم تكن لها أى فائدة من وجهة نظرى"

وتمتد رؤية "سيجيف" المحبطة من 1967 إلى ربيع 2011. يصف "سيجيف" قادة إسرائيل الحاليين بأنهم ليسوا سوى مجموعة من الموظفين محترفي السياسة.. لكنهم ليسوا قادة.. أداؤهم السياسي لا يعبر عن شئ.. فقط العجرفة والغرور.

ويمضى "سيجيف" فى حديث إلى مجلة "دير شبيجل".." منذ قيام إسرائيل ونحن نعتقد أننا أفضل من العرب.. لكننا الآن مفاجئون بصورة أخرى.. إنهم يفكرون الآن فى الديمقراطية بجدية، لهذا لم نعد نستطيع التباهى بأننا الدولة الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة.." "الخيف أننا نجد الديمقراطية تتجه نحوهم وتنسحب من دولتنا.. فوزير خارجية إسرائيل ينتمى لحزب كأحزاب اليمين المتطرف فى أوروبا. وهذا بالطبع يعنى أن الديمقراطية فى إسرائيل حالياً تتعرض لخطر داهم.. وهذا فى نظرى أخطر من أى تهديد خارجى يمكن أن يلحق بنا".

• • •

لقد فاقمت حرب 2008 التى شنتها إسرائيل على قطاع غزة من إحساس بعض المؤرخين الجدد بهبوط إسرائيل.

وزهب "آفى شلايم" إلى أن تدمير غزة أمر مخطط له منذ (40) سنة.. تكديس عدد كبير من الناس فى مساحة صغيرة من الأرض.. حيث لا موارد ولا بنية تحتية تسمح بقيام مجتمع متفسخ لكى تظل التبعية الكاملة لإسرائيل.. ثم قامت إسرائيل ومعها أمريكا والأمم المتحدة بفرض الحصار وقطع المساعدات.. وهذا أبشع صور الاحتلال.

وفى مقال له فى صحيفة "الجارديان" البريطانية مطلع العام 2009 بعنوان "كيف

دفعت إسرائيل بغزة إلى حافة كارثة إنسانية "

يقول "آفي شلايم" : " أنا نفس الشخص الذى التحق بالجيش الإسرائيلى فى منتصف الستينات.. ولم أتشكك يوماً فى شرعية وجود الدولة الإسرائيلىة. لكن بعد هذا العدوان الوحشى على غزة.. أنا لم أتغير.. لكن دولتى هى التى تغيرت.. ولأكون أكثر دقة.. إن دولتى هى التى توحشت"

فى نوفمبر عام 2010، صدر كتاب مهم للمؤرخ الإسرائيلى "إيلان بابى" والفكر الأمريكى "نعوم تشومسكى".. الكتاب بعنوان "غزة فى أزمة.. تأملات فى الحرب الإسرائيلىة على الفلسطينين" وهو من تحرير الصحفى البريطانى "فرانك بارت".

كان "آفي شلايم" واضحاً فى إدانة إسرائيل.. وقد تجاوز فى إدانته وقائع الحرب المأساوية على غزة فى عام 2008 إلى إدانته السياسية العامة لإسرائيل باعتبارها سياسة عنصرية.

يقول "آفي شلايم" : " إن سمات الفصل العنصرى واضحة فى السياسة الإسرائيلىة تجاه الأقلية الفلسطينىة ومحاولة إنهاء الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا يمكن أن تكون مصدراً للإلهام السياسى فى مناهضة إسرائيل. يمكن للفلسطينيين الاستفادة من خبرة العالم الخارجى من أجل محاربة التمييز داخل إسرائيل".

توسع "آفي شلايم" فى مساحة نقده للنظام الإسرائيلى إلى توجيه انتقاده للنظام الأمريكى.. وفى حديث لوكالة الأنباء الفرنسية فى منتصف ديسمبر 2010 قال "آفي شلايم" : " إننى لا أرى فى نتنياهو إلا شخصاً متعنتاً.. إن أوياما هو الآخر بدأ يفقد صداقيته.. ومن الغريب أن يلتقى ثلاث مرات وجهاً لوجه مع نتنياهو ويفشل فى اقناعه بتجميد الاستيطان فى المرات الثلاث".

\*\*\*

إن نظرة واحدة إلى وجه نتنياهو تستدعى على الفور ما قاله الرئيس الكوبى السابق

"فيدل كاسترو" عن الرئيس بوش الابن : "كل ما أخشاه.. أن يكون هذا الرجل بالفباء الذى يبدو عليه" ١

كلما تحدث العالم إلى نتنهاهو عن "فلسطين" يتحدث عن "حماس" ويسأل: كيف يمكن التفاوض مع حركة لا تعترف بإسرائيل ؟

• • •

لقد سأل "فرانك بارت" هذا السؤال لإيلان بابى وكان جواب "بابى": " إن السلام يُصنع بين الأعداء وليس الأصدقاء.. إن منظمة التحرير الفلسطينية دخلت المفاوضات مع إسرائيل دون تغيير ميثاقها والذى ينطوى على نفس رؤية حماس. ماينبضى البحث عنه.. كيف يمكن أن نعيش معاً؟"

• • •

لكن هذه الرؤية المنفتحة ليست وحدها فى ساحة المؤرخين الجدد.. ثمة رؤية عنصرية يمثلها قطاع كبير داخل الحركة.. بينى موريس واحد من هؤلاء. لا يمثل "بينى موريس" قيمة فكرية رفيعة.. فهو رجل محدود ولكنه كثير الصراخ.. ترك اليسار وتحرك إلى أقصى اليمين.. ولم يقدم شيئاً ثميناً فى الجانبين.. ويقتل المحللون من قيمة مؤلفاته.

فى عام 2008، أصدر "بينى موريس" كتابه -1948.. تاريخ أول حرب بين العرب وإسرائيل.. وهو كتاب باهت لم يقدم جديداً، وكان "بينى موريس" قد ألف الكتاب ليُقال عنه أنه لا يزال قادراً على التأليف!

وفى عام 2009، جاء كتابه العنصرى "دولة واحدة.. دولتان" وهو كتاب ركيك فكرياً وأخلاقياً.. أخطأ طريقه من سلة المهملات إلى أرفف المكتبات. يمتلأ هذا الكتاب بكم هائل من المقولات العنصرية الرخيصة.. "من المستحيل قيام دولة إسرائيل النقية بدون طرد العرب وراء الخط الأخضر".." إن العرب والمسلمون برابرة".." إن حياة الفرد تحت ظلال الإسلام ليست ذات قيمة على الإطلاق".

لقد جرّت هذه المقولات البغيضة على "بيني موريس" غضب الطلاب المسلمين في أوروبا.. حيث قامت حملة من مسلمي أوروبا تتهمه بالفاشية والعنصرية ومعاداة الإسلام. وقد احتج الطلاب على حضوره عدداً من المحاضرات العامة.

ويروي "بيني موريس" لصحيفة "جيروزاليم بوست" في يونيو 2011 عن واقعة من وقائع الاحتجاج الإسلامي على نشاطاته في أوروبا.. يقول: "ذهبت لإلقاء محاضرة في مدرسة لندن للإقتصاد والعلوم السياسية.. تجمّع حول العديد من المسلمين واتهموني بالفاشية والعنصرية ومعاداة الإسلام.. إنه مشهد يشبه مجموعة من النازيين يتحلّقون حول يهودى في أحد شوارع برلين من أجل التخويف والترويح. إننى قلق من تزايد أعداد المسلمين في الغرب وصعود نفوذهم.. وقدراتهم على ترويح كل من يختلف معهم في الرأى.. إن تزايد أعداد المسلمين يضعف حرية التعبير".

وهكذا فإن "بيني موريس" يعتبر وصف المسلمين بالبرابرة ووصف حياة الفرد المسلم بأنها بلا قيعة.. هو نوع من حرية التعبير.. كما أنه يعتبر دعوته العنصرية لإلغاء كل العرب في إسرائيل وإعلان الدولة العبرية دولة يهودية نقية بعد إزاحة أكثر من مليون عربى.. هو نوع من حرية الرأى.

• • •

إن نتاج المؤرخين الجدد في إسرائيل طيلة العقد الأخير يقع إجمالاً تحت عنوان كبير هو "الإحباط" .. إنه الإحباط من التردى الأخلاقى للدولة العبرية إزاء ممارستها للسياسات العنصرية وعمليات التطهير العرقى، وهو إحباط من الصعود الإسلامى فى أوروبا والعالم، ويصل الإحباط مداه فى خلق شعور عدى باللامعنى واللاجدوى.. |

إن كل الصعود فى الماضى لم يؤدِ إلى شئ.. بل إن الانتصار الإسرائيلى الكبير فى حرب 1967.. كان هزيمة سياسية حيث لم يتجاوز الانتصار معارك السلاح.. أما معالم الإنكسار فقد أحاطت بمجمل المشروع الصهيونى.





**تكسير المحيط..**

**أصداء الحروب الصليبية**



قبل ألف عام كانت الحروب الصليبية على العالم العربي.. كانت حروباً استعمارية لكنها أعلنت نفسها حروباً دينية ووضعت الصليب فوق أطماعها.

حين استقرت الحملات الاستعمارية "الصليبية" في سواحل الشام.. دارت معارك المائة عام بين العرب والغرب.. حتى انهزم الصليبيون في عهد القائد الأشهر صلاح الدين الأيوبي.

إن إسرائيل تضع حرب المائة عام أمام أعينها باستمرار.. ويذكر الكاتب اللبناني "محمد السماك" أن إسرائيل حين نشأت قامت على الفور بتأسيس "مركز دراسات الحروب الصليبية" لتفادي ما حدث قبل ألف عام!

رأت إسرائيل أن صلاح الدين قد نجح حين حقق الوحدة بين مصر وبلاد الشام وكانت نقطة الوصل هي منطقة "العقبة" على البحر الأحمر.. لذلك ضغطت إسرائيل بقوة في اتفاقية الهدنة في رودس عام 1949 من أجل احتلال منفذ على البحر الأحمر يقطع الطريق بين مصر وبين الامتداد العربي.

وجدت إسرائيل أيضاً أن الصليبيين يعتمدون كلياً على الدعم الخارجي.. فقررت بناء قوة عسكرية ذاتية.. تطورت باستمرار حتى امتلكت السلاح النووي.. رؤوساً وصواريخ.

ولما كان توحيد صلاح الدين للإمارات العربية المتنازعة في الشام بداية سقوط الغرب المحتل (الفرنجة)، عملت إسرائيل على منع أي تفاهم عربي وسعت إلى تقسيم المنطقة إلى دويلات وطوائف ومذاهب.

ومن أجل.. توحيد إسرائيل وعدم توحيد المحيط العربي، ذهبت تعتمد إسرائيل مبدأ الحرب الهجومية.. إنها لا تنتظر أبداً.

وتاريخها هو سلسلة حروب هجومية من حرب 1967 إلى حرب لبنان عام 2006

إلى حرب غزة عام 2008.. مروراً بغزو لبنان وضرب المفاعل النووى العراقى ثم المفاعل النووى السورى.

•••

إن إسرائيل تستخدم العنف إلى آخر المدى بون أى التزام قانونى أو أخلاقى.. وفى حرب غزة عام 2008، استخدم الجيش الإسرائيلى القنابل الفسفورية الممنوعة بولياً.. وقال الأطباء: "إن جثث القتلى تأتى محترقة.. حتى عظام القتلى تحترق".. ويلتهب الفسفور الأبيض بمجرد تعرضه للأوكسجين.. حيث يشتعل ويتأكسد بمجرد ملامسة الهواء.. فيتولد لهب أصفر ينتج عنه دخان أبيض كثيف.

جاء تقرير صحيفة "التايمز" البريطانية بدلائل عديدة لاستخدام إسرائيل الفسفور الأبيض. وقالت صحيفة "الاندبندنت" إنها قنابل "الداين" وهى قنابل معبأه بمسحوق كيميائى تودى إلى شظايا تدخل الأنسجة وتدمرها.

وحسب طبيب نرويجى استقبل مئات الحالات: "لقد عملت ثلاثين سنة لم أجد فى حياتى هذه الإصابات.. إن الفسفور الأبيض يحرق جسم الإنسان ولحمه ولا يبقى منه إلا العظم فى أفضل الحالات".

ويمثل استخدام هذه القنابل "جريمة حرب" طبقاً لاتفاقيات جنيف. جاء تقرير صحيفة "لوموند" الفرنسية أكثر خطورة.. قالت "لوموند": "إن الأسلحة المستخدمة ليست قنابل فسفورية ولا عنقودية.. بل هى نوع جديد من الأسلحة يصعب معرفته.. فى مدى (8) متر تقطع الأيدى والأرجل والرأس وتحرقها تماماً بما فيها العظام، وفى مدى (2) متر تقطع الجسم إلى جزأين.. وهذه القنابل معروفة داخل الجيش الأمريكى فقط"

•••

امتدت جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين من "جرائم الحرب" إلى "جرائم التاريخ".. فقد سرقت إسرائيل ما بقى من التاريخ الفلسطينى والعالم الإسلامى الكبرى.. حيث وضعت إسرائيل "حائط البراق" ضمن المقدسات اليهودية!

وحين أصدرت السلطة الفلسطينية تقريراً رسمياً يؤكد أن حائط البراق ليس يهودياً ولا صلة له باليهودية، قام ننتياهو بالهجوم على التقرير وقال: "إن حائط البراق هو حائط يهودى تماماً.. وأنه يعود لمجمع معابد يهودية تم تدميرها منذ قرون"!

إن حائط البراق هو المكون الثالث فى الحرم القدسى الشريف.. يضم الحرم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وحائط البراق.

قامت إسرائيل بضم حائط البراق.. ومنذ احتلالها للحرم فى عام 1967، تطلق إسرائيل على "الحرم القدسى" اسم "جبل الهيكل"!

إلى جانب ذلك.. اعتاد الفلسطينيون على جرائم منتظمة بشأن حرق المساجد.. ورسم نجمة داوود اليهودية على المنابر!

• • •

إن ما يدعو للذهول فى هذا السياق هو ابتكار الأفكار فى شأن التضييق على أشخاص المسلمين.. من منع شباب الصلین من دخول المسجد الأقصى إلى تدريب كلاب الحراسة على مهاجمة كل من يقول "الله أكبر".

وهو ما دعا النائب العربى فى الكنيست "أحمد الطيبى" لتقديم استجواب لوزير الدفاع الإسرائيلى حول قيام الجيش بتدريب وحدة كلاب للهجوم على أى شخص ينطق كلمة "الله أكبر".. وروى الطيبى أن أحد الأشخاص فى إحدى الحفلات صاح مبتهجاً "الله أكبر" فانقضت عليه الكلاب!

وتساءل الطيبى: ماذا لو مرّت الكلاب إلى جوار مسجد أو أناس يقيمون الصلاة؟!

• • •

إن جرائم إسرائيل تمتد إلى غير حدود.. هى تصل إلى المياه الجوفية تحت الأرض وتمتد إلى المياه السطحية فى عرض البحر.

ويذكر تقرير المجلس العربى للمياه أن إسرائيل تسرق (85%) من مياه الأراضى

الفلسطينية.. إنها تحب المياه الجوفية وتمنحها للمستوطنين.. ثم تلقى بـ (40) مليون متر من الصرف الصحي إلى وديان الضفة وسهولها!

وبدورها فإن مياه الصرف الصحي الإسرائيلية وبقايا القنابل الفسفورية تتسرب إلى المياه الجوفية التي يستهلكها الفلسطينيون.. وتمنع إسرائيل تقديم أى مساعدات فى تنظيف أو تدوير مياه الصرف الصحي وترفض إقامة أى محطات للمعالجة. وقد جاء مسار الجدار العازل فى الضفة الغربية ليضع أكبر خزانين للمياه فى الضفة الغربية وراء الجدار خارج الضفة!

وفى الوقت الذى قامت فيه إسرائيل بتلويث البيئة البحرية لقطاع غزة، وهو ما أدى إلى ضعف الثروة السمكية فى شواطئ القطاع.. تقوم إسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة بالبحث عن البترول قبالة تلك الشواطئ.

لدى الإسرائيليين قناعة دينية بوجود البترول وقرب اكتشافه واستغلاله.. ويقول الأصوليون اليهود: إن إسرائيل المعروفة بأرضى اللبن والعسل.. ستصبح أرض اللبن والعسل والبترول.. فقد جاء فى التوراة أن "أبناء يوسف سيجدون الزيت".. والزيت هو البترول.. ويقول رجال الأعمال الإسرائيليون أن السبب الرئيسى فى قيامهم بالتنقيب عن البترول هو إيمانهم الكامل بالتوراة وبأن إسرائيل ستكون "مملكة البترول الجديدة" ولذلك تم إطلاق اسم "يوسف" على منصة التنقيب!

• • •

إن إسرائيل التى درست الحروب الصليبية وبدأت السياسات التى تجعل منها قوة عسكرية غير أخلاقية.. وقوة جامعة لا فيها ومانعة لاجتماع ما حولها.. تجد فى مصر العدو الأكبر الذى يمكنه أن يربك المعادلة كما أربكها قبل ألف عام حين قاد معارك إنهاء الوجود الصليبي فى المنطقة.

وعلى الرغم من أن سياسات الرئيس المصري السابق حسنى مبارك لم تمثل أى تهديد لإسرائيل.. بل مثلت تهديداً حقيقياً لدور ومكانة الدولة المصرية.. غير أن إسرائيل عملت باستمرار من أجل مصر أكثر ضعفاً.. من الوضع الضعيف الذى حققه مبارك.

وفى تحقيق مثير لصحيفة "الكرامة" المصرية تم عرض المحاولات المستمرة لإسرائيل من أجل تهويد عدد من سكان سيوة.. تلك الواحة الواقعة على بعد (800) كم من القاهرة والأكثر جمالاً فى العالم.

يرى الإسرائيليون أنه يمكن تكرار تجربة "الفلاشا" فى إثيوبيا و"الابجو" فى نيجيريا.. أى تجربة "تهويد من هم ليسوا بيهود".. ويمكن أن يكون سكان سيوة "الفلاشا" المصريين الجدد!.. ويقول الدكتور "إبراهيم نصر الدين" الخبير فى الشئون الأفريقية أن إسرائيل تدخل إلى سيوة من باب التفرقة بين أهل سيوة الشرقيين على اعتبار أنهم أفارقة، وأهل سيوة الغربيين على اعتبار أنهم "أوربيين".. وتقول إسرائيل أن أهل سيوة يشبهوننا.. شرقيون وغربيون فى سيوة وسفارديم وأشكيناز فى إسرائيل!

ثمة ضغوط على الجهة الشمالية الشرقية فى سيناء.. وقد تكرر إعلان إسرائيل إنشاء مفاعل نووى على الحدود مع مصر.. فى صيف 2007، أعلن وزير الطاقة الإسرائيلى "بنيامين بن اليعازر" عزم تل أبيب إنشاء مفاعل نووى على الحدود مع مصر.. ليكون هذا المفاعل بديلاً لمفاعل ديمونة الذى انتهى عمره الافتراضى.. على أن يكون المفاعل بقوة (1500) ميغاوات.

وقد أعادت الباحثة السويدية "إيان أنجونى" لفت الانتباه إلى المفاعل الإسرائيلى المحتمل ومخاطره.. وتساءل الدكتور "عصمت زين الدين" رئيس قسم الطاقة النووية السابق فى كلية الهندسة جامعة الإسكندرية عن مكان دفن النفايات النووية للمفاعل الجديد.

• • •

ترى إسرائيل فى سيناء منطقة فراغ.. وحدث تفكير متواصل بأن تكون وطناً بديلاً

للفلسطينيين.. وأشاعت إسرائيل عن أهل سيناء مثلما أشاعت على أهل سيوة.. ويقول الكاتب "محمد حسنين هيكل" أن هناك تقرير أمريكي يزعم أن سيناء ليست مصرية وأن بعض الساسة الأمريكيان فكروا في حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بتوطينهم في شمال العراق.. لكن هذه الفكرة تغيرت بعد الغزو الأمريكي للعراق. ويحذر "هيكل" من أن يعتبر البعض سيناء "أرض فراغ" قد تمتلئ بشئ آخر.. ويقول: "إذا تم فصل سيناء عن مصر.. تتحول مصر إلى دولة أفريقية محدودة"

ومن سيوة إلى سيناء ثم إلى أسوان.. حيث محاولات الوجود الإسرائيلي في ملف النوبة.. وعبر التلميحات المتكررة بإمكانية قيام إسرائيل بضرب السد العالي.. ولقد جاء ذلك التهديد ذات يوم على لسان وزير الخارجية الإسرائيلي "افيجدور ليبيرمان" حين هدد بضرب السد العالي بالقنابل النووية وإعادة مصر إلى القرون الوسطى!

• • •

تحاول إسرائيل منع مسار الحروب الصليبية.. بابتكار جرائم حروب وجرائم تاريخ وجغرافيا.. تحاول منع احتمالات سيئة لإسرائيل بخلق كافة الأوضاع السيئة للجميع.



**الفاشية الصهيونية..**

**تهديد الغرب**



باتت الصهيونية أيديولوجياً مخيفة.. وباتت قمعها للرأى الآخر بلا حدود. إن كل القضايا مجال للنقاش والإختلاف لكن الهجوم على إسرائيل أو المتطرفين اليهود.. ليس مجالاً للرأى والحوار.

قصص عديدة تتوالى عن القسوة التى تلحق بالواقفين فى الجانب الآخر إذا ما قرروا الإفصاح والتعبير.

واحدة من القصص تتعلق بمذيع شبكة CNN "ريك سانشيز".. استضاف "سانشيز" القس المتطرف "تيرى جونز" فى مواجهة تليفزيونية حول فكرة "جونز" بحرق القرآن الكريم.. وصف "سانشيز" فكرة حرق القرآن بأنها "مجنونة" قام المذيع الساخر "جون ستوارت" وهو مذيع أمريكى يهودى بالسخرية من "ريك سانشيز".

اغتاض "سانشيز" من طريقة "جون ستوارت" وحين استضافته محطة إذاعية أمريكية قام "سانشيز" بنقد "جون ستوارت" وقال: "إن اليهود المتعصبون أمثال جون ستوارت المتطرف.. يتحكمون فى الإعلام الأمريكى كله.. حتى شبكة CNN التى أعمل فيها منذ سنوات يعمل فيها موظفون متطرفون مثل جون ستوارت".

كانت المفاجأة.. أن جون ستوارت لم يرد.. واليهود المتهمون بالتعصب لم يناقشوا.. ما حدث كان شيئاً واحداً.. قامت شبكة CNN بفصل "سانشيز" من العمل!

اعتذر "سانشيز" فى عشرات البرامج عما قال.. اعتذر عن أقواله وآرائه، ولكن لم يتم قبولها. كان "سانشيز" لديه عروض تفاوض مع شبكتى FOX و NBC.. رفضت الشبكتان قبوله وأوقفت التفاوض.

وكان لدى "سانشيز" كتاب بعنوان "حماقة مالوفة" جرى الترويج له قبيل التصريحات، تم التضييق على الكتاب وإزاء الحملة على سانشيز فثل الكتاب تماماً..

وانتهى سانشهز معلقاً رياضياً فى دورى الجامعات.

إن "ريك سانشهز" ليس المثقف المتميز أو الإعلامى نو المكانة الرصينة .. فهو كثير الأخطاء ومتعدد الأزمات.. لكن أزمته مع الرئيس أوباما انتهت فى هدوء.. هاجم أوباما بشكل غير لائق ثم اعتذر وانتهى الأمر لكنه حين هاجم النفوذ الإعلامى لليهود فى الولايات المتحدة تم إلقاء مستقبلة المهنى تماماً.. ولم يشفع له ذلك الكم الهائل من الاعتذارات.

• • •

إن "هيلين توماس" هى الأخرى قصة مثيرة.. هيلين هى واحدة من أشهر الأسماء الصحفية فى الولايات المتحدة، وهى تلقب بمميدة الصحافة الأمريكية.. حيث عملت هيلين مراسلة لوكالة "يوناييتدبرس" ستين عاماً.. ولها مقعد دائم فى الصف الأول لأى مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض.. تحدثت هيلين توماس عن السياسات الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطينى واستنكرت: "كيف يكون لنا علاقة قوية بدولة قاتلة.. كيف تقول إنك تأسف.. هل الأسف يعيد الموتى؟" .. ثم ذهبت هيلين بعيداً وقالت: "إن حل الصراع فى الشرق الأوسط سهل وبسيط. ويتمثل فى عودة اليهود إلى ديارهم التى جاءوا منها فى بولندا وألمانيا، وعلينا أن نتذكر دوماً أنهم أشخاص محتلون" .. وحين سألتها أحد الصحفيين عما إذا كانت تقصد ذلك بالضبط قالت: "نعم.. قل لهم.. يخرجوا من فلسطين" ثم عقبته: "أنا أعرف أن كلامى هذا يعنى استقالتي وخروجي من البيت الأبيض..".

تم بث حديث "هيلين توماس" على موقع "يوتيوب" وفى اليوم الأول فقط وصل عدد مشاهديه أكثر من مليون وربع المليون شخص..

لقد ذهبت هيلين - كما تحدثنا - بعيداً، وهى مسافة أبعد كثيراً مما تراه الجامعة العربية من وجود دولتين فى فلسطين أو ما تراه بعض الأطروحات العربية من وجود دولة واحدة لكل مواطنيها العرب واليهود معاً. وعلى حين يتفق العرب على ضرورة عودة

اللاجئين الفلسطينيين غير أنه لا توجد أية قوى مؤثرة تطالب بإخلاء فلسطين من اليهود أوعودتهم إلى ديارهم.

إن هيلين التي ذهبت بعيداً.. كانت متأثرة بآلاف القتلى والجرحى في الحرب على غزة عام 2008 وبمجمل الإعتداءات الإسرائيلية على فلسطين.

على أن ردّ الفعل على تصريحات "هيلين" كان عاصفاً وبلا توقّف.. ألغت شركة العلاقات العامة تعاقدتها المالي الكبير مع هيلين، وتم نزع بطاقتها الصحفية، وجرى طردها من جمعية المراسلين. وكانت هيلين قد حصلت على جائزة صحفية مهمة.. تم الضغط على الهيئة المانحة لإصدار قرار بسحب الجائزة.

وأما الكتاب المشترك الذي أصدرته هيلين مع كاتب أمريكي آخر عن الرئاسة الأمريكية وعنوانه "ماذا تريد أن يقول ويفعل رئيسك؟"، فقد توقف عن الصدور بعد اعتراض الكاتب المشارك وتقديمه طلباً بعدم إصدار طبعات أخرى من الكتاب.. وأما الرئيس الأمريكي باراك أوباما الذي امتدح هيلين كثيراً والتقط معها العديد من الصور الشهيرة.. فقد هاجم هيلين قائلاً: "من العار أن أحداً بهذا التاريخ المشرف ينتهي كذلك!"

إن "هيلين" التي ذهبت بعيداً واجهتها قرارات أبعد وأبعد.. وبدلاً من أن ينهال سيل من الرد والنقد.. كان سيل من الاتهامات والعقوبات هو الحاضر والحاسم.

• • •

ثمة قصة ثالثة مثيرة هي منع الفكر الأمريكي البارز "نعوم تشومسكي" من إلقاء محاضرة في جامعة بيرزيت الفلسطينية.

كان "تشومسكي" يزور الأردن.. وكان عليه أن يتجه من عمّان إلى الضفة الغربية في فلسطين من أجل إلقاء المحاضرة.. وصل تشومسكي إلى معبر الكرامة بين الأردن والضفة، لكن جنوداً إسرائيليين أوقفوه وحقنوا معه طويلاً وتركوه ينتظر ساعات على نحو مهين.. وبعد تلك الساعات الطوال أخبره جندي إسرائيلي أنه ممنوع من الدخول وأن عليه العودة إلى الأردن.

ولما سأل تشومسكي عن سبب صدور قرار إسرائيلى بمنع مفكر أمريكى من الدخول،  
أجاب الجندى الإسرائيلي فى ازدياء: سوف نرسل خطاباً إلى السفارة الأمريكية بشأن  
منعك من الدخول!

• • •

يروى "إيلان بابى" فى كتابه "خارج الإطار.. النضال من أجل حرية أكاديمية فى  
إسرائيل" قصصاً عديدة عن الصعوبات التى تعرض لها كأستاذ جامعى داخل إسرائيل.  
ويحكى تفاصيل صادمة عن حجم التضييق داخل الحقل الأكاديمى، ومحاولات العزل بسبب  
أفكاره ومؤلفاته فى علوم السياسة والتاريخ.

ويتحدث "شلومو ساند" عن تجربة معادلة من الحصار والتضييق. يعمل "شلومو  
ساند" أستاذاً فى جامعة تل أبيب وأصدر كتاباً مهماً بعنوان "اختلاق الشعب اليهودى" ..  
رأى "شلومو" فى كتابه أن إسرائيل أمة جرى اختراعها.. وأنها مجرد مشروع سياسى وبلد  
جديد. "٤

تعرض الكاتب بعد كتابه هذا إلى هجوم شديد، واتهمته الصحف الإسرائيلية بأنه  
يدعو للتحريض والفتنة، ووصف السياسيون كتابه بأنه يغذى "اللاسامية" المعادية لليهود..  
ولكن المثير هو المطالبة بوقفه عن العمل وإصدار قرار يفصله من جامعة تل أبيب!

• • •

وصل الحصار الصهيونى للحرية الأكاديمية مدى أبعد حين أسس الأكاديمى "دانيال  
بايبس" موقع "كامبس ووتش" الذى أصبح "الرقيب الأمنى" على حرية الفكر فى الجامعات  
الأمريكية. يقول "بايبس" فى مقال نشره فى شهر سبتمبر عام 2007: "إن المشروع هدفه  
الدراسة النقدية لدراسات الشرق الأوسط فى أمريكا وكندا والمعمل على تحسينها وتطويرها  
".

ولكن سرعان ما يفصح "بايبس" عن أغراضه السياسية غير العلمية.. يقول: "إن  
أقسام الشرق الأوسط فى الجامعات تضم أعداء أمريكا فقط ولا وجود لليميين.. إن اليسار

يسيطر على أقسام الشرق الأوسط منذ عشرين عاماً.. لذلك ينبغي أن يكون لنا - نحن اليمين - وجوداً قوياً في الجامعات..

إن "بايبس" وثيق الصلة بإسرائيل ويضع على جدران مكتبه شهادات من جامعات إسرائيلية.. إنه ليس موضوعياً ولا علمياً.. إنه غير معني بالعلم الأكاديمي ولا حرية الفكر في الجامعات.. ولكنه يريد أن يصبغ طرفه اليميني بادعاء الرأي ووجهة النظر.

لقد أصبح موقع "كامبس ووتش" الذي يديره "بايبس" عدواً قوياً لحرية البحث العلمي.. يقول البروفيسور "زاكاري لاكن" من جامعة كولومبيا.. إن "بايبس" يدير مع آخرين حملة منظمة تشجع طلاب الجامعة على كتابة تقارير الأساتذة.. إنه أسلوب شهدته الجامعات الأمريكية في الأربعينات والخمسينات ضد الشيوعيين.

ومن جامعة كولومبيا - أيضاً - يقول البروفيسور "جوزيف مسعد" إنه إزاء هذا الضغط والحصار الأكاديمي قرر التوقف عن تدريس مادة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي للطلاب.

لكن "بايبس" مضى في طريقه.. وزاد من الأهداف إلى أن وصل للمطالبة باصدار قوانين تضمن الولاء السياسي للجامعات تجاه الحكومة الفيدرالية.

وقد انضم الباحث الأمريكي "مارتن كريمر" إلى "بايبس" في المطالبة بصدور هذه القوانين وهو ما يعني سيطرة الدولة سياسياً على الحرية الأكاديمية في جامعات الولايات المتحدة. يعمل "كريمر" في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى وهو معهد قريب من إسرائيل.

• • •

لقد وصل جنوح "دانيال بايبس" الذي يصفه الكاتب "جهاد الخازن" بأنه داعية حرب ليكودي.. إلى التشكيك في معايير اختيار ملكة جمال الولايات المتحدة بعد أن تم اختيار "ريما فقية" ملكة لجمال أمريكا.

و " ربما فقية " هي أمريكية مسلمة من أصل لبناني فازت باللقب عام 2010.. وقد أطلق عليها اليمين المتطرف في الولايات المتحدة لقب "ملكة جمال حزب الله " ١  
وهكذا امتدت " الفاشية الصهيونية " من الإعلام إلى العلم.. ومن الصحافة إلى الجامعة.. ومن الإنتاج الفكري العربي إلى الإنتاج الفكري اليهودي.. وعبر التآكل البطيء لقيم الحرية.. باتت " الفاشية الصهيونية " تهدد روح الغرب.



**الإنحسار..**

**من دولة إسرائيل إلى دولة تل أبيب**



يصل عدد اليهود في العالم إلى (14) مليون يهودي، منهم (42%) داخل إسرائيل و(48%) خارج إسرائيل.

يزيد عدد اليهود في العالم بنسبة تتراوح من (صفر) إلى (نصف في المائة).. ونسبة الزيادة تكون في العادة بين يهود إسرائيل أما يهود العالم فهم في حالة تراجع نتيجة اندماج اليهود في الأديان الأخرى.

لكن المفرع بالنسبة للنخبة الإسرائيلية هو صعود أعداد اليهود المتدينين وتآكل أعداد اليهود العلمانيين.. غير ذلك ثمة أزمتان تواجهان اليهودية : تراجع أعداد اليهود في العالم على وجه العموم وتراجع أعداد اليهود العلمانيين على وجه الخصوص.

ويتوقع الباحث الديموغرافي الإسرائيلي "أرنون سوفير" في بحث أصدره من جامعة حيفا عام 2010 أن المجتمع اليهودي سوف ينقلب انقلاباً تاماً.. فالعرب في إسرائيل يزدون وكذلك الأصوليون.

يطارد اليهود المتدينون اليهود العلمانيين.. إنهم يلاحقون المجتمع العلماني باسم الدعوة، العودة إلى الدين، وكلما وجد يهودي متديناً يهودياً علمانياً بدأ بالنصح والإرشاد ودعوته إلى إطلاق لحيته وارتداء الملابس الشرعية اليهودية والعمل بما جاء في التوراة.

إن بعض اليهود يلجأون إلى الدعوة باللسان.. ولكن بعضهم يلجأ إلى تغيير العلمانية باليد.. حيث يسيطر المتدينون بالقوة على شارع "بارايان" الشهير في القدس.. ويمنعون السيارات من المرور بها.. والسيارة التي تتورط وتدخل بالخطأ يتم رجمها بالحجارة!

ويذكر "ثالوم بروشالي" في صحيفة "معاريف" أن المتدينين اليهود يقومون بتحدى الدولة.. ويهاجمون الشرطة ويوجهون لها الشكايم ويبصقون على وجه أفرادها. وهناك متدينون يتمنون الإعتقال وجرحهم نحو سيارة الشرطة من أجل إظهار البطولة أمام المتظاهرين.

ويجمل "شالوم بروشالي" المشهد العام يقول : "إن القدس تتجه من مدينة عصرية مفتوحة إلى مدينة مغلقة تتجه إلى الورا".

• • •

لقد وصل تراجع "الشكل العصري" لقل أبيب إلى التفكير في استخدام العنف العلماني ضد العنف الديني. وحدث أن رئيس بلدية القدس الأسبق "تيدى كوليك" تحدث عن استخدام سياسة الهد الفولاذية مع الأصوليين، وقال: "سنقف لهم.. إننا نعرف كيف نرد أيضاً".

ويعلق "شالوم بروشالي" على رؤية "كوليك" بأنها تدعو لمواجهة "البلطجة" بـ "البلطجة المضادة" وهنا حلّ فوضوي.. لكنة يلقى قبولاً في أوساط العلمانيين.

• • •

إننا كان حاضر إسرائيل غير جيد بسبب صعود التيار الديني.. فإن المستقبل يحمل لإسرائيل ما هو أسوأ.. ذلك أن الأجيال القادمة تتجه إلى الدين على نحو مخيف. إن الأطفال والتلاميذ يتجهون إلى جانب الدين أكثر مما يذهبون إلى جانب الدنيا. ويذكر البروفيسور "دان بن ديفيد" المختص في دراسة السياسات الاجتماعية.. أن الطلاب الذين يلتحقون بالتعليم الديني في ازدياد شديد.. إن الزيادة تنفر بتحول إسرائيل إلى مجتمع ديني لا يعمل.. ولا يتعلم العلوم الحديثة.. مما سيؤدي لانهايار الدولة خلال ثلاثة عقود.. إنهم لا يتعلمون الإنجليزية ولا الرياضيات ولا علوم العصر الحديث.. إنهم يتعلمون فقط القوارة والتلمود ويعتمدون في حياتهم على مخصصات التأمين الوطني والضمانات الاجتماعية.

إن ثلثي المتدينين لا يعملون نهائياً وكلهم لا يؤدي الخدمة العسكرية في الجيش. ويقول "دان ديفيد" في حسرة : "إن إسرائيل تحتل اليوم المكان الأخير في قائمة الدولة الغربية من ناحية نتائج الإمتحانات التي يتقدم لها تلاميذ المرحلة الإبتدائية في العلوم والفيزياء والرياضيات واللغات.. وبعد ثلاثين عاماً ومع الزيادة الكبيرة لأعداد التلاميذ المتدينين.. سوف تتردى إسرائيل أكثر وأكثر".

لقد دفعت هذه الاحتمالات المخيفة رئيس بلدية تل أبيب "رون خلدنى" لأن يصرخ في مؤتمر "التعليم في إسرائيل" محذراً من الخطر الدينى الداهم ومن انهيار جهاز التعليم الرسمى.. وقال "رون خلدنى" : "إن فى إسرائيل مجتمعين.. أولهما منتج والثانى مستهلك.. ويزداد المجتمع المستهلك عدداً.. وعلى الدولة أن تتدخل فالمجتمع الأول لا يستطيع أن يحمل المجتمع الثانى على كتفيه.. إلى الأبد!"

• • •

ثمة معضلة معقدة فى هذا السياق.. إن الأصولية اليهودية تتعاقد وتهدد بقاء إسرائيل.. ولكن العلمانية الإسرائيلية التى تواجه الأصوليين فى الداخل تستثمر الفكر الأصولى فى الخارج.

إن قادة إسرائيل العلمانيين لا يكثرثون بالتوراة ولا يؤمنون بالإنجيل.. فبالنسبة لهم كل ماجاء فى الإنجيل خطأ وكذب.. ونبى المسيحية يسوع ابن مريم ليس نبياً ولا رسولاً.. ولا أمه عذراء ولاهى امرأة فاضلة.. وبالنسبة لليهودية فإن المسيحية برمتها ليست ديناً والإنجيل ليس كتاباً مقدساً.

ومع ذلك نجح قادة إسرائيل فى عقد "صفقة كبرى" مع المسيحية.. قام اللوبى الصهيونى بدعم الإيمان البروتستانتى بضرورة قيام دولة إسرائيل وقوتها من أجل التعجيل بظهور السيد المسيح.. إن عودة المسيح بالنسبة للإيمان البروتستانتى ستكون بداية النهاية لليهود واليهودية.. ولكن المسيح لن يعود إلا إذا تجمع اليهود فى فلسطين وأقاموا إسرائيل.. هنا تنشأ معركة "هرمجدون" التى بموجبها ينتصر المسيح ومن معه وينهزم اليهود ومن معهم.

• • •

الصفقة إذن هكذا.. "تقف أمريكا المسيحية البروتستانتية مع اليهود من أجل إقامة إسرائيل - إن أمريكا تفعل ذلك لأنها تؤمن بأن إنشاء إسرائيل هو الطريق لمجئ المسيح - تعرف إسرائيل أن المسيح سيخوض المعركة ضد اليهود ويهزمهم - لا مانع فى ذلك.. فقط

على أمريكا أن تقف مع إسرائيل الآن.. وتترك الباقي للسيد المسيح حين يجئ - النتيجة  
إن.. يجب على أمريكا أن تقف مع إسرائيل تماماً وبلا تردد في جميع الأزمات السابقة  
لظهور يسوع المسيح

إنها صفقة مذهلة.. صفقة تأسيس "المسيحية الصهيونية".. ولقد تم العمل بموجب  
هذه الصفقة عقوداً طويلة.. منذ أكثر من قرن وربع القرن وهذه الصفقة تتوالى.

• • •

كان أول نموذج لتحالف اليمين المسيحي الذي يؤمن بقيام إسرائيل كشرط أساسي  
لمودة المسيح - في نهايات القرن التاسع عشر.

حيث قام المبشر المسيحي "ويليام بلاكستون" بشن حملة على الرئيس الأمريكي  
"بنيامين هارسون" من أجل دعم إنشاء دولة يهودية في فلسطين. كان ذلك في عام 1891م،  
وقد مثلت حملة "بلاكستون" الظهور الأول للصهيونية المسيحية في السياسة الأمريكية.

لقد امتد ذلك حتى تأسيس إسرائيل عام 1948م.. وامتد حتى توسع إسرائيل عام  
1967م.. وتواصل حتى ظهور شخصيات شديدة الإيمان بتلك العقيدة مثل رونالد ريغان  
وجورج بوش الابن.. ولا يزال ذلك الإيمان هو الأساس الأيديولوجي للتحالف الأمريكي  
الإسرائيلي.

يذكر الباحثان الأمريكيان "ستيفن وولت" و "جون مير شايمر" في دراستهما عن  
تحالف اليمين المسيحي مع اليهودية الصهيونية، أن ذلك التحالف زاد بقوة بعد حرب  
1967.. حيث رأى المجتمع البروتستانتي الأصولي أن حرب 1967 ونتائجها كانت  
تحقيقاً لنبوءة التوراة بانبثاق دولة يهودية في فلسطين. وكتب أحدهم في دورية "المسيحية اليوم"  
بعد حرب 1967 يقول: "للمرة الأولى منذ أكثر من (2000) سنة القدس الآن في أيدي اليهود، وهو ما يعطى دارسى الكتاب المقدس إيماناً متجدداً في دقته وصحة  
مضمونه".

ويكمل "ستيفن وولت" و "جون ميرشايمر" : "لقد زادت صلابة التحالف بين اليمين المسيحي واليهودية الصهيونية في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات وسطع نجم المسيحية الصهيونية "جيرى فالويل" .

في عهدى كارتر وريجان أسس " فالويل " حركة دينية باسم " الأغلبية الأخلاقية " وكان من أبرز مقولاتها : " الوقوف ضد إسرائيل يعادل الوقوف ضد الرب " .. وعلى الفور كانت إسرائيل تدفع الكافأة .. ففى عام 1981م قدم رئيس الوزراء الإسرائيلى "مناحم بيجن " إلى " فالويل " جائزة " جابوتنسكى " تقديراً لدعمه الكبير لدولة إسرائيل.

• • •

بمثل ما مثل عام 1967م محطة أساسية في تطور صفقة "المسيحية الصهيونية"، كان عام 1977م هو الآخر محطة مهمة.. حيث وصل حزب الليكود إلى السلطة في إسرائيل في ذلك العام، وكان بيجن يعتبر ذلك التحالف أساس مشروع.

توسع مناخم بيجن في بناء المستوطنات بدعم وتأييد من اليمين المسيحي، وكان يتحدث عن "الضفة الغربية" بالاسم الذى جاء في التوراة.. وهو "يهودا والسامرة" من أجل إحياء فكرة قيام الدولة اليهودية وارتباط ذلك بعودة المسيح.

• • •

استمر النفوذ المتعاقد للمسيحية الصهيونية بلا انقطاع.. وزاد النفوذ إلى حد القدرة على الضغط على البيت الأبيض.. وعلى قرارات السياسة الخارجية الأمريكية الخاصة بالصراع العربى الإسرائيلى.

وعندما أعلن الرئيس جيمى كارتر ترحيبه إقامة دولة فلسطينية مستقلة، قامت المنظمات المسيحية الصهيونية بالاعتراض على كارتر.. ونشرت إعلانات بارزة في الصحف تدين التصريحات.. واضطر كارتر إلى نسيان تصريحاته بعد قليل

كانت إسرائيل تزداد قوة في أمريكا.. ورأى قادتها أن اليمين المسيحي داعم كاف

لإسرائيل ربما لا يتم الإحتياج معه كثيراً إلى البيت الأبيض ذاته!

لقد حدث القصف الإسرائيلي للمفاعل النووي العراقي عام 1981م.. لم يتم مناحم  
"بيجن" بالاتصال بالرئيس.. بل اتصل بأكبر زعماء اليمين المسيحي "جيري فالويل" ليقوم  
"فالويل" بنشر ذلك إلى الرأي العام الأمريكي.. إن واحداً في وزن "جيس هيلمز" رئيس  
لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ كان ضد الضربة ولكن "فالويل" نجح في إقناعه  
بتأييدها!

كان الرئيس رونالد ريغان مؤمناً في الأصل بالصلة بين إنشاء إسرائيل وعودة  
المسيح.. ونقل رئيس منظمة الإيباك عن الرئيس ريغان إيمانه التام بذلك دون الحاجة إلى  
إقناع.

• • •

جاء الرئيس كلينتون من خارج هذه العقيدة ولم يكن على وفاق مع "الإيباك".. ولكن  
عهد الرئيس بوش جدد تلك العقيدة ودفعها خطوات بعيدة للأمام وحين طالب بوش الابن  
بالانسحاب من الضفة الغربية هاجمته المسيحية الصهيونية.. فعاد إلى إيمانه الراسخ  
بنظرية "إسرائيل ومجن المسيح". وفي عهده ظهرت منظمات جديدة مؤيدة لإسرائيل.. من  
أبرزها منظمة "قف بجانب إسرائيل Stand For Israel" التي أسسها "بادي بوار" أحد  
رموز المسيحية الصهيونية.

لقد كانت المسيحية الصهيونية سبباً في تلك التحولات التي طرأت على الحزب  
الجمهوري الذي صار أكثر تديناً وتحول تدريجياً من حزب الأغنياء إلى حزب الأخلاق  
المسيحية.

يرصد "ستيفن وولت" ذلك التحول قائلاً: "كان الحزب الجمهوري يستهدف  
الطبقات المتوسطة.. لكن أدرك أن هذه الطبقات التي يسعى للحصول على تأييدها هي  
الطبقات المتضررة من سياساته الاقتصادية.. فالحزب متمسك بمبادئ الإقتصاد الحر



وتقليص البرامج الحكومية التي تدعم الطبقات المتوسطة. كان التحدى الكبير إن أمام  
الحزب الجمهورى : كيف يمكن للحزب أن يكسب الطبقات التي يقوم برنامجه على  
الإضرار بها ؟

وكان الحل السحري الذى توصل إليه هو "المبادئ المسيحية" و"قيم الأسرة".. وبدأ  
الحزب يروج فى دعايته أنه المحافظ الرئيسى على الأخلاق المسيحية الأصيلة التي  
تراجعت فى المجتمع نتيجة صعود التيارات الليبرالية".

• • •

الصافى إن.. أن إسرائيل نجحت فى تأسيس الإطار السياسى للعقيدة الصهيونية  
المسيحية.. وباتت تلك العقيدة منجم الذهب الذى لا ينفذ فى دعم مشروع دولة إسرائيل.

لكن إسرائيل التي تلعب بالعلاقات بين الدين والسياسة.. لم تستطع منع المتلاعبين  
بالدين من استخدام نفس الملاح ضد إسرائيل.. إنهم المتدينون اليهود الذين يجدون رواجاً  
فى الخارج.. ولكنهم سوف يحطمون الداخل.. إنهم يؤمنون بالتوراة ولا يؤمنون بالدولة..  
يقراون التلمود ولا يقرأون الفيزياء.. إنهم "مستقبل إسرائيل" أو بالأحرى إنهم "لا مستقبل  
إسرائيل".

## خاتمة.. ما بعد إسرائيل أو ما بعد العرب

إن إسرائيل في مفترق طرق.. ولكن العالم العربي في مفترق طرق هو الآخر..  
إما إشراقة جديدة مع بشائر الربيع العربي.. وأما إخفاقة جديدة تمتد عقوداً أخرى.  
نحن وإسرائيل في نفس المفترق.. يمكن أن يكون المستقبل على نحو ما مضت  
الفرضية العامة لهذا الكتاب.. "خريف إسرائيل وربيع العرب"..  
ويمكن أن يتحول ربيع العرب إلى خريف متجدد.. ويعاود العالم العربي الفشل من  
جديد.

وحيث أن العلاقة عكسية بين العرب وإسرائيل.. فإن هبوط العالم العربي يعنى  
بالضرورة صعود إسرائيل.. وقتها لن يكون العنوان الدقيق هو "ما بعد إسرائيل" بل سيكون  
"ما بعد العرب"!

• • •

إننى واحد من أعضاء مدرسة الأمل.. وواحد من المؤمنين أن ربيع السياسة سوف  
يأتى وراءه ربيع الحضارة..  
إننى مؤمن تماماً.. أن مشروع النهضة لبلادنا قد بدأ.. وأننا نستطيع.

فہرست



5	إهداء.....
7	من هنا نقرأ.....
9	مقدمة الطبعة الثانية.....
23	مقدمة الطبعة الأولى.....
37	الفصل الأول: ما قبل إسرائيل.....
41	أديان متحركة.. ارتباك التاريخ.....
61	نصوص متحركة.. نقد التوراة.....
75	أجناس متحركة.. مشكلة السامية.....
85	موسى بن ميمون.. ضبط الحركة.....
95	اسبينوزا.. الحركة خارج الدين.....
107	الفصل الثاني: الصهيونية.. سيرة متفرقة.....
111	إجابة خاطئة لسؤال غير مطروح.....
117	عودة غامضة إلى أرض مجهولة.....
125	تعامل غير عادي مع أخطار عادية.....
137	مفاوضات سلام تمضى من غير سلام.....
177	الفصل الثالث: ما بعد الصهيونية.....
185	المؤرخون الجدد.. معرفة تقارب الاعتذار.....

211	تجديد الصهيونية.. الشرق الأوسط الجديد.....
235	الأصولية اليهودية.. أو هام المبد الثالث.....
261	الفصل الرابع : إسرائيل الصغرى.....
263	إسرائيل والعالم.. بعض التحولات.....
279	المؤرخون الجدد.. الإنحراف جهة اليمين.....
287	تكسير المحيط . أصداء الحروب المظلمة.....
295	الفاشية الصهيونية.. تهديد الغرب.....
303	الإنحسار.. من دولة إسرائيل إلى دولة تل أبيب.....
312	خاتمة.. ما بعد إسرائيل أو ما بعد العرب.....

• • •

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**



**\*\* معرفتي \*\***

**www.ibtesama.com**

**منتديات مجلة الإبتسامه**

# إِسْرَائِيلُ

انتهت خرافة "إسرائيل الكبرى" وبدأت حقيقة "إسرائيل الصغرى".

في شتاء عام ٢٠١٢ أخذت فلسطين مقعدها دولة مراقب في الأمم المتحدة.. للمرة الأولى، ثم طالبت الأمم المتحدة بحضوع إسرائيل للتفتيش النووي.. للمرة الأولى.

ورغم أن العالم العربي يمضي أيامه نصف ربيع ونصف حريف.. إلا أن إسرائيل التي تشهد زيادة السكان العرب وصعود الأصولية اليهودية.. باتت هي الأخرى نصف إسرائيل. هذا كتاب في الدين والسياسة.. في الجغرافيا والتاريخ.. في الخلل والفرص.. في الخطأ والأفق.. في كتاب في المعرفة والأمل.

تصميم الغلاف كريم ادم







Exclusive  
For

[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)